٧ ربيع | ٢٠٢٦م ١٤٤٧هـ

الاستعمار

COLONIALISM

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار
تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م

الافتتاحية

الاستلاب المائي
آليات الهيمنة وتقويض السيادة المحلية

حوارات

- الاستعمار الرقمي ومآلات الحداثة: من عبادة العقل إلى هيمنة الخوارزميات — د. محمود حيدر

بحوث و دراسات

- الاستعمار الرقميّ والهيمنة التكنولوجيّة في القارّة الإفريقيّة — د. دعاء عبد النبي
- تطوّر الاقتصاد المصريّ من الحرب العالميّة الأولى إلى ثورة ١٩٥٢ — د. شريف إمام
- ثورة الزعاطشة في المقاومة الشعبيّة الجزائريّة نقطة تحوّلٍ في العام ١٨٤٩ م — د.زينب رزيوي
- دور علماء الأزهر في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ والإنجليزيّ — د. غيضان السيّد علي
- هولوكوست الأغواط الاستعمار الفرنسي والإبادة الجماعية في الجزائر — د.شريف الدين

قراءات علمية

- قراءة في كتاب معضلة التنمية الاستعمارية — م.م مصطفى الشمري
- قراءةٌ في السيرة الجهاديّة للسيّد عبد الرزّاق الحلو (قدس) — السيّد خالد الحلو

ترجمات

- التّصوير التّاريخيّ المضِلّ للإسلام والمسلمين: مراجعة وصفية لهوليوود — مجموعة باحثين

نصوص مستعادة

- نظريّة ما بعد الاستعمار — د. جميل حمداوي

7

الاستعمار

Colonialism

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار

تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية ٢٧٦٧ لسنة ٢٠٢٤م.

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تُعبّر بالضرورة عن توجّهات المركز

صورة الاستعمار

«إِنَّ الاِسْتِعْمَارَ الجَدِيدَ هُوَ أَبْشَعُ صُورَةٍ لِلاِسْتِعْمَارِ؛ فَهُوَ يَعْنِي السَّيْطَرَةَ عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ إِدَارَتِهَا. بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ يُمَارِسُونَهُ فَهُوَ يَعْنِي السُّلْطَةَ بِلاَ مَسْؤُولِيَّةٍ، وَبِالنِّسْبَةِ لِمَنْ يُعَانُونَ مِنْهُ فَهُوَ يَعْنِي الاِسْتِغْلاَلَ بِلاَ رَادِعٍ».

كوامي نكروما، الاستعمارُ الجديدُ: آخرُ مراحلِ الإمبرياليّةِ، المقدّمة، ص ١١.

الاستعمار
Colonialism

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار
تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية ٢٧٦٧ لسنة ٢٠٢٤م.

رئيس التحرير
د.هـــاشم الميلاني

مدير التحرير
د. عمار عبد الرزاق الصغير

سكرتير التحرير
د. فرقان الحسيني

هيئة التحرير

أ. الشيخ جمال عمار	أستاذ الفكر المعاصر/ تونس.
د. حسّان عبد الله حسّان	أستاذ العلوم التربوية والنفسية/ مصر.
أ. الشيخ حسن الهادي	باحث في الفكر الاسلامي واستاذ في الحوزة العلمية/ لبنان
د. محمود حيدر	أستاذ الفلسفة الفكر المعاصر/ لبنان.
د. ياسين شهاب البيجواني	أستاذ التاريخ المعاصر/ العراق.
د. يحيى أبو زكريا	أستاذ الحضارة الاسلامية/ الجزائر

تدقيق اللغة العربية
د. فضاء ذياب

للتواصل
ـ موقع المركز: http://www.iicss.iq
ـ موقع المجلة: colonialism.iicss.iq
ـ إيميل المجلة: info@colonialism.iicss.iq

رسالة المجلة

دراسة حقبات الاستعمار الغربي القديم والجديد للدول والشعوب، وما بعد الاستعمار، وتعزيز ذلك بالوثائق. وبيان الدوافع والغايات الاستعماريّة من النواحي السياسيّة، والاقتصاديّة، والتربويّة، والثقافيّة، والفكريّة.

والكشف عن الطبيعة الهمجيّة والمتوحّشة للحروب الاستعماريّة العسكريّة، وآثارها التدميريّة، على البلاد المستعَمرة وقتل أهلها، وآثار الغزو الثقافيّ على الهوية الثقافيّة والدينيّة والاجتماعيّة والإضرار بالمواطنة، والتشكيك بالقيم، وتغريب الوعي، وتمزيق الوحدة بإيجاد الاختلافات وتنمية الانقسامات وبثّ الفرقة، وتعميق الاختلاف الطائفي والعنصري والقومي والديني وافتعال الأزمات، وآثار ذلك حتى الوقت الراهن؛ للخروج بصورةٍ واضحةٍ عن السياسة الاستعمارية، وما تُخلِّف من خرابٍ مُستدامٍ في واقع الشعوب؛ ممّا يسهم في فهم الآخر والواقع، وتكوين وعيٍ وطنيّ مستقلٍ للحاضر والمستقبل.

ولا تُغْفِل المجلةُ دورَ المقاومة الدينيّة والفكريّة والعلميّة والأدبيّة والميدانيّة والسياسيّة في مناهضة مشروع الاستعمار، وتأريخ نهضة الشعوب وجهادها في مواجهة المدّ الاستعماري الغربي.

ضوابط النّشر

تُرحّب مجلّة (الاستعمار) بنشر الأبحاث العلميّة الأصيلة، وفقًا للشروط والضوابط العلمية والمنهجية الآتية:

١. تنشر المجلّة الأبحاث العلميّة والدراسات الرصينة - ذات العلاقة بهوية المجلة - التي تلتزم بمنهجيّة البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالميًّا.

٢. العناية بنقد الاستعمار القديم والجديد ومابعد الاستعمار ، وبيان الصورة المظلمة التي خلّفها، وعدم الاكتفاء بالعرض والوصف.

٣. ألّا يكون البحث قد نُشر سابقًا في مجلّةٍ أو كتابٍ أو موقعٍ الكتروني...، وليس مقدّمًا إلى أيّة وسيلة نشرٍ أخرى، وعلى الباحث تقديم تعهّدٍ مستقلٍّ بذلك. وعليه أنْ يُشير فيما إذا كان البحث قد قُدّم إلى مؤتمرٍ أو ندوة، وأنّه لم يُنشر ضمن أعمالهما.

٤. تعبّر جميع الأفكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبيها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة إلى موجبات فنيّة، ولا علاقة له بمكانة الكاتب وأهميّة البحث.

٥. أنْ يُكتب البحث باللّغة العربيّة، ويُرسل منه نسخة إلكترونيّة بصيغتي «Word» و «pdf»، بحدود (٥,٠٠٠-٧,٠٠٠) كلمة، بخط «Simplified Arabic»، على أن تُرقّم الصفحات ترقيمًا متسلسلاً.

٦. تقديم ملخّصٍ للبحث باللّغة العربيّة، يُوضع في أوّل البحث، ولا يزيد على (١٥٠) كلمة، على أنْ يتضمّن عنوان البحث، واسم المؤلّف، وتخصصه، وجهة العمل (باللغتين العربيّة والإنكليزيّة)، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني.

٧. تكون هوامش كلّ صفحةٍ في أسفلها، والمصادر والمراجع في نهاية البحث. أما طريقة كتابة المصادر والمراجع فتكتب على وفق الصيغة العالميّة المعروفة بـ «Chicago-»، وهي على النحو الآتي: اللقب، اسم المؤلف، عنوان الكتاب، اسم المُحقِّق أو المُترجِم أو المُراجِع أو المُصحِّح -إنْ وجد- ، الطبعة ، المجلد أو الجزء، مكان الطبع، اسم المطبعة، سنة الطبع. وفي المقالات تكون على الترتيب الآتي: اسم المؤلف، عنوان المقال، اسم المجلّة العلميّة، جهة الصدور، رقم العدد، تأريخه، ورقم الصفحة.

٨. يُزوَّد البحث بقائمة المصادر منفصلةً عن الهوامش، وفي حالة وجود مصادر أجنبيّة يُفرد لها قائمةٌ مستقلّةٌ عن قائمة المصادر العربيّة، ويُراعى في إعدادها الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

٩. يجب أنْ يُرفق الباحث تعهّدًا خطّيًّا ببحثه، هذه صيغته:

جانب مدير تحرير مجلة الاستعمار المحترم

أقرّ أنا الموقّع على هذا أدناه وأتعهّد .... (يذكر اسم الباحث) ....(الصفة العلمية للباحث) بأنّ هذه المادة وعنوانها: .....(العنوان الكامل للبحث)، هي من إنتاجي العلمي؛ ولهذا فهي تدخل في ملكيتي الفكريّة، ولم يسبق نشرها، وإنّي أُعطي مجلّتكم الكريمة حقّ الطبع والنّشر والتّرجمة، وإعادة النّشر والتوزيع الورقي أو الالكتروني.

١٠. لا يحقّ للباحث أنْ يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيأة التّحرير.

١١. تخضع الأبحاث المستلمة لبرنامج الاستلال العلمي ««Turnitin. وتخضع كذلك لتقويم سرّيّ لبيان صلاحيّتها للنشر، ولا تُعاد الأبحاث إلى أصحابها سواء أقُبِلت للنشر أم لم تُقبل.

١٢. الأبحاث التي يرى المقوِّمون وجوب إجراء تعديلاتٍ عليها قبل نشرها تُعاد إلى أصحابها، مع الملاحظات المحدّدة، كي يعملوا على إعدادها نهائيًّا للنشر.

المحتوى

الافتتاحية: الاستلاب المائي: آليات الهيمنة وتقويض السيادة المحلية ٨

الحوارات

الاستعمار الرقميّ ومآلات الحداثة: من عبادة العقل إلى هيمنة الخوارزميّات
د. محمود حيدر ١٤

بحوث ودراسات

الاستعمار الرقميّ والهيمنة التكنولوجيّة الأمريكيّة – الصينيّة في القارّة الإفريقيّة: قراءةٌ نقديّةٌ في بنية السيطرة الرقميّة الجديدة
د. دعاء عبد النبي حامد ٣٠

تطوّر الاقتصاد المصريّ من الحرب العالميّة الأولى إلى ثورة ١٩٥٢، معضلة التبعيّة للكولونياليّة
د. شريف إمام ٦٨

ثورة الزعاطشة في المقاومة الشعبيّة الجزائريّة، نقطة تحوّلٍ في العام ١٨٤٩ م
زينب رزيوي ٩٤

دور علماء الأزهر في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ والإنجليزيّ
د. غيضان السيّد علي ١١٨

هولوكوست الأغواط، الاستعمار الفرنسي والإبادة الجماعيّة في الجزائر
د.شريف الدين بن دوبه ١٤٢

قراءات علمية

قراءةٌ في كتاب (معضلة التنمية الاستعماريّة نظراتٌ في دعاوى إيجابيّات الاستعمار)
م.م مصطفى الشمري ١٥٦

قراءةٌ في السيرة الجهاديّة للسيّد عبد الرزّاق الحلو (قدس)
السيّد خالد الحلو ١٧٤

ترجمات

التّصويرُ التّاريخيُّ المضِلُّ للإسلام والمسلمين: مُراجَعةٌ وَصْفيّةٌ لهوليوود
د. نورين عبيدة، د. نظر شبانة، مصطفى نيّار ٢٠٤

وثائق

نظريّة ما بعد الاستعمار الأطروحة في خدمة علم الاستغراب
د.جميل حمداوي ٢٢٠

ترجمة ملخّصات المحتوى بالإنكليزيّة ٢٤٨

الافتتاحية

الاستلاب المائي
آليات الهيمنة وتقويض السيادة المحلّيّة

يُعدّ مفهوم «استعمار المياه» (Water Colonialism) أحد أخطر تجليات الصراع الحديث على الموارد، حيث يتجاوز مجرد النقص المادّي للمياه ليدخل في سياق السيطرة السياسيّة والقانونيّة. إنّه نظامٌ يعيد صياغة ملكيّة المياه لتكون أداةً في يد القوى المهيمنة (دولاً أو شركات) لتطويع الشعوب الأصليّة والمجتمعات المحليّة.

أوّلًا: جوهر استعمار المياه

لا يتوقّف استعمار المياه عند احتلال منابع الأنهار، بل يتغلغل عبر أدواتٍ ناعمةٍ وخشنة تشمل:

• **نزع الملكيّة التاريخيّة:** إلغاء الحقوق العرفيّة للسكّان الأصليين في مياههم لصالح قوانين مركزيّة حديثة.

• **تسييس العطش:** تحويل الوصول إلى المياه إلى سلاحٍ أو أداة ضغطٍ سياسيّ لفرض تبعيّةٍ مطلقة.

• **السلعنة القسريّة:** تحويل المياه من حقٍّ إنسانيّ مشاعٍ إلى سلعةٍ تجاريّةٍ تخضع لقوانين السوق والشركات العابرة للقارات.

ثانيًا: تجليات الاستعمار المائي

١. الاستعمار الاستيطاني: الجغرافيا السياسيّة للعطش

يتمثّل في إعادة هندسة الطبيعة والموارد لخدمة المستوطِن على حساب السكّان الأصليين، بنحوٍ تتحول المياه من موردٍ مشتركٍ إلى أداةٍ للهيمنة وإعادة تشكيل المجال الحيوي.

• نموذج أستراليا

خلال التوسع الاستيطاني البريطاني في أستراليا، أُعيد تنظيم استخدام الأراضي ومصادر المياه بما يخدم المزارع والمستوطنات الأوروبيّة، خصوصًا في حوض حوض موراي- دارلينغ. فقد سيطر

المستوطنون على الأنهار والينابيع وحوّلوها إلى ملكياتٍ خاصّةٍ تُدار وفق منطق الزراعة التجاريّة، بينما حُرمت جماعات السكّان الأصليين (الأبورجينال) من الوصول الحرّ إلى مصادر المياه التي شكّلت أساس نمط حياتهم التقليدي.

هذا التحوّل لم يكن اقتصاديًّا فحسب، بل جغرافيًا سياسيًا؛ إذ جرى تثبيت المستوطن عبر شبكات الري والسدود، في حين تراجعت المجتمعات الأصليّة إلى أطراف قاحلة أقلّ خصوبةً ومحدودة الموارد. وهكذا أصبحت المياه أداةً لإعادة رسم الخريطة السكانيّة والاجتماعيّة، بما يعكس علاقةً غير متكافئةٍ في توزيع الموارد والقدرة على التحكّم بها.

٢. استعمار المشاريع الكبرى: السدود واغتيال النظم البيئيّة

تستخدم الحكومات المركزيّة التنمية ذريعةً لبناء سدودٍ عملاقةٍ تؤدّي إلى تهجيرٍ قسريّ وتدميرٍ للهويّة الثقافيّة.

• مأساة سد «إيتايبو» (البرازيل/باراغواي): التهجير: تشريد ١٠,٠٠٠ أسرة من ضفاف نهر بارانا.

٣. الاستعمار النيوليبرالي: خصخصة الوجود

فرضُ سياساتٍ اقتصاديّة من مؤسّساتٍ دوليّة تجبر الدول النامية على بيع قطاع المياه لشركاتٍ خاصّة؛ ممّا يجعل القدرة الشرائيّة هي معيار البقاء.

نموذج بوليفيا (٢٠٠٠م): حرب المياه في كوتشابامبا، حيث انتفض المجتمع ضدّ خصخصة المياه التي جعلت حتى جمع مياه الأمطار أمرًا غير قانوني لضمان أرباح الشركات.

ثالثًا: التبعات المترتبة على السياسة الاستعماريّة للمياه

تتجاوز الآثار العطش لتشمل تدميرًا شاملاً لنسيج الحياة، من ذلك:

• تجفيف الأراضي الرطبة، وفقدان التنوع البيولوجي، وتغير النظم المناخيّة المحلّيّة.

• تفكّك المجتمعات المحلّيّة، وفقدان الهويّة المرتبطة بالأرض، والتهجير القسري.

• انتشار الأوبئة نتيجة اضطرار السكّان لاستخدام مصادر ملوثة بعد مصادرة المصادر النقيّة.

• تصاعد وتيرة (حروب المياه)، والنزاعات الحدوديّة العنيفة.

رابعًا: المسار نحو «السيادة المائيّة» (إستراتيجيّات المواجهة)

لمواجهة هذا الاستعمار، يبرز مفهوم «السيادة على المياه» (Water Sovereignty) كإطارٍ بديلٍ يقوم على:

١. **استعادة المشاع:** التأصيل القانوني والمجتمعي للمياه بوصفه حقًّا طبيعيًّا غير قابلٍ للبيع أو المقايضة.

٢. **الإدارة اللامركزيّة:** تمكين المجتمعات المحلّيّة من إدارة مواردها وفقًا لخبراتها التاريخيّة واحتياجاتها الفعليّة بعيدًا عن إملاءات المركز.

٣. **الاستقلال التقني:** تبنّي حلولٍ مستدامةٍ ومنخفضة التكلفة (مثل حصاد مياه الأمطار، والتحلية الصغيرة، وإعادة تدوير المياه الرمادية) لكسرٍ التبعيّة للشبكات التي تسيطر عليها القوى المهيمنة.

يحتوي هذا العدد على مجموعة أبحاثٍ تناقش قضايا الاستعمار من زوايا معرفيّة متنوعة:

تتناول الحواريّة النقديّة للدكتور محمود حيدر مفهوم (الاستعمار الرقمي) بوصفه وجهًا معاصرًا للحداثة الغربيّة، التي انتقلت من سلطة العقل الأداتي إلى هيمنة الخوارزميّات واحتكار البيانات. وتحلّل الحواريّة كيف تنتج الشركات الكبرى أشكالاً جديدةً من التبعيّة والاغتراب الرقمي؛ ممّا يسلب المجتمعات سيادتها الثقافيّة والسياسيّة عبر أدواتٍ تقنيّةٍ ناعمة. كما تدعو إلى ضرورة تحقيق السيادة الرقميّة، وتوطين التكنولوجيا ضمن إطارٍ قيميّ يوازن بين التقدّم المادي والبعد الروحي للإنسان. وتخلص الحوارية إلى أهميّة التحرّر من الاستلاب التقنيّ لحماية الهويّة والمستقبل من هيمنة القوى التكنولوجيّة الكبرى.

أمّا محور (الدراسات والبحوث) فقد تضمّن خمسة أبحاث:

الأول: تناول «الاستعمار الرقمي» بوصفه شكلاً جديدًا للهيمنة على القارة الإفريقيّة عبر الخوارزميّات والبنى التحتيّة التكنولوجيّة بدلاً من الجيوش. وحلّل الصراع الأمريكي- الصينيّ، وآليات سيطرتهما على البيانات في (الجنوب العالمي) ضمن تحوّلٍ رقميّ يفتقر للسيادة الوطنيّة. كما كشف البحث في مقاربته النقديّة أوجه التشابه بين الاستعمار التقليديّ والاستعمار الرقميّ، مع رصد محاولات المقاومة الرقميّة لبناء أنظمةٍ مستقلّة. وخلص إلى ضرورة تبنّي منظورٍ تحرّري يعزز العدالة الرقميّة والاستقلاليّة المعلوماتيّة للدول النامية.

الثاني: استعرض تحوّل الاقتصاد المصري من التبعيّة المطلقة للاحتلال البريطاني و(أحادية القطن) إلى محاولات التصنيع الوطني التي قادها بنك مصر عام ١٩٢٠م. ورغم نجاح البرجوازيّة المحلّيّة في استغلال ظروف الحربين العالميتين والحماية الجمركيّة لعام ١٩٣٠م لتعزيز الإنتاج المحلي، فإنّها ظلّت مكبلةً بجدليّة الشراكة مع رأس المال الأجنبي. وانتهت هذه الحقبة بتحقيق مكاسب في (التمصير)، وإلغاء الامتيازات، لكن مع بقاء عوائق هيكليّة متمثلة في هيمنة كبار الملاك والارتباط بالنظام الرأسمالي العالمي حتى عام ١٩٥٢م.

الثالث: سلّط الضوء على مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م، كنموذجٍ بطوليّ للمقاومة الشعبيّة في الجنوب الجزائري بقيادة الشيخ بوزيان. وبيّن عوامل صمود الواحة الأسطوري أمام الحصار والقوات الاستعماريّة الفرنسيّة، رغم انتهائها بإبادةٍ جماعيّةٍ شكّلت بداية التوغّل الفرنسي نحو الصحراء. وأبرز هذا البحث كيف تحوّلت هذه المعركة إلى مدرسةٍ ملهمةٍ للثورات اللاحقة وأولى عتبات التضحية من أجل الحريّة والكرامة. وتؤكّد النتائج أنّ الزعاطشة لم تكن مجرد معركةٍ خاسرة، بل نقطة تحوّلٍ مفصليّة في سجل الكفاح الجزائري ضدّ الاحتلال.

الرابع: أثبت هذا البحث الدور المحوريّ لعلماء وخريجي الجامع الأزهر بوصفهم حائط صدٍّ أول في مواجهة الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي وحماية الهويّة الثقافيّة. وتستعرض هذه الورقة انخراطهم الميداني والسياسي بدءًا من ثورات القاهرة التاريخيّة وصولاً إلى حركات التحرّر الكبرى في القرنين العشرين والتاسع عشر. كما تظهر النتائج أنّ نضال الأزهر تجاوز العمل العسكري ليرسخ الوعي القومي والتحرّر من التبعيّة الفكريّة والسياسيّة للمستعمِر. وبذلك، ينتهي هذا البحث إلى أنّ الأزهر ظلّ مؤسّسةً وطنيّةً جامعةً قادت حركات التحرّر، وحافظت على كيان الدولة المصريّة عبر العصور.

الخامس: سلّط الضوء على «محرقة الأغواط» (١٨٥٢) بوصفها نموذجًا صارخًا للإبادة الجماعيّة التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي ضدّ الشعب الجزائري، والتي راح ضحيتها ثلثا سكان المدينة. ويبيّن هذا البحثُ أنّ هذه الجريمة لم تكن مجرد مواجهة عسكريّة، بل خطّة استراتيجيّة وحشيّة للسيطرة على موارد الطاقة، تضمّنت استخدام أسلحةٍ كيماويّةٍ محظورةٍ كغاز الكلوروفورم؛ ممّا يجعل هذه الواقعة جريمةَ حربٍ مكتملة الأركان، مدعومةً باعترافاتٍ رمزيةٍ عبر تخليد ذكراها في باريس، لتظلّ شاهدًا حيًّا على وحشيّة المركزيّة الاستعماريّة.

وفي هذا العدد، تتوزع المواد على مجموعةٍ من المحاور والبحوث المتنوّعة:

في محور القراءات العلميّة هناك دراستان مهمّتان:

الأولى: تؤرّخ للسيرة الجهاديّة لآية الله العظمى السيّد عبد الرزاق الحلو، مبرزةً نموذجه الفريد في المزاوجة بين الاجتهاد الفقهي والقيادة الميدانيّة ضدّ الاحتلال البريطاني. وتسلّط الضوء على دوره الرياديّ في استنهاض عشائر الجنوب وقيادة جبهات البصرة والكوت، معتمدًا على الإمكانات الذاتيّة لترسيخ استقلال القرار المقاوم. كما تؤكد أنّ حركته انطلقت من منطلقٍ شرعيّ لحماية بيضة الإسلام؛ ممّا عمّق التلاحم التاريخيّ بين الحوزة العلميّة والقضايا الوطنيّة. وبذلك، تخلص الدراسة إلى عدّ سيرته مدرسةً ملهِمةً في تاريخ المقاومة الدينيّة والسياسيّة العراقيّة المعاصرة.

الثانية: يفنّد فيها الكاتب أطروحات «تبييض» الاستعمار، مؤكدًا أنّ المنجزات التنمويّة الماديّة

لم تكن إلاّ أدوات لخدمة مصالح المستعمِر وتكريس هيمنته بعيدة الأمد. ويُظهر المؤلّف آليات تحوّل الاستعمار إلى صيغته (الجديدة) التي تستخدم نُخبًا محليةً لإعادة إنتاج التبعيّة والتجزئة تحت شعارات التحديث المضلّلة. كما يرفض تحميل الدولة الوطنيّة وحدها مسؤوليّة الفشل، معيدًا الجذور إلى البنية المشوّهة والإرث الاستغلالي الذي خلفته الحقبة الاستعماريّة. ويخلص إلى أنّ أيّ نفعٍ عرضيّ لا يغيّر من جوهر الاستعمار القائم على الاحتكار وسلب الإرادة السياسيّة للشعوب.

أما في محور الترجمة، تستعرض هذه الترجمة التي تحمل عنوان ((التّصويرُ التّاريخيُّ المضِلُّ للإسلام والمسلمين: مُراجَعةٌ وَصْفيّةٌ لهوليوود)) الجذور التاريخيّة للصورة الذهنيّة المشوّهة للعرب والمسلمين في سينما هوليوود، عادّةً هذا التشويه امتدادًا لصراعاتٍ قديمةٍ كالحروب الصليبيّة والإرث الاستعماري. وتكشف الترجمة أنّ (الإسلاموفوبيا) السينمائيّة ليست صدفة، بل أداة لترسيخ الهيمنة الثقافيّة والسياسيّة في ظلّ الليبراليّة الجديدة، وتحوّل مركز القوة إلى الولايات المتّحدة. كما تبرز الورقة كيف أعيد إنتاج العداء التاريخي في قوالب فنيّةٍ معاصرةٍ تخدم السرديّة الاستشراقيّة، وتكرّس النمطيّة المهينة. وتخلص في النهاية إلى ضرورة تفكيك هذه الصور النمطيّة لفهم أبعاد الصراع الثقافي العميق بين الغرب والعالم الإسلامي.

وفي محور نصوص مستعادة، يعاد نُشر بحثٍ يستعرض «نظريّة ما بعد الاستعمار» بوصفها تيّارًا نقديًّا يسعى لتقويض المركزيّة الغربيّة وتفكيكٍ ثنائيّة (الأنا والآخر) التي كرسها الخطاب الإمبراطوري. ويوضّح تحوّل هذه النظريّة إلى أداةٍ فاعلةٍ لخدمة (علم الاستغراب)، عبر تحويل الغرب إلى موضوعٍ للدراسة بدلاً من كونه سلطةً معرفيّةً مطلقة. كما يحلّل إسهامات الرواد مثل إدوارد سعيد، وهومي بابا، وفرانز فانون في تعزيز مفاهيم التهجين والمقاومة الثقافيّة لاستعادة الهويّة الوطنيّة. ويخلص البحث إلى أنّ هذه النظريّة تمثّل حركةً تحرريّةً تسعى لإثبات التعدّديّة الثقافيّة ومواجهة سياسات التغريب والإقصاء في عالم ما بعد الحداثة.

ويختتم العدد بهذا النصّ، ليغلق ملف هذا الإصدار برؤيةٍ تحليليّةٍ توثّق صراع الشعوب في سبيل تقرير المصير.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

د. فرقان الحسينيّ

٢٠٢٦/٣/١م

الحوارات

يتناول هذا الباب حوارات هادفة حول الاستعمار القديم والجديد ونظريات ما بعد الاستعمار مع المختصين بهذا الشأن في الشرق والغرب

الاستعمار الرقميّ ومآلات الحداثة: من عبادة العقل إلى هيمنة الخوارزميّات

د. محمود حيدر

الاستعمار الرقميّ ومآلات الحداثة: من عبادة العقل إلى هيمنة الخوارزميّات

حوارٌ مع الدكتور محمود حيدر

حاوره م.م مصطفى الشمّري

المُلخّص

تتناول هذه الحواريّة المعمّقة التي أُجريت مع الدكتور محمود حيدر الجذور الفلسفيّة والتاريخيّة لظاهرة (الاستعمار الرقميّ)، متتبعةً مسار الحداثة الغربيّة من تقديس (العقل الأداتي) إلى عبادة التقنية والآلة. يفكك الدكتور محمود حيدر آليات الهيمنة الناعمة التي تمارسها الشركات التكنولوجيّة الكبرى عبر الاستحواذ على البيانات، واحتكار البنى التحتيّة، وفرض أنماطٍ ثقافيّةٍ ومعرفيّةٍ تسلب المجتمعات سيادتها، وتُدخلها في حالةٍ من الاغتراب. وبخلاف الاستعمار العسكريّ الكلاسيكي، يوضّح الحوار كيف يعيد الاستعمار الرقميّ إنتاج التبعيّة في قوالب طوعية ظاهريًّا، وخوارزميّة باطنيًّا. في مواجهة هذا التحدّي، يطرح الحوار سبل المقاومة وبناء وعي نقديّ يحمي مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة، مشدّدًا على ضرورة إرساء (السيادة الرقميّة)، وتوطين التكنولوجيا وفق ضوابطنا القيميّة، مع دعوةٍ مُلحّةٍ لإعادة ربط التطوّر المادي بالبعد الروحيّ والميتافيزيقيّ لإنقاذ الإنسان المعاصر من التشييء والاستلاب.

الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار الرقميّ، السيادة الرقميّة، الحداثة الغربيّة، العقل الأداتي، الاغتراب الثقافي.

● الأستاذ الدكتور محمود حيدر المحترم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. نرجو أن تكونوا في أتمّ الصحة ودوام العافية. إنّه لمن دواعي سرورنا واعتزازنا أن نستهلّ معكم حواريّة هذا العدد، فاتحين آفاق البحث في فكركم النّقدي الرصين. وكلّنا ثقة بأنّ رؤاكم المعمّقة ستشكّل إضافةً نوعيّةً تجيب عن تساؤلاتنا، وتمنح قرّاءنا الكرام مادّةً علميّةً وفلسفيّةً تتّسم بالدّقة والاستشراف. فأهلاً ومرحبًا بكم في هذا الفضاء الفكريّ.

● س: قبل أن ندخل في الحوار المباشر حول موضوعنا عن الاستعمار الرقميّ، نود أن تقدّموا لنا ــ ولو باقتضاب ــ الكيفيّة التي أطلقت فيها الحداثة في الغرب ثورتها التقنيّة بوصفها مشروعًا تاريخيًّا للسيطرة على العالم؟

ج: لا شيء يدعونا للاستغراب، حين نرى حداثة الغرب كيف انتقلت بلا رويَّةٍ من تقديس العقل إلى تقديس الشيء الذي صنعه العقل. هذه حقيقةٌ واقعيّةٌ، لكنّها في المقابل كانت موصولةً بأسئلةٍ واستفهاماتٍ كبرى عن حضارةٍ استهلّت رحلتها بعبادة العقل الأداتي، ثم هوت إلى عبادة الفرد، ثم لتنتهي أخيرًا الى عبادة الآلة! الواضح لدينا، أنّ الحداثة الغربيّة بدأت في الغرب كتحولٍ إنعطافيّ انطلق مع هيمنة العقل. والمقصود هنا العقل العلميّ بعامّة، والعقل التقني الذي قاد الثورة الصناعيّة في أوروبا على وجه الخصوص. كان طموح الحداثة وهي في ذروة صعودها في القرن السابع عشر، تقويض مجمل ما يختزنه فضاء الغرب من قيم، ولا سيّما القيم الدينيّة التي لا تقع تحت عينه الاستدلاليّة، واختباراته التكنولوجيّة. بدا واضحًا أنّ صورة الحداثة وهي تعبّر هذا التحوّل التاريخيّ كانت شديدة المفارقة؛ فمن الناحية النظريّة كانت الغاية من مشاريع التحرّر أن يكون الإنسان هو غاية تاريخه لا مجرد وسيلةٍ له، لكن من الناحية العمليّة سوف يحصل ما يخالف هذا المدَّعى. وإليكم هذا التوضيح: لقد انعطفت حركة التحديث بلا هوادةٍ نحو زمنٍ مشحونٍ بعنف الهويّات الأيديولوجيّة سواء بين دول أوروبا، أو داخل مجتمعاتها بالذات. كانت الحربُ الدينيّة بين الكاثوليك والبروتستانت شاهدًا فظيعًا على عنف الهويّات. وفي القرن التاسع عشر الذي افتتحته الثورة الفرنسيّة عام ١٧٨٩م سوف نشهد كيف خُتِم بمأساة الحرب العالميّة الأولى. ولمَّا انفسح التاريخ أمام القرن العشرين، بلغت قيم التنوير نهايتها المحتومة. لقد تميّز هذا القرن باستشراء الشموليّات الأيديولوجيّة التي ستبدِّد جل ما أتى به فلاسفة التنوير، ثم توغّلت في أرض الغرب لتحيلها الى مسرحٍ يشهد على فجائعيّتها المرعبة. فالعقل الذي افتتح مساره بإعلان تسيُّده

على الكون، ما لبث أن وقع فريسة العنف القهريّ لكي يسيطر على كلّ شيء.

● س: وكأنّكم هنا تربطون بين منشأ الحداثة التقنيّة وتطوّراتها اللّاحقة بالمبدأ المؤسّس لحضارة الغرب، أي بسيادة العقل الأداتي الذي حكم مسيرة هذه الحضارة إلى يومنا هذا؟

ج: نعم، هو كذلك. وفي الواقع لا تظهر مآلات الحداثة التقنيّة في تاريخ ما سُمّي بـ (عصر التنوير) إلّا كمحصولٍ لعقلٍ استبدّ به الغلو، فانزاح عن غايته وانحدر صوب التشييء المرّوع للإنسانيّة المعاصرة. إنّه العقل النفعي الذي تسلّقت به الرأسماليّة المتوحشة لتلتهم مقدرات الشعوب من جهة، وتحوّل شعوب أوروبا إلى مجرد هياكل رقميّة في مصانعها الكبرى. هذا هو بالضبط ما أوْقَدَ حماسة الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر نحو نقد ما جَنَتْهُ التقنيّة على الإنسان الحديث. ثم إنّ القضية عنده تتعدّى السخط على مظاهر التقنية وأعراضها لتطال طبقاتها الخفيّة والعميقة. أستطيع القول أيضًا إنّ التقنية اتّخذت في تفكير هايدغر وسواه من المفكّرين وعلماء الاجتماع أفقًا جاوز ما دَرَجَت عليه التيارات النقديّة في أوروبا، ولا سيّما مدرسة فرانكفورت بوصفها ظاهرةً نقديّةً مشهودةً لوقائع الاستلاب الرأسمالي. وحين جرى وصف رأس المال التقني بـ (الاصطناع المفروض)، فقد كان القصد من ذلك بيان كيف أنّ الإنسان يفقد بسببه كلّ قيمة ذات بعدٍ معنويّ وروحي. ذلك بأنّ جوهر التقنيّة ليس مجرد شيءٍ تقني، وإنّما هو عاملٌ مكوِّنٌ للتفكير الميتافيزيقيّ في الغرب. من أجل ذلك راح الساخطون على الحياة التقنيّة يدعون إلى الاحتراس من هذا (الجوهر) الذي تأسّست ملحمته الأولى مع بارمنيدس وافلاطون وأرسطو، وجرى تكميله مع فلاسفة ومفكّري عصر التنوير. وعلى هذا التأسيس الغائر في التاريخ، تظهر أزمنة التقنيّة كطغيانٍ لا رادَّ له على الحضارة الإنسانيّة الحديثة.

حاصل الصورة إذًا، أنّ التقنيّة أحدثت فجوةً تتوسّع يومًا إثر يومٍ في بنية العقل الغربي الحديث. لعلّ وقعًا في مظاهرها هو المشهد المعنوي والروحي، وقد تبدّى ذلك خصوصًا في الاحتدام المريع بين العقل بصيغته الأداتيّة والإيمان كبعدٍ روحانيّ في الشخصيّة الإنسانيّة. والنتيجة أنّ وقع العقل الحديث في أحادية جائرة ستجرِّده من إمكاناتٍ هائلة هي ضروريّةٌ لتجدّده الحضاري. أمّا السبب فيعود إلى شغف العقل الحداثي غير العقلاني بعقلانيّة العلم ومنجزاته. فالغلو بالعقلاني حين يصل إلى حدّه الأقصى يُحدثُ مسارًا ارتداديًّا على العقل نفسه، بحيث تظهر علاماته باضطراب

السلوك وعدم القدرة على ضبط حركة التقدّم في الميادين الحضاريّة كافة. من المنطقي القول بإزاء فجوة التناقض بين التقدّم العلمي والإيمان، إنّ الأشياء والظواهر لا تتضاد أو تتصارع إلّا بين أجناسها. ولكن لم يدرك العقل التقني - وبسبب من استغراقه في دنيا الرقميّة الصمَّاء - أنّ العلم لا يمكن أن يحتدم إلّا مع العلم، والإيمان لا يحتدم إلّا مع الإيمان. تأسيسًا على هذه الفرضية لن يكون ثمّة من صراعٍ بين الإيمان في طبيعته الحقيقيّة والعقل في طبيعته الحقيقيّة. هذا التأكيد يشمل حقيقةً تاليةً، هي أنّه لا يوجد صراعٌ جوهريٌّ بين الإيمان والوظيفة الإدراكيّة للعقل.

يمكن القول إنّ جذور الاستعمار الرقميّ تعود أساسًا إلى بدايات الثورة الصناعيّة؛ ولذا فالإنسان المعاصر الذي تغمره تداعيات الحضارة الرقميّة، بات إنسانًا رقميًّا بامتياز. بمعنى أنّه خاضعٌ لسلسلةٍ صارمةٍ من القوانين والمفاهيم وأنماط الحياة ترتبط ارتباطًا لافكاك منه بالهياكل الرقميّة للحضارة المعاصرة. وقد كان لهذا التحوّل الكبير نتائج كارثيّة على الإنسان الغربي بالذات كونه يعيش داخل فجواته القاتلة. ولعلّ أول ما يشير إليه علماء النفس الاجتماعي فضلاً عن كثيرين من المفكّرين في الغرب، هو أنّ السلطات التقنيّة صنعت لمواطنيها عالمًا خاصًّا أفضى إلى تبديد القيم والروابط الأخلاقيّة، وذلك إلى الحدّ الذي أدخله في عالمٍ من الوثنيّة المستحدثة. كما أدّى إلى تفريغ المعرفة من مضمونها المقدّس، والتضحية بمسؤوليّة الإنسان حيال الله لصالح الإنسان، وتدمير الطبيعة. والذين قالوا بهذا القول ينتهون الى الحكم التالي: (إنّ خير العالم الجديد الحداثي عَرَضي، وشرّه ذاتي؛ أمّا خير عالم الماضي ما قبل الحداثي فهو ذاتي، وشرّه عرضي). وهو يقصد هنا الماضي الذي كان فيه الوحي المسيحي حاضرًا ومؤثّرًا في الوجدان الغربي. مع بداية القرن العشرين كانت ملامح شرور التقنيّة حاضرةً بقوةٍ لمَّا نشر أوسويلد شبنغلر Oswald Spengler الطبعة الأولى من كتاب تدهور الحضارة الغربيّة The Decline of the West، يومها عبّر بعض القرّاء عن اعتراضهم على بعض نتائجه، مشكّكين باقتراب انهيار الحضارة الغربيّة، إلّا أنّ غالبيّتهم كانت تتوقّع الانهيار منذ زمنٍ طويل. لم يكن هذا بسبب الحرب العالميّة الثانية. على العكس، كانت الحرب وقت حماسٍ وتكريسٍ تامٍّ للنفس من أجل هدفٍ مقدّس، وغدت المخاوف والشكوك المقلقة بالنسبة لمستقبل الثقافة الغربيّة طيّ النسيان. مع ذلك كلّه كان واضحًا وقتذاك أنّ الحضارة الغربية تسير بثبات نحو الانحلال. أما كيف ستبدو صورة الانحلال في خواتيمها الأخيرة، فهذا ما أخذت تنبئ عنه الميديا منذ عقدين من سيرتها المدوية؛ إذ حوَّلت المعرفة البشريّة إلى مجرد رموزٍ وأرقامٍ وعالمٍ بلا يقين.

● س: نعود الآن إلى الحديث عن الاستعمار التقني بوصفه الظاهرة الأكثر حضورًا اليوم في سلوك الغرب حيال العالم. كيف يمكن أن نُعرِّف أولًا مفهوم الاستعمار الرقميّ، وما الذي يميزه عن الأشكال الكلاسيكيّة للاستعمار السياسيّ والاقتصاديّ؟

ج: تبعًا للتأسيسات التي قامت عليها الحضارة التقنيّة المعاصرة، سيكون من أبرز المزايا التي تستحقّ النقاش هي ذلك السيل الهائل من المفاهيم والمصطلحات الذي تمتلئ به الثقافة العالميّة اليوم. لو لاحظتم معي هذا الأمر، فستجدونه ليس في ميدان الفلسفة والعلوم الإنسانية فقط، وإنّما أيضًا وأساسًا في مجال العلوم الدقيقة ولا سيّما العلوم الذكيّة وما يتفرّع منها. وكما سبق وبيَّنتُ لكم قبل قليل، أنّ الغرب الذي تفرَّغ بالكامل لعبادة التقنيّة، فإنّه أراد من ذلك إنشاء ضربٍ متقدّمٍ من الهيمنة والاستحواذ على العالم غير الغربي، وهو ما يُعرف بالاستعمار الرقميّ. هذا النوع من الاستعمار يختلف جذريًّا بأشكاله وسلوكيّاته عمّا عهدناه من الاستعمار الكلاسيكيّ السياسيّ والعسكريّ والاقتصاديّ على مدى قرون خلت. من البيِّن أنّ الجامع المشترك بين هذين النوعين من الاستعمار، أنّ النوع الكلاسيكي يقوم على أفعال القوّة الصلبة والغاشمة عبر الاحتلال والغزو لأراضي الغير، قصد السيطرة عليها سياسيًّا، ومصادرة ثرواتها اقتصاديًّا. أمّا الاستعمار الرقميّ هو نمطٌ معاصرٌ من الهيمنة الناعمة تمارسه دولٌ كبرى أو شركاتٌ تقنيّةٌ عملاقةٌ عبر السيطرة على البيانات والبنى التحتية الرقميّة والمنصّات، بحيث تصبح الدول أو المجتمعات الأخرى تابعةً تقنيًّا واقتصاديًّا ومعرفيًّا لها حتى من دون أن يمسَّها احتلالٌ عسكريٌّ مباشر. ومع الإستعمار الرقميّ له تقنياته الخاصّة، وطبائعه المستحدثة، إلاّ أنّه يشكل امتدادًا للاستعمار الكلاسيكي، من حيث أهدافه المباشرة والبعيدة، إذ بدل أن يسيطر الاستعمار الرقميّ على الأرض والموارد الطبيعيّة، يجري الاستحواذ على الأسرار والتحكّم بالمعلومات التي تشكّل بنية الأمن القوميّ والاجتماعيّ والثقافيّ للدول.

وإذا كان لي أن أبيِّن الأهداف الكبرى للاستعمار الرقميّ أشير إلى جانبٍ مهمٍّ وخطير، أعني الطريق التي تعتمدها شركات كبرى مثل Google وMeta وAmazon وMicrosoft في مصادرةٍ غير مرئيّةٍ لداتا المعلومات الشخصيّة للمستخدمين. هذه الشركات نفسها، وبما لديها من أذرع تواصل باحتكار البنية التحتيّة لحركة الاتصالات وفرض نماذج ثقافيّة ومعرفيّة عبر المنصّات الرقميّة. وهو الأمر الذي يؤدّي إلى تحويل المجتمعات إلى ما يشبه مناجم للمعلومات والبيانات،

حيث تُستخرج منها كلّ ما سبق وتعلّق بالموارد الطبيعيّة للبلاد والمجتمعات المستهدفة.

● س: ما هي برأيكم أهمّ التقنيّات المستخدمة والإستراتيجيّات الآيلة إلى تفعيل هذا النوع من الاستعمار؟

ج: هنالك بطبيعة الحال، أشكالٌ وتقنياتٌ لا حصر لها من أجل تحقيق هذه الإستراتيجيّة. اسمحوا لي هنا أن أشير إلى أهمّ وأبرز هذه التقنيات:

أولًا: تقنيّة استعمار البيانات (Data Colonialism) وهذه تعني السيطرة على مخازن المعلومات الشخصيّة والعامّة. ويجري ذلك عبر جمع البيانات الشخصيّة والسلوكيّة للمستخدمين، ثم تحليلها عبر الذكاء الاصطناعي، وأخيرًا تحويلها إلى أرباحٍ فاحشةٍ من دون أيّة عوائد حقيقيّة قي للمجتمعات المنتِجة للبيانات.

ثانيًا: تقنية استعمار البنية التحتيّة الرقميّة، وهذه التقنيّة تعتمد بصورةٍ أساسيّةٍ على ثلاثة عناصر كما يبيِّن الخبراء وهي:

أ. السيطرة على خدمات الحوسبة السحابيّة (Cloud).

ب. التحكّم في متاجر التطبيقات وأنظمة التشغيل.

ج. احتكار الكابلات البحريّة ومراكز البيانات.

أشير هنا إلى أنّ من أبرز الأمثلة التطبيقيّة على ما سبق وذكرت، اعتماد مؤسّسات دولٍ بأكملها على خوادم تديرها Amazon أو Microsoft .

ثالثًا: الاستعمار الثقافي الرقميّ، وتعتمد هذه التقنية الاستيلائيّة على ثلاثة إجراءاتٍ أساسيّة:

أ. فرض أنماط استهلاكٍ ثقافيّ عبر المنصّات.

ب. توجيه الخوارزميّات لما يظهر وما يُخفى.

ج. التأثير في الرأي العام عبر وسائل التواصل. مثال على ذلك: التأثير السياسيّ عبر الحملات الرقميّة على منصّات تواصل مثل Meta.

رابعًا: الاستعمار المعرفي والخوارزمي ومؤدّاها ما يلي:

أ. سيطرة شركاتٍ أو دولٍ على نماذج الذكاء الاصطناعي.

ب. احتكار أدوات البحث والترجمة وإنتاج المعرفة.

ج. إعادة تشكيل أنماط التفكير عبر أنظمة توصية وخوارزميّات.

خامسًا: الاستعمار السيبراني (Cyber Colonialism)وتقنيّاته متنوّعة الاستخدام وخصوصًا في المجال العسكري والأمني، وهو يقوم – بحسب الخبراء - على ثلاثة عناصر أساسيّة هي:

أ. عنصر التجسس الرقميّ.

ب. عنصر الهيمنة على الفضاء السيبراني.

ج. وأخيرًا العنصر الذي يقوم على استخدام العقوبات التقنيّة أو الحظر التكنولوجي.

● س: هل يمكن القول إنّ الاستعمار الرقميّ يعيد انتاج التبعيّة بين المركز والأطراف، ولكن بصيغةٍ معلوماتيّةٍ هذه المرة؟

ج: لو نظرنا على نحو الإجمال لتاريخ الاستعمار الغربي بصيغتيه الكلاسيكيّة والجديدة لوجدنا النتيجة التالية: لم يعد الاستعمار المباشر بصيغته العسكريّة والسياسيّة كافيًا لتحقيق السيطرة على العالم. وذلك عائدٌ إلى سلسلةٍ من الانقلابات العلميّة والتكنولوجيّة، والتحوّلات في موازين القوى، ويعود كذلك إلى اضمحلال فعالياته وأدواته السابقة. وعلى هذا الأساس سعى العقل الاستعماري إلى ابتكار عالم السيطرة الرقميّة، أو ما يسمّى بالقوى الناعمة من أجل إعادة تأسيس هيمنته على العالم بصورةٍ جديدةٍ وأكثر شمولاً.

أما خصائص الاستعمار الرقميّ فإنّها تدلّ بصورةٍ واضحةٍ على التبدل الجوهري في تقنيات السيطرة التي يستخدمها. فالاستعمار الرقميّ غير مرئي في الغالب. وهو طوعيٌّ ظاهريًّا (المستخدم يوافق على الشروط) وقائمٌ على الاحتكار الشبكي. إلى ذلك فإنّه يعتمد على (اقتصاد الانتباه). وكذلك على آلياتٍ أخرى تجمع بين التقليديّ والمستحدث مثل إفقاد البلدان المستهدفة سيادتها الرقميّة على مجتمعاتها وإلحاقها بالتبعيّة الاقتصاديّة والتقنيّة، وصولاً إلى إعادة تشكيل هويّتها الثقافيّة، وبما يناسب واستراتيجيّات الهيمنة الغربيّة.

● س: برأيكم هل ثمّة علاقةٌ بين الاستعمار الرقميّ وخطابات العولمة، وما يسمّى

(الحياد التكنولوجي). أم أنّ الأمر خلاف هذه المعادلة بحيث إنّ الخطاب الغربي الثقافي والمعرفي والإعلامي ينطوي في حقيقته على الاستحواذ والهيمنة؟

ج: هذا سؤالٌ في غاية الأهميّة والدقّة. بتقديري لا يمكن فهم التطوّرات الهائلة في التكنولوجيا الغربيّة، بوصف كونها ظاهرةً بريئةً أو محايدة. وإذا كان لنا أن نرى إليها كما هي في الواقع فمن الطبيعي أن نقيمها ضمن دائرة التوظيف المعتمدة من جانب السلطة المركزيّة في الغرب. الأهمّ من ذلك أنّ التوظيف من أجل الهيمنة ليس مجرد تأمينٍ للسيطرة على الآخر وحسب، وإنّما يدخل في صلب اللّاهوت السياسيّ والثقافيّ للحضارة الغربيّة، وإنّني من الذين يميلون إلى أنّ هذا الاختلال التكويني هو سمة سيكو- سوسيولوجيّة تتسم بها الشخصيّة الأوروبيّة في نزوعها إلى التحكّم والتفرض والسيطرة، وهذا بالطبع لا يمكن أن يكون مجرد صفةٍ بيولوجيّةٍ بقدر ما يكون صفةً مكتسبةً اجتماعيًّا ربما قاد إليها نزوعٌ إلى التمرّد الذي ينتاب الفردانيّة الأوروبيَّة منذ نشأتها الباكرة. هذا بالطبع يشير إلى أنّ تأويل الأصول التاريخيّة التي نمت وترعرعت عليها المركزيّة الأوروبيَّة التاريخيّة هي أصولٌ لا ثقافيّةٌ، فذلك موروثٌ ثابتٌ يتمدّد فعله في سلوك المركزيّة الأوروبيَّة الذي انتهى بها الأمر إلى استعمارين: قديمٍ استيطانيٍّ وحديثٍ اقتصاديٍّ وتكنولوجي. والحال هذه فلا بد أن تكون بنية الاجتماع الأوروبي الاستعلائيّة مؤسِّسة للسمات العامة للشخصيّة الأوروبيَّة التي تميل إلى التفرّد وحبّ السيطرة والتحكّم؛ لذا فقد كانت أبسط مظاهر الشخصيّة هو تحقيق أكبر قدرٍ من الفاعليّة لتتحوّل تأويلاً إلى سماتٍ اجتماعيةٍ، فتصير الفاعليّة الاجتماعيّة هي الميزة التي تصاحب الاجتماع الذي بات همًّا مباشرًا اصطفافه الحضاريّ. ولما كان الثقافي يميل أفراده في جانب إنتاجهم المادّي لتلبية حاجاتهم المجتمعيّة، فإنّ فاعليتهم تصبح مثقلةً بقيودٍ ثقافيّةٍ حتى لا يصير هنالك فائض إنتاجٍ يزيد عن حاجة تلك المجتمعات.

سوف نلاحظ في هذا السياق أنّ الداء الأوروبي المزمن، القائم على الاستعلاء وإيذاء الشعوب الأخرى، ونهب مقدّراتها، لا يتوقّف على استثمار التقدّم العلمي في السيطرة، بل صار هو نفسه حالةً مرتبطةً بشكلٍ وثيقٍ بالبنية التكوينيّة للمجتمع الأوروبي. فقد قام العالم الأول كدأبه في تحويل كلّ ما تمسّه يده إلى قيمةٍ تجاريّةٍ باستئصال السمات الثقافيّة التي تتسم بها المجتمعات المستعمرة. أمّا النتائج الإجماليّة للسلوك الاستعماري الأوروبي فهو الانتقال إلى العالم الرقميّ بغية السيطرة الكاملة وبصورةٍ هادئةٍ على بقيّة العالم. لا بد إذًا، وانطلاقًا من ذاتنا الحضاريّة أنّ نرى ما سيحلّ بالثورة الرقميّة الحاليّة من مصير. وعلينا في هذا الصدد أن نسأل: هل يكون مصير هذه الثورة هو

نفسه مصير الثورة الصناعيّة التي أدارت قبل قرونٍ محرّكات الدورة الرأسماليّة الأوروبيّة؟

● س: لكن هل تمتلك الدول النامية أدواتٍ واقعيّة لمقاومة هذا الشكل من السيطرة الرقميّة، أم أنّها ما زالت في موقع المستهلَك التابع؟

ج: في الحقيقة نحن اليوم أمام تحدّياتٍ حضاريّةٍ شديدة الحساسيّة والدقة. وهذه التحدّيات يمكن أن يختزلها التساؤل عمّا إذا كان بإمكاننا أن نستوعب العالم الرقميّ من أجل أن نشقّ الطريق إلى المشاركة الفاعلة في الدورة الحضاريّة الجديدة في العالم. وقد يكون من يجيب بداهةً أنّ الثورة الرقميّة في ذاتها بدأت عبر مركزة وسائل الاتصال الرقميّ، وذلك بابٌ أوليٌّ للسيطرة والتحكّم. هنا يبرز سؤالٌ آخر أكثر أهميّة: هل تتيح الثورة الرقميّة ما يؤدّي إلى تأكيد وتأييد سمات الذاتيّة الأوروبيّة؟! أي هل تُمكّن الثورة الرقميّة لسيطرة العالم الأول على العالمين الثاني والثالث أن تكون أكثر مضاءً وفاعليّة؟!

أعتقد أنّنا نعيش حقبةً انتقاليّةً من أهمّ سماتها أنّنا نعبر المنطقة بين الاستغراق في تدفقات الاستعمار الرقميّ وبين محاولات التوطين المستقلّ لهذه التدفّقات. لكن يبدو إلى الآن وكأنّ كثيرًا من مجتمعات ما يسمّى العالم الثالث لا تزال جاثمةً تحت وطأة الاستهلاك والتبعيّة.

● س: عطفًا على إجابتكم السابقة، كيف يمكن بناء وعي نقديّ يحمي المجتمعات غير الغربيّة، وخصوصًا مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة، من الوقوع في فخّ الاستعمار الرقميّ؟

ج: كما سبق وذكرت قبل قليل، أنّ أيّ توازنٍ حضاريّ مع الغرب لا مناص له من احتواء الثورة الرقميّة وتوطينها في بلادنا على نحوٍ متقنٍ ومعزّزٍ بقوانين صارمةٍ يحول دون انفلاتها من الضوابط القيميّة والأخلاقيّة والسياديّة. لكن الشرط الأوّل والمركزي لإنجاز هذا المنعطف هو الاستقلال السياسيّ والتحرّر من التبعيّة للتمركز الغربي. وللوصول إلى تحقيق هذا الشرط من الضروريّ الشروع بجملة خطواتٍ وقائيّةٍ لا بدّ من اعتمادها للتخفّف من وطأة هذا الاستشراء العارم من الاستباحة لمجتمعاتنا ناهيك عن الاستباحات والخروق التي يتعرّض لها الأمن القومي والسيادة الوطنيّة. وليس من شكّ في أنّ أهمّ الإجراءات التي يمكن اتّخاذها في هذا الخصوص هو العمل على صياغة استراتيجيّاتٍ وطنيّةٍ تتناول تعزيز روح الاستقلال والكرامة الوطنيّة، وهو ما يمكن تفعيله

في الحقول التربويّة ومناهج التعليم والثقافة العامّة. هذا بالطبع إلى جانب جملةٍ من الإجراءات اليوميّة أهمّها ما يلي:

أولًا: قوانين حماية البيانات (مثل اللائحة الأوروبية GDP). **ثانيًا:** بناء منصّات محليّة. **ثالثًا:** تطوير بنى تحتيّة وطنيّة. **رابعًا:** الدعوة إلى (السيادة الرقميّة).

● س: أمام التدفّق الهائل للموجات الرقميّة الآتية من الغرب، وبإزاء التوظيف الاستعماري لهذه الموجات، كيف جرت العمليّات النقديّة والاعتراضيّة من جانب النخب سواء في الغرب أو في بلادنا؟

ج: في الواقع، لم تخلُ ساحات الغرب من نقدٍ مبيّن للسلطة الاستعماريّة. وهذا في تقديرنا يعدّ أساسًا مهمًّا لفهم الأطروحة الما بعد استعماريّة وتحرّي مقاصدها. ولسوف تصبح العمليّة النقديّة ذات أهميّةٍ مضاعفةٍ حين تسلك هذه الأطروحة مسارها التواصلي لتعرب عن علاقةٍ وطيدةٍ بين الثورة النقديّة في الغرب الاستعماري، والحركة الفكريّة والكفاحيّة الناشئة في المجتمعات المستعمَرة. استنادًا إلى هذا التلازم بين ثورة النقد في المركز الإمبريالي، واليقظة النقديّة لنخب الدول المستباحة من المنطقي أن نحصِّل النتيجة التالية: أنّ الأطروحة ما بعد الاستعماريّة في وجهها الانتقاديّ هي رؤيةٌ تتشكّل من مضادّاتٍ معرفيّةٍ متظافرةٍ للاستعمار في الحقول الثقافيّة والسياسيّة والسوسيولوجيّة والتاريخيّة. وهي إلى ذلك تعدّ في مقدّم الأطروحات التي تستكشف عمق العلاقة بين بلدان الشرق والبلدان الاستعماريّة في أوروبا. لقد عكف المساهمون على تظهير هذه النظريّة عبر كشف ما تختزنه ثقافة وسلوك الحكومات الغربيّة إزاء الدول والمجتمعات المسيطّر عليها. من هذا الفضاء الانتقادي على وجه التعيين، يشكّل فكر ما بعد الاستعمار مدرسة تفكيرٍ داخل النظام الاستعماري نفسه، من دون أن يعني ذلك حصر المنتمين إلى هذه المدرسة بالإنتلجنسيا الأوروبيّة. فلنخب الشرق ومفكريه مساهماتٌ معمّقةٌ في وضع الأسس الفكريّة التحرريّة للخطاب ما بعد الاستعماري.

لقد تولّت هذه النُخب على الجملة مهمّةً معرفيةً نقديّةً مركبةً: نقد الغازي، ونقد التابع ضمن خطبةٍ واحدةٍ. وعلى هذا النحو سنرى كيف احتلّ نقد الاستعمار بأشكاله وأطواره المختلفة، مكانةً محوريّةً في تفكيرهم. تركّزت المسألة الأساسيّة التي عالجوها على مشكلة الاغتراب بوصف كونها غربة إنسانٍ تلك المجتمعات عن ذاته الحضاريّة وهويّته الوطنيّة في سياق تماهيه مع ثقافة الغرب

ومعارفه. هذه الحالة المخصوصة من الاغتراب (alienation) ستجد من يصفها بعبارةٍ موفَّقة: (اقتلاع الذات بوساطة الذات إيّاها). وشرحها أنّ الثقافة الاستعماريّة تتحوّل عن طريق الاغتراب إلى ضربٍ من ولاءٍ نفسيٍّ، موصولٍ باستيطانٍ معرفيٍّ عن سابق إرادةٍ ووعيٍ. فالاغتراب في حالته القصوى هو أشبه بانصباب وعي المستعمِرِ في صميم وعي المستعمَرِ على النحو الذي يصبح المهَيْمَنُ عليه غافلاً عن نفسه وعن مصيره وعن المكان الذي هو فيه. وفي هذه الحال يكفّ المغترِبُ عن أن يصبحَ سيّدَ نفسه ويتحوّل إلى عبدٍ لآلة العمل وخطاب مالِكيها. عليه، يصير المثقّف المستعمَر كائنًا صاغرًا تمَّ انتزاعه من زمانه الخاصّ ومكانه الخاصّ؛ حتى إنّه ليشعر في أحيانٍ شتّى كالغريب بين أهله، ناظرًا إليهم ككائناتٍ متخلفةٍ وبربريةٍ. وبحسب فرانز فانون صاحب (معذبو الأرض)، فإنّ «المثقّف المستعمَر يقذف بنفسه وبنهمٍ إلى الثقافة الغربيّة كما الأطفال المتبنَّين الذين لا يكفُّون عن البحث عن إطارٍ عائليّ جديدٍ. لكن هذا المثقّف، وهو يسعى ليجعل من الثقافة الأوروبيّة ثقافته الخاصّة، لا يكتفي بمعرفة رابليه، أو ديدارو، أو شكسبير أو إدغار بو وسواهم، بل سيدفع دماغه إلى الحدود القصوى تواطؤًا مع هؤلاء الرجال». في حقبةٍ تاليةٍ من زمن الحداثة سيحتلّ رهطٌ من فلاسفة الغرب وعلمائه مساحةً بيّنةً من تفكير النخب العربيّة والإسلاميّة إلى الدرجة التي جعل هؤلاء من أولئك، أوثانًا يستلهمون أفكارهم وأفهامهم، ويتّخذونها مسالك ومناهج عن ظهر قلب.

في عالما العربي والمشرقي والإسلامي الراهن يصبح من المهم أن يندرج هذا التفكير التحرّري النقدي للاستعمار إلى منظومةٍ معرفيةٍ تؤسّس للإحياء الحضاري في مواجهة الاقصاء الاستعماري المستأنف. فلكي يتّخذ فكر ما بعد الاستعمار مكانته كواحدٍ من مفاتيح المعرفة في العالم العربي والاسلامي، وَجَبَ أن تتوفر له بيئاتٌ راعيةٌ، ونخبٌ مدرِكةٌ، ومؤسّسات ذات آفاقٍ نهضويّة، في إطار مشروعٍ حضاريٍّ متكاملٍ.

● س: ما طرحتموه قبل قليل يقودنا إلى الكلام عن المنهج الذي ينبغي الأخذ به للحفاظ على المنظومة الأخلاقيّة والإيمانيّة في مجتمعاتنا؟

ج: لو تطرَّقنا إلى الوجه القيمي والأخلاقي للتكنولوجيا الرقميّة في الحياة المعاصرة، لوجدنا أنّها تكتفي بتلبية الحاجات الماديّة الضروريّة للإنسان. ذاك يعني في الحقيقة أنّ التكنولوجيا وتقنية المعلومات هي قيمة محض دنيويّة، لا يتجاوز شعاع نشاطها أبعد من ذلك، ولا يتوقّع منها أكثر

من ذلك. والحقيقة أنّ الاهتمام بحاجة الإنسان في الحقل الدنيوي، يعدّ اهتمامًا بجانبٍ مهمٍّ من الاحتياجات الحقيقيّة للإنسان، ولا أحد يُنكر ذلك. غير أنّ التركيز البحت والاكتفاء بهذه القيمة أدّى إلى حذف ـ وتجاهل ـ الجانب الأصلي من الاحتياجات الإنسانيّة في الحقل الروحي والمعنوي. وهذا ما تنبهَّت إليه الرؤية الدينيّة والإسلاميّة على وجه الخصوص. ثم إنّ المسألة الأساسيّة في هذا المجال أنّ الرؤية الميتافيزيقيّة والدينيّة ترى أنّ الحقيقة الحقّة في عالم الكائن الآدمي هو البُعد الروحي، حيث تشكّلُ دراسة مسألة السعادة والكمال الجانب الأهمّ في هذا البُعد. ثم إنّ الاهتمام بالحياة السعيدة من أهمّ البرامج الدينيّة، والسؤال المطروح في هذا الشأن يقول: ما هي السعادة المنشودة في التعاليم الدينية؟ في الجواب، تقرّر المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة أنّ السعادة والكمال النهائي للإنسان يُبحث فيها من خلال تظهير قيمة (القرب الإلهي)، كقيمةٍ متعالية. ذلك بأنّ سعادة وكمال الإنسان في المنظور الديني إنّما يمكن إقامتها في إطار الالتفات إلى الغاية النهائيّة من الخلق، ألا وهي القرب الإلهي. وهنا أشير إلى جملةٍ من القواعد التي نعهدها في ثقافتنا الأخلاقيّة الإسلاميّة.

أولًا: إنّ الإنسان كائنٌ مفارقٌ لسائر الكائنات، وهو الوحيد الذي يختزن بعدين تكوينيين في شخصيّةٍ وهما البعد المادي البشر، والبعد الغيبي الإلهي.

ثانيًا: إنّ أصالة وجود الإنسان كامنةٌ في بعده الإيماني بالألوهيّة.

ثالثًا: إنّ كمال وسعادة الإنسان المتمثلين بالقرب الإلهي إنّما يتحقّقان بتكامل البعدين الدنيوي والروحاني طبقًا لمبدأ التوحيد والقيوميّة الإلهيّة في تدبير عالم الخلق.

بل إنّ السعادة الإنسانيّة إنّما تحصل إذا اهتمّ الإنسان بإيجاد الرفاه من خلال تمتين الروابط بين طاقاته وإمكاناته الدنيويّة والغيبيّة. واللّافت أنّنا نجد حتى فلاسفة التكنولوجيا يعمدون إلى انتقاد الاستخدام المفرط للتكنولوجيا لما لها من آثارٍ كارثيّةٍ على الإنسانيّة المعاصرة، ويمكن القول أيضًا إنّه ليس هناك من يدعو إلى الاستفادة من التكنولوجيا بشكلٍ مطلقٍ ومنفلتٍ، إذ تجلّى لجميع الناس الكثير من الشواهد الدالة على عدم نجاح الحياة القائمة على التكنولوجيا.

● س: لكأنّك تريد أن تقول إنّ بإمكان التكنولوجيا أن تفضي إلى السعادة والكمال الديني الحقيقي؟

ج: قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب نسأل: هل التكنولوجيا التي لا تكون في خدمة البُعد الروحاني للإنسان، ولا تعمل على تحصيل مقدّمات سعادته وكماله هي تكنولوجيا تستحقّ

الاهتمام؟

هنا لا بدّ من العودة إلى التجربة الغربيّة نفسها. الإنسان الغربي بعد العصور الوسطى حيث خرج لتوّه من جور سياط الجمود والركود الذي فرضه عليه رجال الكنيسة، كان يرى من واجبه مواجهة كلّ ما يحمل بصمةً ميتافيزيقيّةً. والإنسان الحداثي وما بعد الحداثي من خلال الاعتقاد الآتي بهذا المفهوم الخاطئ للعصور الوسطى، سعى إلى إظهار أنّ رفاه وسعادة الإنسان في هذا العالم رهنٌ بإلغاء العناصر الميتافيزيقيّة بوصفها مسائل غير عقلانيّة، وليس منها أيّ جدوى. لكن الاعتقاد بأنّ مسار الاكتشافات والاختراعات المرتبطة بالتكنولوجيا لو تحقّق على يد الصالحين من المطلعين على البُعدين اللذين يتألّف منهما الإنسان والعالم، وكانوا يتمتعون بالدوافع الإلهيّة لما شهد العالم المعاصر جميع هذه المصائب الناشئة عن التكنولوجيا. إنّ القيود التي تكبّل الإنسان المعاصر ناشئةٌ من اعتبار التكنولوجيا خطأ هي الغاية (بمعنى الراحة بمعزل عن الطمأنينة)، والاستفادة من المنهج التجريبي البحت، والأهم من ذلك كلّه عدم العلم بالمساحة الميتافيزيقيّة، أو الغفلة عنها وتجاهلها عند اتّخاذ القرارات من قبل المختصّين في الشأن التكنولوجي. يُعد تجنّب ميتافيزيقيا العصور الوسطى في إبداع أيّ نوعٍ من التكنولوجيا هو الأصل الأول الذي شغل كلّ اهتمام القائمين على صناعة التكنولوجيا وتقنية المعلومات، وربما لا يمكن لنا أن نتصوّر أيّ غايةٍ غير هذه الغاية. بحيث يجب أن تكون التقنية والثورة الرقميّة على صلةٍ وثيقةٍ بالروحانيّة في الحياة الإنسانيّة. ومن دون أخذ هذه القضية بنظر الاعتبار، لن يكون الرخاء والرفاه الإنساني سوى سرابٍ.

● س: يبحث الغرب من خلال عقيدته العلميّة عن يقين كان افتقده مع بداية عصر النهضة والشروع بثورته الصناعيّة، إلى أيّ مدى سيتمكّن الغرب من خلال العلم نفسه أن يستعيده يقينه، من دون الميتافيزيقا والإيمان الديني؟

ج: على امتداد أزمنة الحداثة، رأينا كيف انبرى منظّرو العقل العلمي الحديث إلى لَيْ عنق الفلسفة قصد تطويعها وتحويلها إلى علم كسائر العلوم الإنسانيّة. من البيِّنَ أنّ هؤلاء وتحت رعاية السلطة التكنولوجيّة الجامحة أفلحوا بما انبروا إليه. ثم رأينا من بعد ذلك، كيف انحصرت مهمة الفلسفة الحديثة بمعاينة البنية الشكليّة للعقل، أي العقل بوصفه أداة قياسٍ وحساب، والنظر إليه على أنّه المرجع الوحيد الذي يمكن الاستناد إليه لفهم الأساس الحقيقي للمعرفة اليقينيّة بالعالم.

الّلافت أنّ الذين أخذهم الذهول ممّا توصّلت إليه الاختبارات الأخيرة للعقل العلمي، سيأخذون

جرعةً إضافيّةً من الوهم الإقصائي للفلسفة بصيغتها الميتافيزيقيّة. مع تصاعد وتائر الذكاء الصناعي سيتضاعف مستوى الوهم وسوء التقدير، ليُظهر الديالكتيك الداخلي الذي أطلقته الفيزياء الحديثة، حقائق غابت عن العقل الفلسفي بنسختيه الكلاسيكيّة والحديثة. وهذه الحقائق سوف تضع الفلسفةَ أمام حرجٍ عظيم: هو الخشية من تقويض أحد أبرز أركانها الانطولوجيّة، وبخاصّة، إعراضها عن فهم حقيقة الكون بالعقل المحض، وقولها باستحالة التعرُّف على (النومين)، أو على حقيقة الشيء في ذاته.

ولأنّ مشهديّة العقل الذكي بصنائعه المتقدّمة، هو سليلُ السيرورة المنطقيّة لمّا سمّي (الحقيقة العلميّة)، فإنّه - في ماهيّته وهويّته وظهوره، وتبعًا للامتداد اللّامتناهي لنشاط العقل الإنساني- يعدُّ طفرةً طبيعيّةً ممّا يمكن أن يفلح به العقل العلموي حين يمضي بعيدًا في استكشاف الكون وحقائق الموجودات. وهنا لست أخفي ممّا استشعِرهُ بين حينٍ وحين، من أن الفيزياء الحديثة ربّما جاوزت نباهة التقليد الفلسفي حين أخرجت بعضًا يسيرًا ممّا توصلت إليه في التعرف على ما يشير إلى حقيقة ذلك المكنون الذي يسمّى ذات الشيء. تبيِّن الوقائع أنّ الفلسفة واصلت - منذ أرسطو- الفصل بين (النومين)، و(الفينومين)، زاعمة أنّ الأول يتأبَّى على الفهم ويستحيل العلم به على مدركات العقل. في حين أنّ الفيزياء الحديثة بذكائها الفائق، أحكمت عملها وفقًا لوحدة أشياء الكون، ورسمت دربتها على واحدية لا انفصام لها بين الشيء المحتجب بذاته والشيء البادي للعيان. بل طفقت تبتني نظامها المعرفي على تناغم الأشياء في ظهورها وبطونها. ثم لتقرِّر بعد التجربة والملاحظة أنّ كلّ شيءٍ من أشياء الكون يسري من نفسه الباطنة إلى نفسه الظاهرة وبالعكس بلا انقطاع وانفصال. إلى ذلك، لم يكن للذكاء الاصطناعي أن يظهر على نصاب الدهشة، لولا أن سدَّده العقل البشري الأصيل بطائفةٍ من الفرضيّات جاوزت المألوف في عالم التأملات الفيزيائيّة.

لعلّ ما زاد من هجران الحداثة ونكرانها للميتافيزيقا، أن انتهت النتائج الفعليّة لكلّ من الثورتين الكوبرنيكيّة والكانطيّة الى الغموض والضبابيّة على نحوٍ مريع. صحيح أنّ هاتين الثورتين أسهمتا في إيقاظ الإنسان الغربي، ولفت انتباهه نحو واقعٍ جديدٍ أكثر امتلاءً بروح الابتكار والمغامرة، إلاّ أنّهما من وجهٍ آخر دَأبَتا على إزاحة هذ الإنسان وإقصائه على نحوٍ جذري: الأولى، أقصته من مركز الكون، والثانية حجبت عنه المعرفة الحقيقية لذلك الكون. وعلى هذا النحو وقع إنسان الحداثة في معضلةٍ مركّبةٍ كونيّةٍ ومعرفيّةٍ في الآن عينه.

لقد عُدَّ التساؤل عن إمكان وجود صلةٍ بين القوانين الحاكمة على الطبيعة وعوالم ما بعد الطبيعة أحد أبرز المعضلات التي سعى العقل الفلسفي إلى الوقوف عليها واستخراج المبادئ المنطقيّة

المناسبة لها. وإذا كان هذا التساؤل لا يني يقضُّ سكينة المفاهيم الفلسفيّة منذ الحقبة الإغريقيّة إلى حقبات الحداثة وما بعدها، فقد جاء العلم الذكي بحوادثه وانعطافاته الكبرى، ليتاخم الجواب من مكانٍ غير معهود. فلقد بدا بما لا يقبل الريب، أنّ العلم الذكي أعاد للفلسفة الاهتمام بأصل الوجود من بعد نسيانها إيّاه. هو الأمر الذي سيفترض على الفلسفة استئناف مهمّة التعرّف عليه وإعادة استكشافه من جديد.

الفلاسفة الذين استحوذ عليهم هذا الإشكال، سيذهبون إلى تبنّي فكرةٍ انعطافيّةٍ قد تؤسّس لإعادة وصل القطيعة بين الفيزياء والميتافيزياء من دون أن يفضي هذا الوصل إلى مخالفة المبادئ والقواعد البديهيّة لنظام عمل العقل. الفيلسوف الألماني غوتغريد فيلهلم لايبنتز، سيأتينا بعباراتٍ مكثّفةٍ تختصر مواقفه حيال التفسير الميكانيكي لحركة الطبيعة. فالذي ذهب إليه، هو التأسيس لفكرةٍ تقول بضرورة العودة الى الميتافيزيقا لتفسير حقيقة الفيزياء. يقول: لو كانت قواعد الميكانيكا تابعةً للهندسة فقط من دون الميتافيزيقا لكانت الظواهر على غير ما هي عليه كليًّا. وهذه الأطروحة تعني في المقام الأول وعي أنّ الوجود الفيزيائي يعود في منشأه وأصله إلى إرادةٍ ميتافيزيقيّةٍ أخرجته إلى الوجود. وهنا على وجه الضبط يقع التمييز الأنطولوجي بين ماهيّة الواجد وهويّة الموجود، هكذا، وطالما قد اعترفنا بحكمة الله في جزئيّات بنية بعض الأجسام الخاصّة والميكانيكيّة، يصير من اللازم أن تظهر تلك الحكمة أيضًا في هيأة العالم العامة، وفي تكوين قوانين الطبيعة.

وعلى أيّة حال، فإنّ العقول السليمة تعترف بوجود نظامٍ ما في هذا الكون وفي العناصر المكوِّنة للطبيعة، وهو نظامٌ ينمُّ عن وجود حكمة صانعه، وحكيم صانع. فالجسم إذًا، آلة تخضع إلى قوانين الفيزياء، وهي تتميز بالتناسق لتكون عالمًا محيطًا بعوالم أخرى لا متناهية . بل فوق ذلك جاز القول إنّ من طرافة الآلة الحية أنّها تكمن في تعبيرها عن غائيّة كليّة العالم. وهذا ليس فقط ما يخصّ كيانها الفردي بل في كلّ جزءٍ من أجزائها. فحكمة الله هي مصدر النظام والتناغم، وهو ما عناه سقراط في الفيدون.

على أيّ حال، ليس من شكٍّ في ما ينطوي عليه العقل البشري من امتداداتٍ هائلةٍ في الكشف وسبر غور المجهولات. في هذا العقل يكمن السرّ الذي منه سيبلغ الذكاء الصناعي مكانةً لا قَبلَ له بها شرط البقاء تحت عناية التدبيرات الإلهيّة وعطاءاتها اللّامتناهيّة.

بحوث ودراسات

يتناول هذا الباب البحوث والدراسات العربية المختلفة التي تسلط الضوء على تحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد ونظريات ما بعد الاستعمار بلغة علمية هادفة.

الاستعمار الرقميّ والهيمنة التكنولوجيّة الأمريكيّة – الصينيّة في القارّة الإفريقيّة: قراءةٌ نقديّةٌ في بنية السيطرة الرقميّة الجديدة

د. دعاء عبد النبي حامد

تطوّر الاقتصاد المصريّ من الحرب العالميّة الأولى إلى ثورة ١٩٥٢، معضلة التبعيّة للكولونياليّة

د. شريف إمام

ثورة الزعاطشة في المقاومة الشعبيّة الجزائريّة، نقطة تحوّلٍ في العام ١٨٤٩ م

زينب رزيوي

دور علماء الأزهر في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ والإنجليزيّ

د. غيضان السيّد علي

هولوكوست الأغواط، الاستعمار الفرنسي والإبادة الجماعيّة في الجزائر

د.شريف الدين بن دوبه

الاستعمار الرقميّ والهيمنة التكنولوجيّة الأمريكيّة - الصينيّة في القارّة الإفريقيّة:
قراءةٌ نقديّةٌ في بنية السيطرة الرقميّة الجديدة

د. دعاء عبد النبي حامد[1]

المُلخّص

تتناول هذه الدراسة ظاهرة الاستعمار الرقميّ بوصفها شكلاً جديدًا من الهيمنة في عصر الثورة التكنولوجيّة، حيث تتبدى السيطرة لا عبر الجيوش والأسلحة، بل من خلال الخوارزميّات، وشبكات البيانات، والبنى التحتيّة الرقميّة. يتعمّق البحث في فهم كيف أصبحت الولايات المتّحدة الأمريكيّة والصين قوتين متنافستين على قيادة العالم الرقميّ، من خلال نماذج مختلفةٍ في منطق السيطرة والتوسّع، ويفكّك الآليات التي تستعملها كلّ دولةٍ لبسط نفوذها في الجنوب العالميّ، خصوصًا في القارّة الإفريقيّة وآسيا وأمريكا اللاتينيّة.

تعتمد الدراسة على مقاربةٍ نقديّةٍ تحليليّةٍ تكشف التماثل بين الاستعمار التقليديّ ونظيره الرقميّ، وتبرز كيف أنّ التحوّل الرقميّ في الجنوب العالمي يتم غالبًا على نحوٍ غير سياديّ، عبر مشاريع موجَّهة، وبياناتٍ مسروقة، وأطرٍ تشريعيّة هشّة. كما تتقصى الدراسة مظاهر المقاومة الرقميّة، ومحاولات بعض الدول إعادة امتلاك زمام المبادرة من خلال بناء بنى رقميّةٍ مستقلّةٍ وسياساتٍ سيبرانيّةٍ وطنيّة. الهدف هو إبراز الحاجة إلى منظورٍ تحرّريّ رقميّ يعزّز العدالة والاستقلاليّة في الفضاء الإلكترونيّ.

الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار الرقمي، الهيمنة التكنولوجيّة، السيادة الرقميّة، الولايات المتّحدة- الصين، الجنوب العالمي، البنية التحتيّة الرقميّة، الذكاء الاصطناعي، البيانات الضخمة، العولمة الرقميّة، المقاومة الرقميّة - طريق الحرير الرقميّ، وادي السيليكون.

---

١. باحثة دكتوراه متخصّصة في الفلسفة الإفريقيّة الحديثة والمعاصرة – كليّة الآداب جامعة القاهرة - مصر.

مقدّمة

شهد العالم خلال العقود الأخيرة تحوّلاتٍ هائلةً بفعل الثورة الرقميّة، التي أعادت تشكيل العلاقات الدوليّة، وأنماط الإنتاج، والبنية المجتمعيّة، وأساليب الهيمنة. وإذا كانت العولمة قد بدأت بوصفها مشروعًا اقتصاديًّا وثقافيًّا غربيًّا، فإنّ المرحلة الحاليّة تشهد تعمّقًا لنمطٍ جديدٍ من السيطرة أطلق عليه الباحثون اسم (الاستعمار الرقميّ)، الذي لا يعتمد على الاحتلال العسكريّ أو السيطرة المباشرة، بل على التحكّم في البنية التحتيّة الرقميّة، وتدفّق البيانات، واحتكار المعرفة التكنولوجيّة.

ويُعد مفهوم (الاستعمار الرقمي) من المفاهيم الصاعدة في تحليل هذه الظواهر، حيث تشير إلى خضوع المجتمعات النامية، خصوصًا في إفريقيا، لهيمنة قوى تكنولوجيّةٍ كبرى، على رأسها الولايات المتّحدة والصين. تتجلّى هذه السيطرة الرقميّة في هيمنة شركات التكنولوجيا العملاقة على العالم الرقميّ (مثل Google، Meta، Microsoft، Amazon)، حيث باتت هذه الشركات تمارس سلطة تتجاوز الدول، وتتحكم في الذوق العام، والسلوك الاجتماعي، والاقتصاد، وحتى القرار السياسي. ومع صعود الصين كقوةٍ رقميّةٍ منافسةٍ بنموذجها الخاص من الرقمنة السلطويّة المدعومة من الدولة، عبر شركات مثل Huawei وTikTok وAlibaba، برزت مواجهةٌ من نوعٍ جديدٍ في القارّة الإفريقيّة، لا تُدار بالدبابات أو الجيوش، بل بالخوارزميّات، وشبكات الجيل الخامس. وفي خضم هذا الصراع، تجد الدول النامية نفسها ساحةً مفتوحةً لصراع جيو اقتصادي وجيوسياسي تتجاوز فيه التكنولوجيا حدود الأدوات إلى أن تصبح أداةً استعماريّةً ناعمة.

في هذا السياق، تشكّل الدول الإفريقيّة ساحات اختبارٍ لهذه الهيمنة الرقميّة، حيث يتم استدراجها لمشاريع رقميّةٍ عملاقة، غالبًا ما تُدار من الخارج وتخضع لشروطٍ خفيّةٍ تُعيد إنتاج التبعيّة. وبالتالي، فإنّ مفهوم السيادة لم يعد مرتبطًا فقط بالحدود الجغرافيّة، بل أصبح رهينًا بالسيادة التقنيّة والمعلوماتيّة، التي تتحكم بمصير الشعوب. تهدف هذه الدراسة إلى مساءلة هذا الشكل الجديد من السيطرة، بتحليل مظاهره، أدواته، وآثاره على السيادة الرقميّة والخصوصية والتنمية، من خلال عدسةٍ نقديّةٍ تفكيكيّةٍ لخطاب (التحوّل الرقمي) بوصفه أحيانًا غطاءً أيديولوجيًّا لتكريس تبعيّةٍ جديدة.

تكمن أهميّة الدراسة في أنّها تكشف عن البُعد الاستعماريّ الكامن في ممارسات القوى الرقميّة الكبرى، وتقدّم قراءةً نقديّةً مزدوجةً للنموذجين الأمريكي والصيني، دون الانحياز لأيٍّ منهما، وتسلّط الضوء على مخاطر فقدان السيادة الرقميّة في دول الجنوب الإفريقي. تبحث في آفاق المقاومة الرقميّة وإمكانيّات بناء نماذج رقميّةٍ بديلةٍ ومتوازنة. تكتسب هذه الدراسة أهميّتها من

طبيعة الموضوع نفسه، الذي يمسّ السيادة الوطنيّة، والأمن الرقميّ، وحقوق الإنسان، والتنمية المستقلّة. وتعتمد الدراسة على المنهج التحليليّ النقدي، إلى جانب المنهج التحليليّ الوصفي لتفكيك الأدوات الرقميّة للهيمنة، وتحليل آليات التدخّل الناعم من قبل القوى الكبرى في البنى الرقميّة للجنوب الإفريقي.

أولًا: تأصيل المفاهيم:

١. الاستعمار هو شكل من أشكال (الهيمنة والخضوع) الذي يستغلّ السكّان الأصليّين وأرضهم ويستولي عليهم ،- والاستعمار يساوي التشييء، وفقًا لسيزير. قبل أن تتمكن الحواسيب من الحدّ من الأنشطة البشريّة و(تجزئتها) إلى بياناتٍ مربحة، قامت الأجهزة الاستعماريّة برسم خرائط السكّان الأصليين وأراضيهم، وتحليلها، وتصنيفها كسلع[١].

٢. الاستعمار الرقمي هو «السيطرة اللامركزيّة على البيانات من المواطنين مع أو بدون موافقتهم الصريحة من خلال شبكات الاتّصالات التي طورّتها وتملكها شركات التكنولوجيا الغربيّة»، فإنّ هذا البناء يتألّف من أربعة أطراف فاعلة أساسيّة: أوّلها شركات التكنولوجيا الغربيّة التي تنشئ وتوفر التكنولوجيا والبنية الأساسيّة التي تجمع البيانات لاستهداف الإعلانات وتوزيعها. ثانيها شركات الإعلان والاستشارات التي تستخدم التكنولوجيا التي توفّرها شركات التكنولوجيا الغربيّة لاستهداف مجموعاتٍ مختلفة بإعلاناتٍ ورسائلِ مخصّصةٍ للغاية تهدف إلى زيادة الأرباح. وثالثها الشركات والأحزاب والمنظمات المحلّية التي تدفع شركات الإعلان والاستشارات لمساعدتها في فرض أجنداتها المختلفة على البلدان المعنية. ورابعها المواطنون الذين يعملون عن علمٍ أو بغير علمٍ كمصدر بياناتٍ لشركات التكنولوجيا الغربيّة وكمجموعاتٍ مستهدفةٍ لشركات الإعلان والاستشارات والشركات والأحزاب والمنظمات المحليّة[٢].

يشُير الاستعمار الرقميّ أيضًا إلى شكلٍ من أشكال التدخّل يتجاوز مسائل استعمار البيانات والاستعمار الخوارزمي. فهو يتدخّل في الجيولوجيا، ويشارك بنشاطٍ في البيئة التي

1. Benedetta Brevini, Irene Fubara- Manuel, Clément Le Ludec, Jakob Linaa Jensen, Andrea Jimenez, and Jo Bates. (2024). Critiques of Data Colonialism. In DIALOGUES IN DATA POWER. Britain: Bristol university press. P. 123.

2. Coleman, Danielle. (2019). Digital Colonialism: The 21st Century Scramble for Africa through the Extraction and Control of User Data and the Limitations of Data Protection Laws, Michigan Journal of Race and Law. Vol. 24. P. 423. Available at: https://repository.law.umich.edu/mjrl/vol24/iss2/6

تندمج فيها الرقميّة (على سبيل المثال، في سياق البنية التحتيّة وأرشفة البيانات) مع هياكل القوة الاستعماريّة. وهنا يكمن أوضح رابطٍ بين الاستعمار الرقميّ والاستعمار التاريخي، إذ يتحمّل مسؤوليّةً كبيرةً عن إعادة ظهور أنماط الاحتلال التي تؤثّر على الأرض والمناظر الطبيعيّة[1]. إنّ الاستعمار الرقميّ الجديد هو نوعٌ جديدٌ أكثر تطوّرًا من النفوذ الذي تمارسه القوى العالميّة على المشهد الرقميّ في أفريقيا. يُعرَّف الاستعمار الرقمي الجديد بأنّه ظاهرةٌ معاصرةٌ تمارس فيها القوى العالميّة المهيمنة والشركات متعدّدة الجنسيّات، وخاصّة من المناطق المتقدّمة اقتصاديًّا، سيطرتها ونفوذها على المجال الرقميّ في الدول الأقلّ نموًّا اقتصاديًّا التي كانت خاضعةً للاستعمار سابقًا[2].

ظهر مفهوم (الاستعمار الرقميّ) ليصف أشكال السيطرة الجديدة التي تمارسها القوى التكنولوجيّة الكبرى على الدول النامية، من خلال احتكار أدوات الاتّصال، والتحكّم في البيانات، وفرض نماذج ثقافيّةٍ وسلوكيّةٍ عبر الوسائط الرقميّة. ويعود تأصيل المفهوم إلى تفاعل مكوّنات الاستعمار الكلاسيكيّ (الهيمنة، الاستغلال، التبعيّة) مع الوسائل التقنيّة الحديثة.

٣. المواطنون الرقميّون: هو مصطلحٌ ربما استعمله مارك برينسكي Mark Prensky لأوّل مرةٍ عام ٢٠٠١، يصف الجيل المولود في عالم الإنترنت. نشأوا في بيئةٍ تكثر فيها تطبيقات الإنترنت وتتداخل مع نموّهم الفكريّ والعاطفيّ والاجتماعيّ اليومي. هذه الفئة من الناس هم على وجه الخصوص أولئك الذين ولدوا في الثمانينيّات والتسعينيّات. لديهم إمكانيّة الوصول إلى جميع الشبكات، والقدرة على استعمالها بفعاليّةٍ في روتينهم اليومي. وبصفتهم سكّانًا ومتحدّثين طبيعيّين بلغة الإنترنت، فإنّهم يستخدمون التكنولوجيا بسلاسة، ويجدون صعوبةً في العيش في عالمي الوجود البشري - التناظري والرقمي. إنّهم يعيشون في العالم الثاني، حيث لديهم اتّصالٌ بجميع الشبكات والقدرة على استخدامها لحلّ المشكلات دون موافقة والديهم. علاوة على ذلك، يتميزون بقدرتهم على الوصول إلى المعلومات بشكلٍ أسرع عبر الوسائط الرقميّة بدلاً من الكتب المطبوعة، نظرًا لامتلاكهم وسائل حديثةً لاستيعاب المعلومات الجديدة[3].

٤. العبوديّة الرقميّة، هي ذلك الشعور بالارتباط الجسديّ والعاطفيّ بالتكنولوجيا. قد ينشأ هذا

1. Köppert, Katrin. (2021). Digital Colonialism – In Visual Culture. P. 2.

2. Navigating Digital Neocolonialism in Africa. (2024). CIGI. Tyler Stevenson. P. 1.

3. Ruth Karachi Benson Oji & Nzeaka, Emmanuel Ezimako. (2020). Digital Colonialism on Digital Natives: A WhatsApp Usage Perspective. UJAH. Vol. 21. No.1. p. 24.

من اتّصال صريح بأجهزة الإنترنت لدرجة ظهور متلازمة الإدمان، حيث يشعر الفرد بالاضطراب بدونها. إنّها رغبةٌ دائمةٌ في البقاء على الإنترنت حتى آخر لحظة. العبيد الرقميّون غير قادرين على إتقان العالم التكنولوجي بفعاليّة؛ بل هم مُستعبَدون له[1].

٥. استعمار البيانات يمكن فهم استعمار البيانات على أنّه عمليّةٌ واسعة النطاق لجمع البيانات الشخصيّة التي تُستعمل بعد ذلك لتزويد المستخدمين بمعلوماتٍ شخصيّةٍ عبر الإنترنت. ومع ذلك، قد يُقال إنّ القوّة الاحتكاريّة التي تمتلكها شركات التكنولوجيا الأمريكيّة الكبرى، ممّا يجعل هذه الممارسة ذات طابعٍ استعماريّ حقيقي[2].

ثانيًا: من الاستعمار التقليديّ إلى الاستعمار الرقميّ

إذا كان الاستعمار التقليديّ يعتمد على الاحتلال العسكريّ والنهب المادي، فإنّ الاستعمار الرقميّ يقوم على الهيمنة غير المباشرة، عبر الإنترنت، والمنصّات الرقميّة، واحتكار البرمجيّات والبنى التحتيّة. وتتخذ السيطرة اليوم أشكالاً ناعمةً: من احتكار البيانات، إلى التأثير في الرأي العام وتوجيه السياسات.

خلال الحقبة الاستعماريّة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، غزت القوى الأوروبيّة مساحاتٍ شاسعةً من الأرض؛ ممّا أدى إلى حرمان السكّان الأصليّين من أراضيهم وقوانينهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم.

وفي أعقاب مؤتمر برلين الاستعماري في عامي ١٨٨٤، ١٨٨٥ وافقت هذه القوى الأوروبيّة على القانون العام لمؤتمر برلين الذي «حوّل أفريقيا إلى أرضٍ لا مالك لها، وأدى إلى حرمان الدول الأفريقيّة من حقوقها ومن سيادتهم، وحقّهم القانوني في ملكية دولتهم وأرضهم ومواردهم، وكان المبرر المستخدم للاحتلال الأوروبي لأفريقيا هو الأيديولوجيّة القائلة بأنّ القارّة الأفريقيّة هي مسؤوليّة القوى الأوروبيّة في (إدارتها) حتى يصبح الأفارقة قادرين على الانخراط بنحوٍ كافٍ في السياسة الخارجيّة، قادرين على القيام بذلك بأنفسهم. لقد كان هذا الخطاب بمنزلة سببٍ في حدّ ذاته لوحشيّة أنظمة العبوديّة والاعتماد المستمر على الموارد التي أنشأها المستعمِر في محاولة الحفاظ على هيمنتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة على هذه الأراضي التابعة. وهكذا، من خلال التصنيع الاستراتيجي للتخلّف الصناعي والسياسي المحليّ. ظلّ المستعمرون الأوروبيّون مسيطرين على

1. Ibid. p. 22.

2. Kenny, Bríd. (2022). Digital Colonialism. Æther Journal - Issue 1. P. 40.

موارد أفريقيا ومخرجاتها طوال القرن التاسع عشر. صعود الرأسماليّة الصناعيّة[١].

أسهمت الشركات صاحبة هذه الأجندة الاقتصاديّة الاستعماريّة، بدورٍ مهيمنٍ في التوسّع الاستعماريّ؛ فمنذ القرن السابع عشر، منُحت عشرات الشركات احتكارات تجاريّة من حكوماتها في جميع أنحاء العالم. إنّ احتكارهم للتجارة في مناطق محدّدةٍ سمح لهذه الشركات بالقدرة على حماية هذا الاحتكار والقدرة على ممارسة الحقوق على مواطنيهم الذين يعيشون ويعملون داخل المنطقة. إنّ منح الحكومات الاستعماريّة هذا الاحتكار جعل هذه المشاريع عالية المخاطر أكثر أمانًا للمستثمرين الذين كان الربح هو الدافع الأساس لهم. بعد فترة انقطاعٍ قصيرةٍ، شهد القرن التاسع عشر عودة ظهور الشركات التجاريّة بوصفها أسلحةً تُستعمل للتوسّع الاستعماريّ، ومصادر دخلٍ إضافيّة للنظام الاقتصاديّ الناشئ للرأسماليّة الصناعيّة. وبحلول ذلك الوقت، كانت تجربة الشركات في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثل (شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة)، قد ساعدت في ترسيخ الشكل المؤسّسي كقوةٍ مهيمنةٍ للاستيطان والاستعمار. ثبت أنّ هذه الموجة الثانية من الاستعمار من جانب شركات التجارة كانت قوية. كانت شركات التجارة الأربع الكبرى في القرن التاسع عشر تتألف من الشركة البريطانيّة لجنوب أفريقيا، والشركة الألمانيّة لشرق أفريقيا، والشركة الإمبراطوريّة البريطانيّة لشرق أفريقيا، وشركة النيجر الملكيّة[٢].

تاريخيًا، اتّسمت تجربة أفريقيا مع الاستعمار بالاستغلال والخضوع الثقافي والتبعيّة الاقتصاديّة. ويعُد إرث الاستعمار متعدّد الأوجه، وقد كان لهذا التاريخ تأثيرٌ هائلٌ على النظم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للقارّة، ممّا وفّر سياقًا لفهم الديناميكيّات الرقميّة والاقتصاديّة الأفريقيّة الحديثة. في ظلّ الاستعمار، مارست القوى الأوروبيّة سيطرتها على الأراضي الأفريقيّة، مستغلةً الموارد والعمالة المحلية، وفرضت حوكمةً خارجيّةً لخلق أنظمةٍ تبعيّة. ولعبت شركات مثل (شركة الهند الشرقيّة) أدوارًا محوريّةً من خلال السيطرة على البنى التحتيّة كالموانئ والسكك الحديديّة، التي كانت حيويةً لاستخراج الموارد وقمع الاقتصادات المحليّة. صُمّمت هذه البنى التحتيّة الاستعماريّة استراتيجيًّا لتمكين الاستخراج الفعّال للموادّ الخام التي كانت تشُحن بعد ذلك إلى أوروبا للمعالجة، ثم تُباع المنتجات النهائيّة إلى المستعمَرات؛ ممّا يُقوضّ الصناعات المحليّة[٣].

1. Ibid. P. 36.

2. Coleman, Danielle. (2019). P. 421.

3. Navigating Digital Neocolonialism in Africa. (2024). CIGI. Tyler Stevenson. P. 2.

وعلى الرغم من استقلال أفريقيا بشكلٍ رئيس عن الحكم الاستعماري التقليديّ، فلا يزال شكلٌ آخر من أشكال الحكم الاستعماريّ يهيمن على المشهد الأفريقي. ويتجلّى هذا التشابه بين هذه الأشكال المختلفة من الاستعمار في هيمنة الشركات التكنولوجيّة الغربيّة، تمامًا كما فعل المستعمِرون التقليديّون. في هذا العصر الرقميّ، يتجلّى الاستعمار الرقميّ في أفريقيا من خلال سيطرة كياناتٍ أجنبيّةٍ على البنية التحتيّة الرقميّة الحيويّة وامتلاكها؛ ممّا يؤدي إلى تدفّق غير متكافئٍ للبيانات، وديناميكيّات قوّةٍ غير متكافئة. وعادةً ما يحدث هذا تحت ستار الشركات الأجنبيّة التي تقدّم المساعدة التكنولوجيّة للقارة[1].

اليوم، نشهد شكلاً جديدًا من الاستعمار المؤسّسي. فبدلاً من غزو الأراضي، تستعمر شركات التكنولوجيا الكبرى التكنولوجيا الرقميّة، وتهُيمن حفنةٌ من الشركات الأمريكيّة متعدّدة الجنسيّات على الوظائف الآتية: محرّكات البحث (جوجل)؛ ومتصفّحات الويب (جوجل كروم)؛ وأنظمة تشغيل الهواتف الذكيّة، والأجهزة اللوحيّة (جوجل أندرويد، وآبل آي أو إس)؛ وأنظمة تشغيل أجهزة الكمبيوتر المكتبيّة والمحمولة (مايكروسوفت ويندوز)؛ وبرامج المكاتب (مايكروسوفت أوفيس، ومستندات جوجل)؛ والبنية التحتيّة والخدمات السحابيّة (أمازون، ومايكروسوفت، وجوجل، وآي بي إم)؛ ومنصّات التواصل الاجتماعي (فيسبوك، وتويتر)؛ والنقل (أوبر، وليفت)؛ وشبكات الأعمال (مايكروسوفت لينكد إن)؛ وبث الفيديو (جوجل يوتيوب، ونتفليكس)؛ والإعلان عبر الإنترنت (جوجل، وفيسبوك) من بين أمور أخرى. وتضم مجموعة GAFAM الآن أغنى خمس شركاتٍ في العالم، بقيمةٍ سوقيّةٍ إجماليّةٍ تتجاوز ٣ تريليونات دولار[2].

في الاستعمار الرقمي الجديد، تتجلّى ديناميكيّةٌ مماثلةٌ في المجال الرقمي. فالبنى التحتية الحيويّة، كالمنصّات الرقميّة والشبكات وأنظمة البيانات، تخضع في الغالب لسيطرة شركاتٍ من دولٍ مهيمنةٍ اقتصاديًّا. في المشهد الرقمي، تُعدّ البيانات (المادّة الخام)، وتستخرجها الشركات الأجنبيّة وتُعالجها وتحتكرها دون مراعاة للاستقلاليّة الأفريقيّة. غالبًا ما تتضمّن هذه العمليّة قوى عالميةً تُسند العمل الرقميّ، مثل إدارة المحتوى أو معالجة البيانات، إلى الدول النامية، حيث تكون تكاليف

1. Salami, Aishat Oyenike. (2024). Artificial intelligence, digital colonialism, and the implications for Africa's future development. Cambridge University Press. P. 1. https://doi.org/10.1017/dap.2024.75

2. Kwet, Michael. (2019). Digital colonialism: US empire and the New Imperialism in the Global South. P. 4. https://ssrn.com/abstract=3232297

العمالة أقلّ، والأطر التنظيميّة أقلّ صرامة. ثم تُسوّق المنتجات والخدمات الرقميّة الناتجة، ذات الثراء بهذه البيانات المسُتخرجة، إلى هذه الدول النامية نفسها، مُنشئةً بذلك دورةً تشبه دورة التجارة الاستعماريّة. وهكذا، يسفر الاستعمار الرقميّ الجديد عن أشكالٍ جديدةٍ من التبعيّة والاستغلال والتفاوت الاقتصاديّ، تُحاكي إرث الاستعمار في العصر الرقميّ. على الرغم من أنّ الدول الأفريقيّة قد اكتسبت سيادةً إقليميّةً منذ الحقبة الاستعماريّة، فإنّ الأنظمة الاقتصاديّة لهذه الدول القوميّة غالبًا ما تظلّ مرتبطةً بالمصالح الأجنبيّة؛ ممّا يدُيم دورةً من التبعيّة والتخلّف. وسواء أكانت خاضعةً لمنظمات سياسيّة أم شركات، فقد عانت أفريقيا ما بعد الاستعمار من أشكالٍ عديدةٍ من الاستعمار الجديد، حيث لا تزال القوى الخارجيّة تشُكلّ الفرص الاقتصاديّة والسياسيّة للقارّة[1].

لقد شكّل الاستعمار بشكلٍ عميقٍ أنظمة المعرفة والقوّة الغربيّة، وأنشأ أطرًا معرفيّةً لا تزال قائمةً أثرت على الابتكار التكنولوجيّ المعاصر. خلال الحقبة الاستعماريّة، ارتبط إنتاج المعرفة بالهيمنة، حيث صورّت القوى الأوروبيّة نفسها على أنّها عقلانيّةٌ وعلميّةٌ ومتفوّقة، بينما صورّت المجتمعات المستعمَرة على أنّها بدائيّةٌ وغير عقلانيّة. أسهم هذا التناقض في تبرير الغزو والحكم الاستعماريين، مدُمجًا هياكل هرميّة في تخصّصاتٍ مثل الأنثروبولوجيا، ورسم الخرائط، والعلوم الطبيعيّة. صورّت التقاليد الفكريّة الغربية الشرق كآخر غريبٍ ومتخلّفٍ لتأكيد التفوّق الغربي الثقافي.

على سبيل المثال، صُورّت الرعايا المستعمَرين على أنّهم عاجزون عن حكم أنفسهم ويحتاجون إلى تدخّلٍ غربيّ. وقد عكس هذا التأطير سيطرة المستعمِرين المنهجيّة على المعرفة والتكنولوجيا، حيث سهلّت اختراعات الحقبة الاستعماريّة، مثل التلغراف والسفن البخاريّة، استخراج الموارد ومراقبتها في المناطق المستعمَرة. في أنظمة الذكاء الاصطناعي الحديثة، لا تزال أنماطٌ معرفيّةٌ مماثلةٌ قائمةً. غالبًا ما تشُفرّ الخوارزميّات تحيّزات تعُطي الأولويّة لوجهات النظر؛ ممّا يهُمشّ أنظمة المعرفة غير الغربيّة[2].

إنّ السرديّات السوداء في القرنين العشرين والحادي والعشرين قد أثبتت بالفعل أنّ الاستشراق لا يزال يزدهر في هذا العصر من خلال ترسيخ (الآخر) لدى السود، سواء أكانوا من أصلٍ أفريقيّ أم لا. ويرتكز أيضًا على افتراض أنّ هذه النزعات الاستشراقيّة قد تسلّلت إلى المنصّات والنظريّات الرقميّة، كما سيتّضح في بعض الأعمال النظريّة لتلك الحقبة، مرتكزًا على هذا التحيّز لتصوّر

1. Navigating Digital Neocolonialism in Africa. (2024). P. 2.

2. Zia, Samavia. (2025). Digital Colonialism: Reimagining Power, Identity, and Resistance by Decolonizing AI. P. 132.

محاولة للنضال من أجل صورةٍ واعيةٍ وكريمة. تستخلص هذه الأعمال البارزة استنتاجات عالميّة حول الاتجاهات العالميّة في عصريَ الحداثة وما بعد الحداثة، متجاهلةً الواقع الأفريقي تمامًا؛ ممّا يجعلها تبدو كأنّها تواصل (التوطين) الهيجلي لأفريقيا، مُفسحةً بذلك فجوةً لعبء الرجل الأبيض الجديد لتدمير أفريقيا في العصر الرقمي. وقد تجلّى ذلك بالفعل في الرسوم المتحرّكة وأفلام الخيال العلمي الأخرى، مثل فيلم (النمر الأسود) من إنتاج مارفل، حيث يحاول الغرب سرد قصة التكنولوجيا في أفريقيا من منظورٍ غربيّ في محاولةٍ لإثبات تشابه العلوم الأفريقيّة مع العلوم الغربيّة، مع وجود خطرٍ يتمثّل في أنّها تُمهّد الطريق لأعمال النسخ؛ ممّا يضُعف إبداع الأطفال الأفارقة الذين سيشاهدون هذه الأفلام ويستلهمون منها.

إنّ الاستشراق الرقميّ هو سمة هذا العصر في وقتٍ تتسرب فيه فتات التكنولوجيا من الغرب، وتصُبح أدمانًا للشعوب، بينما يبلغ الاستشراق/الاستعمار الرقميّ ذروته. وقد تجلّى هذا الاستشراق بالفعل في نظر المنظّرين الغربيّين الذين شرعوا في تجاهل أفريقيا كما فعل هيجل قبل ظهور الاستعمار التقليديّ. إنّ تجاهل الواقع الأفريقي بهذه الوتيرة يُفسح المجال لتشويهاتٍ جديدةٍ بدعوى تقديم خدمةٍ لأفريقيا أو الدعوة إلى عبءٍ جديدٍ على كاهل الرجل الأبيض[1].

يُظهر استعمار البيانات أوجه تشابهٍ جوهريّةٍ مع الاستعمار التاريخيّ، ولا سيّما في آلياته المتمثّلة في الاستيلاء والسيطرة وعدم المساواة المنهجيّة. فكما كان الاستعمار التقليديّ مدفوعًا باستخراج الأراضي والموارد والعمالة لتحقيق الهيمنة الاقتصاديّة والجيوسياسيّة، يعمل استعمار البيانات من خلال الاستيلاء واسع النطاق على حياة الإنسان عبر البنى التحتيّة الرقميّة. يعمل كلا النظامين من خلال علاقات قوّةٍ غير متكافئة، حيث تعُزز الجهات المهيمنة - تاريخيًّا، الدول الإمبرياليّة وشركات التكنولوجيا اليوم - سيطرتها على الفئات المهمّشة، ولا سيّما في الجنوب العالمي. تتجلّى هذه الديناميكيّة في الاقتصاد الرقمي، حيث تستخرج الشركات بيانات المستخدمين تحت ستار تقديم الخدمات؛ ممّا يعكس كيف بررت القوى الاستعماريّة التوسّع الإقليمي من خلال خطابات الحضارة والتنمية[2].

1. Fonyuy, Banla Samuel. (2024). Oscillating between Racism, Colonialism, and Digital Colonialism: towards Theorizing Digi-Africanism. International Journal of Humanities Social Sciences and Education (IJHSSE). Vol. 11. Issue .5. PP. 74-83. P. 80.

2. Yılmaz, Ö. (2025). The Origins of Digital Colonialism. İmgelem. Vol. 16. pp. 321-344. P. 331.

لقد مثّل الاستعمار منذ القرن الثامن عشر وطوال القرن الماضي عاملاً حاسماً في تشكيل أنماط الإنتاج؛ فبدأ قديماً عبر استنزاف المواد الخام وتسخير العمالة في مزارع الأمريكتين لدعم الثورات الصناعية الغربية، وصولاً إلى شكله المعاصر غير الواعي الذي يتجسد في ‹الرقمنة›، حيث يتم تحويل المستهلك إلى ‹منتج مستهلك› يغذي المنصات ببياناته وجهده دون إدراك منه. ومن المؤكد أن الاستعمار وأنماط الإنتاج يظلان مترابطين؛ إذ كان التأثير الاستعماري عبر قرنين -مهما اختلفت صوره- هو المحرك الأساسي الذي يحدد مدى نجاح المجتمعات في بلوغ أهدافها التنموية أو تعثرها[1].

أوجه التشابه بين الاستعمار القديم والاستعمار الرقميّ الحديث

الاستعماريّة الغربيّة شملت أربع مجالاتٍ مارست من خلالها الإمبراطوريّات الأوروبيّة سلطتها على مستعمراتها، والتي ترتبط من خلال فكرةٍ مصفوفة القوة الاستعماريّة:

١. **السلطة:** تحافظ القوى الاستعماريّة على العلاقات السياسيّة غير المتكافئة وتعزّزها، لضمان الاستيلاء على الموارد؛ وقد تم تأسيس العديد من أشكال السلطة، مثل الحكومات الاستعماريّة والملكيات والجيوش، وتم التحقّق من صحّتها وإضفاء الشرعيّة عليها داخل المستعمرات.

٢. **الاقتصاد:** توزيعٌ عالميٌّ غير متكافئٍ بشكلٍ كبيرٍ للفوائد الناجمة عن استخراج الموارد (على سبيل المثال الفقر العالمي، وأصحاب الملايين، والأنظمة الملكيّة) من خلال الاستيلاء على الأراضي، واستغلال العمالة (على سبيل المثال العبوديّة، والعمل القسريّ)، والسيطرة على الموارد الطبيعيّة.

٣. **الجنس/الجنسانيّة:** حُوِّلت المرأة إلى شيءٍ، ونُظِر إليها كوسيلةٍ للتكاثر. أُبعدت النساء من مواقع السلطة لتعزيز منظورٍ فرديّ وجنسيّ لتراكم رأس المال من خلال الأسرة والتعليم؛ ورُعيت المجتمعات التي يهيمن عليها الذكور وشجُعِّت.

٤. **المعرفة والذاتيّة:** فرض الأيديولوجيّات المعرفيّة الأوروبيّة على غيرها من أساليب المعرفة لفهم كلّ هذا القمع. هذا الخلل في توازن القوى يعزّز الأيديولوجيّات المعرفيّة على حساب غيرها، ممّا يمحو العديد من الهويّات الثقافيّة، ويديم الممارسات العنصريّة والجنسانيّة للهيمنة[2].

1. Obi, Paul A. (2024). Labouring and Smiling: Re-Imagining Digital Colonialism in Africa, Silicon Valley Big Techs, and the Politics of Prosumer Capitalism in Nigeria. Triple C. 22 (1): 381-395. P. 385.

2. Banos, Alejandro Mayoral. (2023). Data colonialism is not a metaphor: Remembering

الارتباطات بين مجالات السلطة الاستعماريّة والممارسات الرقميّة:

١. السلطة والتكنولوجيا الرقميّة: لقد أدّت التقنيات الرقميّة إلى زيادة تأمين العالم من خلال أدوات الإنترنت: السحابة، والذكاء الاصطناعيّ، والبيانات الضخمة، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، وإنترنت الأشياء (IoT). ويحدث هذا العامل في العديد من الدول القوميّة من خلال استغلال التكنولوجيا للمراقبة، وأجهزة المسح البيومتريّة، وعلامات التعريف بترددات الراديو، على سبيل المثال لا الحصر. يمكن للأجهزة المتّصلة بالإنترنت أن توفّر مليارات الأعين لوزارة الدفاع الأمريكيّة، ووكالة الأمن القومي الأمريكيّة، ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة للمراقبة العالميّة. علاوةً على ذلك، تعرّضت العديد من الأصوات المعارضة للأنظمة الاستبداديّة للرقابة (على سبيل المثال، السجن، والاغتيال، والاختفاء) باستخدام أدوات الإنترنت[1].

٢. الاقتصاد والتكنولوجيا الرقميّة: إنّ القوّة الاقتصاديّة الهائلة التي تتمتع بها شركات التكنولوجيا الخاصّة على التقنيات الرقميّة تعني أنّ قلّةً من الأشخاص من مناطق وهويّاتٍ معينةٍ مسؤولون عن معظم البنية التحتيّة والسياسات المتعلّقة بالتكنولوجيا الرقميّة. وتسمح القوانين والسياسات واللوائح باستمرار هذا التفاوت بمرور الوقت وفي مناطق مختلفة. وبالمثل، بررت العديد من الأطر القانونيّة استخراج الأراضي واستغلالها خلال الاستعمار التاريخي. ومن بين هذه الأطر مبدأ الاكتشاف والمرسوم البابوي. أرض لا مالك لها في التعبير اللاتيني تعني أرضًا لا يملكها أحد، وهذا برّر العنف والقمع لسرقة أراضي وموارد العديد من المجتمعات السوداء والأصليّة والمحليّة. لقد أدّى هذا الشكل المستمر من الاستخراج إلى نشوء الإمبراطوريّات التي تأسّست في مختلف أنحاء أوروبا منذ القرن الخامس عشر[2].

٣. الجنسانيّة والنوع الاجتماعيّ والتكنولوجيا الرقميّة: لقد تمّ دحض اليوتوبيا التي تزعم أنّ التكنولوجيّات الرقميّة كانت محايدةً فيما يتعلّق بالجنس والعرق والطبقة والدين واللغة وفئات الهويّة الأخرى بشكلٍ ملحوظٍ من خلال جميع أنواع مظاهرات القوّة عبر البلدان والمناطق والمنصات. يتمّ نقل البنيات الاجتماعيّة والثقافيّة للجنس والنوع الاجتماعيّ من عالمٍ غير رقميٍّ إلى عالمٍ رقميّ من خلال هويّات ومفاهيم مصمّمي ومطوّري المساحات الرقميّة، وعلاوةً على

colonialism and why it matters in the digital ecosystem. In Resisting Data Colonialism – A Practical Intervention. Amsterdam: The Institute of Network Cultures. P. 14.

1. Ibid. P. 16.

2. Ibid. P. 18.

ذلك، من خلال الصور التي يولّدها المستخدمون[1].

٤. المعرفة والتكنولوجيا الرقميّة: الرؤية الطوباويّة الأصليّة التي تقول بأنّ الإنترنت (وخاصّة الويب)، ووسائل التواصل الاجتماعيّ كانت مساحةً مفتوحةً للجميع لمشاركة معارفهم وإسماع أصواتهم، لكنّها واجهت تحدّياتٍ كبيرةً مع ظهور وتطوير وسائل التواصل الاجتماعي. ويواجه الطموح السياسي للحريّة في هذه الوسائل جدلاً؛ إذ إنّ عددًا كبيرًا من الخطابات على الإنترنت لا تسمح بسماع أصوات المهمشين، بل تخضع اليوم للرقابة بنحوٍ متكرّر. لا يعتد بالنقاش السياسي إلّا لمن لديهم عددٌ محُددٌّ من المتابعين أو المشتركين على مواقع التواصل الاجتماعيّ (أو من يستطيعون الدفع لهم). إلى جانب هذه الظاهرة، يُشجعّ التنمرُّ الإلكتروني وخطاب الكراهيّة على الإنترنت أشكالاً جديدةً من العنف ضدّ هذه الأصوات. بمعنى آخر، تُكرّر الممارسات القمعيّة والإقصائيّة وتُضخّم في العديد من المساحات الرقميّة، وتحُافظ على الانقسامات الاجتماعيّة. من منظورٍ معرفي، تشُير هذه الظاهرة إلى أنّ أصواتًا وهويّاتٍ وأيديولوجيّاتٍ معيّنةً فقط هي التي تُؤثّر في هذه المجتمعات[2].

اليوم، تُؤدّي التحوّلات الرقميّة في الأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة العالميّة إلى ظهور الرأسماليّة العنصريّة الرقميّة. ويحدث ذلك من خلال التقاء التحوّل الرقمي والرأسماليّة العنصريّة وممارسات استعمار البيانات؛ ممّا يسُفر عن أشكالٍ من العنصريّة، والعنف الهيكلي، وسياسات البيانات المسُتخَدمَة في العصر الرقمي والبيانات. تنُشئ الرأسماليّة العنصريّة الرقميّة تسلسلات هرميّة عرقيّة من المخاطر والتعرّض لاستعمار البيانات، وذلك باستخدام البيانات والتكنولوجيا الرقميّة لإعادة تشكيل أو خلق فئاتٍ جديدةٍ من العنصريّة (مثل المهاجرين والإرهابيين، إلخ)، والتكنولوجيا الرقميّة والأضرار الناجمة عن البيانات. المجموعات العرقيّة والإثنيّة أكثر عرضةً هيكليًّا للمراقبة المفرطة والأضرار الرقميّة عبر أبعادٍ متعددةٍ من التقاطع[3].

في صميم الرأسماليّة العنصريّة الرقميّة هذه - في عصر البيانات الضخمة اليوم يكمن استعمار البيانات ـ استعمار البيانات هو تسليع العلاقات الإنسانيّة والأجساد والسلوكيّات. يؤدّي تقارب

1. Ibid.

2. Ibid. P. 19.

3. Kalema, Nai Lee. (2023). Intersections of Data Power: Unmasking the Nexus of Data Colonialism and Digital Racial Capitalism. In In Resisting Data Colonialism – A Practical Intervention. Amsterdam: The Institute of Network Cultures. P. 21.

الرأسماليّة العنصريّة العالميّة والإمبرياليّة واستعمار البيانات إلى ظهور أنواعٍ جديدةٍ من المخاطر والأضرار التي تتوسطها البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعيّ والتقنيات الرقميّة. هذه المخاطر والأضرار التي تتوسطها البيانات والتكنولوجيا الرقميّة موزعة بشكلٍ غير متساوٍ على هرميّاتٍ عرقيّةٍ متقاطعة؛ ممّا يجعل بعض الفئات السكانيّة أكثر عرضةً للاستغناء عنها بطبيعتها، وبالتالي أكثر عرضةً لاستعمار البيانات والمراقبة المفرطة والأضرار الخوارزميّة والعنف الهيكلي، أو بعبارةٍ أخرى، الرأسماليّة العنصريّة الرقميّة[1].

يمكن مقارنة (التحويل إلى بيانات) اليوم- أو تحويل العالم إلى بيانات - بالقياس الاجتماعيّ الكمّي للقرن التاسع عشر من حيث إنّه يسمح بتصنيف الأفراد. وبالمثل، تُوسّع شركات الحوسبة السحابيّة اليوم نطاق منطق الماضي الاستعماري في سعيها للاستحواذ على البيانات. كما يُسهّل هذا الاستخراج للقيمة ويتوسّع بفضل إمكانيات التنسيق التي تتيحها التكنولوجيا الرقميّة. وأخيرًا، تسيطر هذه الشركات على البنية التحتيّة اللوجستيّة؛ ممّا يمنحها بعض النفوذ على الشركات الأخرى: فامتلاك عددٍ كبيرٍ من مراكز البيانات يمُكنّها من تقديم خدمات تخزين البيانات وقوّة الحوسبة لشركاتٍ أخرى أصغر حجمًا[2].

باختصار الاستعمار الرقميّ لا يرتبط بجغرافيا أو حدود، بل يتجاوزها ليشكّل نسقًا فوق وطني، تمارسه شركاتٌ تتجاوز سلطات الدول، وتعيد تشكيل أنماط الإنتاج والتفكير والسلوك، بطريقةٍ تؤدّي إلى تآكل السيادة واستنزاف الموارد الرقميّة. الاستعمار الرقميّ هو نموذج الهيمنة المعاصر.

ثالثًا: أدوات السيطرة الرقميّة (الذكاء الاصطناعي، البنية التحتيّة، البيانات).

شهدت إفريقيا خلال العقدين الأخيرين تحوّلاتٍ عميقةً في بنيتها الرقميّة، مدفوعة بتوسّع الاتصال بالإنترنت واعتماد تطبيقات الذكاء الاصطناعي (AI) في مختلف القطاعات. ورغم الفجوة الرقميّة التي ما تزال قائمةً، فإنّ القارّة أصبحت بيئةً خصبةً لاختبار تطبيقاتٍ تقنيّةٍ مبتكرةٍ في الصحة، الزراعة، التعليم، والخدمات العامّة. ويُعدّ التحولّ الرقميّ قوةً دافعةً تُحفّز الابتكارات والرقمنة وخلق فرص العمل، وتسُهم في معالجة الفقر، والحدّ من عدم المساواة، وتسهيل توفير السلع والخدمات، والمساهمة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة.

1. Ibid. P. 26.

2. Benedetta Brevini, Irene Fubara- Manuel, Clément Le Ludec, Jakob Linaa Jensen, Andrea Jimenez, and Jo Bates. (2024). P. 124.

بالنسبة لأفريقيا، تتُيح اللحظة الراهنة فرصةً واعدة، وتشير تقنيات اليوم إلى مدى وسرعة تحوّل التكنولوجيا في القطاعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التقليديّة. واعترافًا بجهود قيادة القارّة لإعطاء الأولويّة للتحوّل الرقميّ وتسريعه، وبناءً على رؤية العديد من القادة الأفارقة، فإنّ البلدان الأفريقيّة مستعدّةٌ لاستراتيجيّةٍ شاملةٍ للتحوّل الرقميّ لتوجيه استجابةٍ مشتركةٍ ومنسّقةٍ لجني فوائد الثورة الصناعيّة الرابعة[1].

على الرغم من وجود فرصٍ واعدةٍ للتنمية الرقميّة في أفريقيّا، فإنّه لا بدّ من مواجهة العديد من التحدّيات لتحقيق كامل إمكانات أفريقيا الرقميّة. وتشمل هذه التحدّيات الهيمنة التكنولوجيّة الأجنبيّة، سدّ الفجوة الرقميّة، وضمان خصوصيّة البيانات وأمنها، وبناء قدرات المؤسّسات والأفراد للاستفادة الفعّالة من التقنيات الرقميّة. وتُعدّ الشراكات الدولية والتدخّلات الموجّهة أساسيّة للتغلّب على هذه التحدّيات وبناء منظومةٍ رقميّةٍ مستدامةٍ في أفريقيا[2].

الذكاء الاصطناعي بوصفه أداةً للاستعمار الرقميّ:

١. **المراقبة والتحكّم:** تُعزّز تقنيات الذكاء الاصطناعيّ المراقبة في مجتمعات ما بعد الاستعمار، محاكيةً آليات السيطرة الاستعماريّة من خلال استهداف المجتمعات المهمّشة. خلال الحكم الاستعماريّ، استخُدمت التعدادات السكانيّة، وأدوات رسم الخرائط لرصد السكّان المسُتعمَرين والسيطرة عليهم. وبالمثل، تؤُثر أنظمة المراقبة الحديثة المُعزّزة بالذكاء الاصطناعي بشكلٍ غير متناسبٍ على مجتمعات ما بعد الاستعمار، وغالبًا ما يكون ذلك تحت ستار الأمن. تُسلّط هذه الممارسات الضوء على الإرث الاستعماريّ المسُتمر في الحوكمة التكنولوجيّة المعُاصرة. تُجسّد أنظمة التعرّف على الوجوه ونماذج الشرطة التنبؤيّة كيف تُكرّس تقنيات الذكاء الاصطناعي التحيّزات النظاميّة، وتعُزز هياكل السلطة الاستعماريّة. وقد تعرّضت أدوات التعرّف على الوجوه، التي طُوّرت غالبًا في بلدان الشمال الأوروبي، لانتقاداتٍ واسعة النطاق بسبب تحيّزاتها العرقيّة[3].

٢. **استخراج البيانات والاستغلال الاقتصادي:** يمُثّل استخراج البيانات المدُار بالذكاء الاصطناعي

1. African Union. (2020).THE DIGITAL TRANSFORMATION STRATEGYFOR AFRICA (2020–2030). P.3.

2. Ogunbukola, Matthew. (2024). Digital Africa: Transforming the Continent through Technology. P. 10. https://www.researchgate.net/publication/381339406

3. Zia, Samavia. (2025). P. 137.

نظيراً معاصراً لاستغلال الموارد في الحقبة الاستعماريّة؛ ممّا يعكس التفاوت الاقتصاديّ المسُتمرة بين الشمال والجنوب الإفريقي. خلال الحقبة الاستعماريّة، كانت الموادّ الخام كالتوابل والذهب والعمالة تسُتخرج من الأراضي المُستعمَرة لدعم النموّ الصناعيّ للقوى الأوروبيّة. واليوم، تحُصد البيانات - التي توصف غالبًا بالنفط الجديد - على نحوٍ مماثلٍ من إفريقيا بوساطة شركات الذكاء الاصطناعيّ التي تتخذ من الشمال مقرًّا لها. وغالبًا ما يحدث هذا الاستخراج دون موافقةٍ جادّةٍ أو تعويضٍ عادل؛ ممّا يدُيم اختلال التوازن في الثروة والسلطة. على سبيل المثال، تجمع منصّات مثل جوجل وفيسبوك كمياتٍ هائلةً من بيانات المستخدمين من دول إفريقيا، التي تسُتغل بعد ذلك لتدريب الخوارزميّات وتطوير منتجات الذكاء الاصطناعي[1].

يمنح الذكاء الاصطناعي، وخاصّة التعلّم الآلي ومعالجة اللغة الطبيعيّة، الشركات القدرة على تجميع مليارات نقاط البيانات بشكلٍ أفضل واستخلاص استنتاجات حول المستخدمين. يمكن استخدام هذه البيانات لاستنتاج معلوماتٍ شخصيّةٍ مثل خلفيّة الشخص، ودينه ومعتقداته، وآرائه السياسيّة، وتوجّهه الجنسي وهويّته الجنسيّة، وارتباطاته الاجتماعيّة، وصحّته وأصله العرقي، ومستويات دخله، وتحصيله التعليمي، وحالته الاجتماعيّة، وتكوينه الأسريّ، واستقراره الماليّ وجدارته الائتمانية، ذلك كلّه دون أن يقدّم المستخدم هذه المعلومات بشكلٍ مباشر. والنتيجة هي إنشاء ودمج البصمات الرقميّة التي توفّر معرفةً متعمّقةً عن حياة الشخص. وفي نهاية المطاف يتمّ تجميع هذه البيانات واستخدامها وبيعها لتحقيق ربحٍ هائل. والأمر الأكثر إثارةً للقلق هو أنّ حفنةً من شركات التكنولوجيا، مثل ألفابت Alphabet وفيسبوك، قادرةٌ على استخدام الذكاء الاصطناعي للتحليلات التنبؤيّة، وهو «استخدام البيانات والخوارزميّات الإحصائيّة وتقنيّات التعلّم الآلي لتحديد احتماليّة النتائج المستقبليّة بناء على البيانات»[2].

٣. **البنية التحتيّة الرقميّة:** تشمل الكابلات البحريّة، والأقمار الصناعيّة، ومراكز البيانات، التي تتحكّم فيها الشركات الكبرى، ما يجعل تدفّق المعلومات عالميًّا مرهونًا بالغرب. إحدى الطرق التي يتجلّى بها الاستعمار الرقميّ في أفريقيا هي من خلال السيطرة على البنية التحتيّة الرقميّة الحيويّة وامتلاكها من قبل كياناتٍ أجنبيّة، يتجلّى ذلك في هيمنة المنصّات والخدمات الرقميّة الأجنبيّة على الأسواق الأفريقيّة، حيث يعتمد المستهلكون الأفارقة اعتمادًا كبيرًا على هذه المنصّات

1. Ibid. P. 138.

2. Coleman, Danielle. (2019). P. 426.

الأجنبيّة. ومن خلال السيطرة على النظام البيئيّ الرقميّ، تكتسب الكيانات الأجنبيّة أو شركات التكنولوجيا الكبرى نفوذًا مباشرًا على المجالات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة في القارّة على الرغم من أنّ البنى التحتيّة الرقميّة ضروريّة لتطوير المشهد الرقميّ للقارّة عندما تسيطر عليها جهاتٌ خارجيّة، فإنّه يمكن استغلالها واستخدامها بسهولةٍ للسيطرة الإمبرياليّة على مستوى بنية النظام البيئي الرقميّ، ويمكن أن تؤثّر على الشركات المحليّة والابتكار.

من مظاهر الاستعمار الرقميّ الأخرى التدفّق غير المتكافئ للبيانات؛ فاحتكار شركات التكنولوجيا متعدّدة الجنسيّات الأجنبيّة للقارّة يمنحها حريّةً مطلقةً في جمع كميّاتٍ هائلةٍ من البيانات من المستخدمين الأفارقة عبر منصّاتها وخدماتها. وهذا يعني أنّ البيانات من المنصّات والخدمات الرقميّة، ووسائل التواصل الاجتماعي، ومحركات البحث، وتطبيقات الهاتف المحمول، والتي غالبًا ما تتطلّب من المستخدمين لتوفير المعلومات الشخصيّة والتفضيلات، يتم استخراجها وجمعها وتخزينها[1].

على المنوال نفسها، تمُارس تجربة (الاختبار التجريبي)، حيث تستثمر شركات التكنولوجيا في تجارب متنوّعةٍ لاختبار الإصدارات المبكّرة من أنظمة البرمجيّات لتحديد مشاكل استخدامها في بيئاتٍ مع مستخدمين حقيقيين. في اختبار أنظمة التنبؤ، تستعمل هذه المؤسّسات ــ في مواقف استغلاليّة واضحة ــ دولاً خارج نطاقها كأرضيّةٍ للاختبار وعلى نحوٍ مماثل، هناك حالةٌ من السلب الخوارزميّ الذي نشهده مع ضعف تمثيل أفريقيا وتهميشها في المناقشات المتعلّقة بتنمية الاقتصاد الرقميّ، وبالتالي ترسيخ مركزيّة السلطة بين المستعمِرين الرقميّين. وهذا يبقي أفريقيا معتمدةً اقتصاديًا على الدولة التي تزودها بمعظم برامج الذكاء الاصطناعي[2]. ومن الأمثلة الخبيثة لهذا النوع من الاختبارات عندما اختبرت كامبريدج أناليتيكا Analytica Cambridge خوارزمياتها على الانتخابات النيجيريّة والكينيّة في عامي ٢٠١٥، ٢٠١٧ على التوالي، قبل استخدامها في الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة[3].

٤. **الخوارزميّات والبيانات الضخمة:** الخوارزميّات تشكّل رأيًا عامًّا غير مرئي، وتقوم بتصفية وتوجيه المحتوى بما يخدم أجنداتٍ تجاريّةً وسياسيّة، وتتحوّل البيانات الضخمة إلى موردٍ

1. Salami, Aishat Oyenike. (2024). P. 2, 3.

2. Ibid. P. 3, 4.

3. Susan Brokensha, Eduan Kotzé, Burgert A. Senekal. (2023). AI in and for Africa A Humanistic Perspective. CRC Press. P. 20.

استراتيجيّ بديلٍ للنفط. يمكن رؤية استعمار الذكاء الاصطناعي في شكل (خوارزميّات متطوّرة) و(حلول الذكاء الاصطناعي) للمشاكل الاجتماعيّة، التي تجعل أفريقيا تعتمد على البنية التحتيّة الغربيّة بينما يتمّ إهمال المنتجات المحليّة. من مظاهر الاستعمار الرقمي عبر استخدام الذكاء الاصطناعي القمع الخوارزمي؛ يشمل القمع الخوارزمي دمج التحيّزات المضمّنة في رموز الذكاء الاصطناعي؛ ممّا يسمح بحالاتٍ من الضرر المجتمعيّ المثبت في أنظمة الذكاء الاصطناعي التنبؤيّة. بالإضافة إلى ذلك، هناك استغلالٌ خوارزميّ عندما يستخدم الجهات الفاعلة الأجنبيّة القويّة أدواتٍ خوارزميّةً للاستفادة من ممارسة السيطرة، واستخراج القيمة، والحفاظ على الهيمنة على شعبٍ أو منطقةٍ أو مجتمعٍ أقلّ قوةٍ من خلال وسائل غير عادلةٍ أو غير أخلاقيّةٍ لتحقيق فائدةٍ غير متكافئةٍ للجهات الفاعلة في الفضاء الرقمي، ويتجلّى هذا بوضوح في المدن الأفريقيّة التي تضمّ منصّاتٍ لتأجير السيارات مثل أوبر. فرغم أنّ الخوارزميّات تُحدّد السعر وتوزيع السائقين، فإنّ ذلك قد يؤدّي إلى تفاوتٍ في الأسعار واستغلال السائقين، حيث يتقاضى السائقون أجورًا أقلّ في بعض المناطق بسببٍ قرارات التسعيرة الخوارزميّة[1].

تعكس العقبات الموصوفة حتى الآن الطابع الاستعماري للعرق والجنس، إذ لا تزال آثار الاستعمار على السود رجالاً ونساءً مستمرةً حتى اليوم. إذا كان الاستعمار يعُيد إنتاج هرميات العرق والجنس، فمن المتوقّع أن يُكرّر أيضًا الاستغلال الخوارزمي على عدّة مستويات. يتجلى الاستعمار في فضاء الذكاء الاصطناعي من خلال مظهرين رئيسيين: القمع الخوارزمي والتحيز الخوارزمي. يتمثل الأول في توظيف الخوارزميات لمنح امتيازات فئوية لمجموعات معينة على حساب أخرى، مما يكرس الهيمنة، بينما يبرز الثاني عبر استخدام مجموعات بيانات غير تمثيلية تفتقر للتنوع، مما يفضي بالضرورة إلى مخرجات تمييزية. وعلى الرغم من أن معظم الشواهد التي تربط القمع الخوارزمي بالعنصرية الاستعمارية قد استندت إلى دراسات من أمريكا الشمالية، إلا أن الأدبيات الأفريقية بدأت مؤخراً في رصد وتوثيق نماذج عديدة تؤكد هذا الارتباط في السياق المحلي[2].

٥. يتجلّى الاستعمار الرقميّ أيضًا في أبعادٍ ثقافيّةٍ ومعرفيّة، معزّزًا السرديّات الغربيّة ومهمّشًا أنظمة المعرفة البديلة. هيمنة اللغة الإنجليزيّة في التواصل الرقميّ، وتفضيلها يجعل المحتوى المُنتَج غربيًّا بوساطة خوارزميّات محرّكات البحث، وتوسّع رأسماليّة المراقبة، يؤثّر بنحوٍ غير

1. Salami, Aishat Oyenike. (2024). P. 3.

2. Susan Brokensha, Eduan Kotzé, Burgert A. Senekal. (2023). P. 17.

متناسبٍ مع مجتمعات الجنوب العالمي؛ ممّا يُعرقل وصولها إلى المعلومات وقدرتها على المشاركة في الفضاءات الرقميّة على قدم المساواة مع غيرها. تُفاقم الحوكمة الخوارزميّة هذه التفاوتات؛ إذ غالبًا ما تُكرّرسياسات تعديل المحتوى، وأنظمة التعرّف على الوجه، وعمليات صنع القرار التي تعتمد على الذكاء الاصطناعي، التحيّزات العنصريّة والجنسانيّة والجيوسياسيّة. كما يُثير الاعتماد المتزايد على الذكاء الاصطناعي في الحوكمة والشرطة والتوظيف مخاوف بشأن الإقصاء الرقميّ، حيث تواجه المجتمعات ذات الوصول التكنولوجي المحدود أو الثقافة الرقميّة حواجز منهجيّةً أمام المشاركة الكاملة في الاقتصاد الرقميّ. تؤكّد هذه الديناميكيّات كيف أنّ الاستعمار الرقميّ لا يقتصر على الاستخراج الاقتصاديّ فحسب، بل يتعلّق أيضًا بالهيمنة المعرفيّة، التي تُشكّل معرفةً من تضخّم أو تقمع معرفته وتاريخه وتعبيراته الثقافيّة في الفضاءات الرقميّة[1].

٦. **الذكاء الاصطناعي الأخلاقي وصنع السياسات:** هناك موقعٌ مهمٌ آخر للاستعمار يتعلّق بالهيمنة المستمرة التي تمارسها الدول المتقدّمة على السياسات التنظيميّة التي تحكم الذكاء الاصطناعي: حتى البحث السريع عبر الإنترنت عن سياسات أو استراتيجيات الذكاء الاصطناعي يشير إلى أنّ معظمها قد نشأ في الشمال العالمي؛ ممّا أدى إلى استبعاد الدول النامية من إضافة أصواتها إلى ما يجب أن يشمله الذكاء الاصطناعي الأخلاقي. تشير مراجعةٌ منهجيّةٌ لإرشادات أخلاقيّات الذكاء الاصطناعي إلى أنّ دول الجنوب العالمي مثل إفريقيا وأمريكا الجنوبيّة وأمريكا الوسطى قد تم استبعادها من النقاش، ممّا يترجم إلى رفضٍ صريحٍ لأنظمة المعرفة الأصليّة وقيمها[2].

من مظاهر الاستعمار الرقمي أيضًا تصوير الذكاء الاصطناعي على أنّه أبيض؛ حتى البحث السطحي على الإنترنت عن كيفيّة تأطير الذكاء الاصطناعي في وسائل الإعلام، وفي الثقافة الشعبيّة، وفي صناعة التكنولوجيا يكشف عن ميلٍ لتصوير هذه التكنولوجيا على أنّها بيضاء، ويؤكّد ذلك عددٌ من الباحثين الذين تتراوح اهتماماتهم البحثيّة بين الأخلاق التطبيقيّة وعلوم الهندسة. وبالاستناد إلى العرق النقدي، في إطار نظريّة الذكاء، التي تُلقي الضوء على العنصريّة الخفيّة، يُنظر إلى أنّ تصنيف الذكاء الاصطناعي على أنّه أبيض قد يُعزى جزئيًّا إلى الإطار العرقي الأبيض الذي ينسب الذكاء والقوة والاحترافيّة إلى الثقافة البيضاء. وعلى الرغم من دحض الاعتقاد بأنّ العرق والذكاء مرتبطان، فإنّ العنصريّة العلميّة (علم العرق) لم تختفِ تمامًا.

1. Yılmaz, Ö. (2025). The Origins of Digital Colonialism. P. 323.

2. Susan Brokensha, Eduan Kotzé, Burgert A. Senekal. (2023). P. 21.

ونظرًا للمفهوم العنصري المستمر للتسلسل الهرمي للذكاء، فليس من المستغرب أن يصوّر الذكاء الاصطناعي أبيض اللون. بالإضافة إلى إظهاره مشكلة عرقيّة، فإنّ الذكاء الاصطناعي، كغيره من التقنيات، له بُعد جندريّ، ينبغي النظر إليه من منظور (تعظيم الذكاء) خلال الحقبة الاستعماريّة، لارتباطه بالنساء وإرث ما بعد الاستعمار الذي لا يزال، للأسف، يؤثّر على تقدّمهن في التقنيات الناشئة مثل الذكاء الاصطناعي. وكما ذكُر سابقًا، كانت إحدى خرافات الحقبة الاستعماريّة التي روّج لها مستعمرو الدول الأفريقيّة هي أنّ الرجال البيض كانوا متفوّقين عقليًّا على الرجال السود، وأنّ هذه الفكرة الجندريّة عن التسلسل الهرمي للذكاء امتدّت إلى النساء أيضًا، حيث تم التعامل معهن كأطفال، ونفي قدراتهن الفكريّة. إنّ الفكرة النمطية السائدة في جميع أنحاء أفريقيا، القائلة بأنّ النساء لا يمكنهن النجاح في تخصّصات العلوم والتكنولوجيا الهندسة والرياضيات (STEM) أو في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، تعني أنّ الاستبعاد الرقميّ (ICTs) القائم على النوع الاجتماعي ما يزال متفشيًّا[1].

يتجلّى الاستعمار الرقميّ بأشكال متعددة في جميع أنحاء القارّة، ومن العوامل التي تُسهم في ظهوره في أفريقيا. أولاً: النقص في البنية التحتيّة الرقميّة الكافية في القارّة. ثانيًا: النقص في الأطر التنظيميّة الشاملة والمحدثة للقطاع الرقميّ في العديد من الدول الأفريقيّة[2].

٧. **استغلال البيانات والتنمية المستقبليّة لأفريقيا:** تؤدّي شركات التكنولوجيا المتعدّدة الجنسيات، التي غالبًا ما يُطلق عليها اسم Big Techدورًا مهمًّا في المشهد الرقميّ في إفريقيا، حيث تشارك في مختلف جوانب التكنولوجيا، بما في ذلك خدمات الإنترنت والحوسبة السحابيّة، والمنصّات الرقميّة. ولتأثيرها تداعياتٌ عديدةٌ على القارّة. استثمرت شركات التكنولوجيا الكبرى في توسيع نطاق الوصول إلى الإنترنت في أفريقيا، ممّا أسهم في تحسين الاتّصال في المناطق المحرومة. ومع ذلك، فإنّ مشاركتها تعني أيضًا امتلاكها نفوذًا كبيرًا على الوصول الرقميّ والبنية التحتيّة. فمن خلال تقنية تتبع السلوك عبر الإنترنت، يمكن بسهولة مراقبة أنشطة مستخدمي الويب والتطبيقات على الإنترنت، ومن خلال بياناتهم على منصّات متعدّدة، يمكن إنشاء ملف تعريف رقميّ لإنتاج محتوى مخصّص لكلّ مستخدم وبالتالي، يمكن القول إنّ شركات التكنولوجيا الكبرى قادرةٌ على بناء الهيمنة على الوظائف الحيويّة في النظام البيئي التكنولوجي؛ من خلال المراقبة في شكل بيانات ضخمة، وممارسة السيطرة على تدفّق المعلومات (مثل توزيع الأخبار وخدمات البث)، والأنشطة الاجتماعيّة (مثل الشبكات الاجتماعيّة والتبادل الثقافي)،

1. Ibid. P. 14.

2. Salami, Aishat Oyenike. (2024). P. 4.

ومجموعة كبيرة من الوظائف السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة الأخرى التي تتوسّطها تقنياتها[1].

علاوةً على ذلك، تؤثّر هيمنة منصّات التكنولوجيا الكبرى على تبنّي التكنولوجيا وسلوك المستهلك في القارّة. تدفع هذه الهيمنة الشركات والأفراد الأفارقة إلى الاعتماد بنحوٍ كبيرٍ على المنصّات المملوكة لأجانب؛ ممّا يعُيق الابتكار وريادة الأعمال المحليّة. وبهذه الطريقة، تتمكّن شركات التكنولوجيا من استخراج بيانات المستخدمين من مصادر مختلفة. على سبيل المثال، تستطيع جوجل، من خلال أدواتها المتعدّدة، مثل بحث جوجل وخرائط جوجل وخدمات الموقع وبريد جوجل، جمع البيانات من المستخدمين في جميع أنحاء العالم، بينما تعجز المناطق الأفريقيّة وغيرها من المناطق النامية عن تطوير منتجاتٍ تنُافس هذه الشركات الأجنبيّة. باختصار، يعد دور شركات التكنولوجيا الكبرى في المشهد الرقمي الأفريقي بالغ الأهميّة ومتعدّد الجوانب. ورغم مساهمتها في تحسين الاتّصال والوصول، فإنّ تأثيرها على البيانات والخصوصيّة وتبنّي التكنولوجيا يثير تساؤلاتٍ مهمّةً حول السيادة الرقميّة والحاجة إلى هيأةٍ أفريقيّةٍ لصياغة مستقبل القارّة الرقمي[2].

وماذا عن الصور؟ ما علاقة الصور بكلّ هذا اليوم؟ صورة سيلفي على إنستغرام، صورة العيد على واتساب، نتائج بحث صور جوجل؟ أوّلًا وقبل كلّ شيء، فإنّ أيّ صورةٍ تُنشر على الإنترنت تنطوي على استعمار البيانات، الذي يتضمّن اقتصاد استنزاف الأموال من تجارة بيانات الصور، مع حرمان مالك هذه البيانات من أيّ إمكانيّة للسيطرة على العمليّة. في ظلال استعمار التاريخي، كانت أراضي الشعوب وأجسادهم هي التي تنُهب - والآن، في سياق الثقافة الرقميّة، أصبحت البيانات أيضًا كمادة خام يتم استخراجها واستغلالها[3]. بالنسبة لشركات التكنولوجيا، يُعدّ كنز بيانات المواطنين الموجود في أفريقيا موردًا طبيعيًّا. قد تُستخرج هذه البيانات وتُباع كسلعة للشركات، والمصالح السياسيّة التي تبني نموذج إيراداتها على معرفة فئاتها المستهدفة؛ مما يُمكّنها من ترويج رسائلها وأجنداتها السياسيّة أو بيع منتجاتٍ مستهدفة للمواطنين، ممّا يُعزّز أرباحها. جوهر هذا النموذج التجاري راسخٌ بالفعل في الغرب. تُقدّم شركات التكنولوجيا خدمات اتّصالاتٍ ومحركات بحثٍ تبدو مجانيّة، لكنّها تتابع المستخدمين عبر المنّصات والتطبيقات والإنترنت، لتمكين المُعلنين من استهداف المستهلكين والناخبين بإعلاناتٍ مخُصّصةٍ للغاية بناءً على أنماط سلوكيّة، مُحقّقةً بذلك أرباحًا طائلة. ومع ذلك، عندما تُتّبع هذه الاستراتيجيّة التجاريّة في دولٍ ذات بنيةٍ تحتيّةٍ محدودة،

1. Ibid. P. 5.

2. Ibid.

3. Köppert, Katrin. (2021). P. 2.

وقوانين حماية بياناتٍ محدودة، ومنافسة محدودة - مع أنّها متُجذرّةٌ في مفاهيم نيوليبراليّة لحقوق الإنسان - فإنّها تتحوّل من نموذجٍ تجاريّ إلى شكلٍ من أشكال الاستعمار الرقمي[١].

رابعًا: الهيمنة الأمريكيّة الرقميّة

يُمثّل الاستعمار الرقميّ مرحلةً جديدةً من الهيمنة العالميّة، تحُافظ الشركات متعدّدة الجنسيّات التي تتخذ من الشمال العالمي مقرًّا لها، وخاصّةً في الولايات المتّحدة، على سيطرة غير متناسبةٍ على الاقتصاد الرقميّ، مشكّلةً بذلك كيفيّة إنتاج المعلومات ونشرها وتحقيق الربح منها في جميع أنحاء العالم. يُمكّن هذا التركيز في سلطة هذه الشركات من استخراج كميّاتٍ هائلةٍ من البيانات من المستخدمين في الجنوب العالمي؛ ممّا يوُلدّ قيمة اقتصاديّة دون إعادة توزيعٍ عادلة. ونتيجةً لذلك، يُديم الاستعمار الرقميّ التبعيات، ويحدّ من قدرة الدول الأقلّ تقدّمًا من الناحية التكنولوجيّة على إنشاء اقتصاداتٍ رقميّةٍ مستقلّة، أو حماية سيادتها على البيانات، أو التنافس على قدم المساواة في المشهد الرقميّ العالميّ[٢].

تُحدث الأنظمة الرقميّة ثورةً في العديد من القطاعات الاجتماعيّة، مثل صناعة المعلومات عبر جوجل، والتجارة عبر أمازون، والنقل الحضري عبر أوبر. معظم هذه الشبكات مملوكةٌ لشركاتٍ احتكاريّةٍ متعدّدة الجنسيّات مقرّها الولايات المتّحدة. تجمع هذه الشركات بيانات خام مجانيّة من الدول النامية، وتحوّلها إلى خبرةٍ رقميّة، تسُتخدم بعد ذلك لإعادة تنظيم جميع الصناعات والهيمنة عليها. إلى جانب ترسيخ استراتيجيّة الاستغلال الاقتصادي للدول النامية، فإنّ هذا النوع الجديد من الاعتماد الرقميّ له آثارٌ سياسيّةٌ واجتماعيّةٌ وثقافيّةٌ كارثيّة. لا تزال الدول النامية على هامش عمليّات الحوكمة الرقميّة، دون هدفٍ أو خططٍ جماعيّة. في الواقع، يواصل العالم المتقدّم تحديد معايير المجتمع الرقمي العالمي ومبادئ سياساته بناءً على أولوياته ومنظوره الاستراتيجي. إذا استمرت الاتجاهات الحالية، فستُجبر الدول النامية على الاعتماد بشكلٍ كبيرٍ على التكنولوجيا الرقميّة[٣].

في ظلّ الاستعمار الرقمي، تنُشئ القوى الأجنبيّة، بقيادة الولايات المتّحدة، بنيةً تحتيّةً في دول الجنوب العالمي مصُممةً خصيصًا لتلبية احتياجاتها؛ ممّا يُمكّنها من الهيمنة الاقتصاديّة والثقافيّة

1. Coleman, Danielle. (2019). P. 428.

2. Yılmaz, Ö. (2025). P. 322.

3. Dahiya, Bhavna. (2023). Digital Colonialism: Neo-Colonialism of the Global South. P. 3. https://www.researchgate.net/publication/370938813

مع فرض أشكال حوكمةٍ مخُصخصة. ولتحقيق هذه المهمّة، تصمم الشركات الكبرى التكنولوجيا الرقميّة لضمان هيمنتها على الوظائف الحيوية في النظام البيئي التكنولوجي[1].

وادي السيليكون: الأداة التقنية للهيمنة والقوة الناعمة» تجسد عمالقة التكنولوجيا الأمريكية، مثل Google وMeta وAmazon، نمطاً حديثاً من القوة الناعمة التي تتجاوز السيادة الوطنية؛ فهي لا تكتفي بالسيطرة على البنى التحتية الرقمية العالمية، بل تحتكر المنصات التي تعيد صياغة السلوك الاجتماعي والاقتصادي في أفريقيا. وما يعمق هذا النفوذ هو «التواطؤ المؤسسي» بين الشركات والدولة؛ إذ كشفت تسريبات (سنودن) عن تنسيق وثيق بين وكالات الأمن الأمريكية وهذه الشركات، مما يحولها من كيانات اقتصادية إلى أدوات استخباراتية ورقابية عابرة للحدود، تمارس أدواراً سياسية تخدم الأجندات الدولية.

لم يقتصر الانتشار المتسارع لشركات التكنولوجيا في الأسواق الناشئة على عروض الاتصال والبنية التحتية السخيّة المقدّمة للسكّان فحسب، بل وفرّت شركات التكنولوجيا العملاقة أيضًا بنيةً تحتيّةً رقميّةً لعشرات الحكومات، بدءًا من الخدمات السحابيّة ووصولاً إلى حزم البريد الإلكتروني والمكاتب المتكاملة. قد قادت أمازون ومايكروسوفت هذه العمليّة، وتبعتهما فيسبوك وجوجل بفارقٍ ضئيل. إنّ قيام دولة بأكملها بتفويض خدماتها الرقميّة لشركةٍ أجنبيّةٍ أمرٌ مثيرٌ للقلق. إذ لا يقتصر دور الشركة على التعامل مع وثائق حكوميّةٍ بالغة الحساسيّة فحسب، بل تمتلك أيضًا معلوماتٍ بالغة الأهميّة تتعلّق بالدولة بأكملها[2]. وهو ما يشكّل خطرًا على الأمن القومي للدول الإفريقيّة بصفةٍ خاصّةٍ والدول الخاضعة للهيمنة التكنولوجيّة الغربيّة في الجنوب لعالمي بصفةٍ عامّة، حيث تصبح جميع المصالح والبيانات الحكوميّة تحت سيطرة الدول المهيمنة تكنولوجيًّا.

خامسًا: النموذج الرقميّ الصينيّ

يعتمد نهج الصين في الاستعمار الرقميّ على آليةٍ موازيةٍ ومتميزة، مستغلّةً التوسّع التكنولوجي المدعوم من الدولة لترسيخ نفوذها في دول إفريقيا. وخلافًا لهيمنة الشركات الأمريكيّة القائمة بشكلٍ استراتيجيّ مشاريع البنية التحتيّة (DSR) على السوق، تدمج مبادرة طريق الحرير الرقميّ الصينيّة الرقميّة التي ترعاها الدولة، بطموحاتٍ جيوسياسيّةٍ أوسع. من خلال تصدير شبكات الاتصالات، والحوسبة السحابيّة، وتكنولوجيا المراقبة، ونماذج الحوكمة القائمة على الذكاء

1. Coleman, Danielle. (2019). P. 423.

2. Avila, Renata. (2020). Against Digital Colonialism. Platforming Equality. P. 3.

الاصطناعيّ، تُرسي الصين اعتمادياتٍ طويلة الأمد على نظامها البيئيّ الرقميّ؛ ممّا يشُكل ليس فقط المشهد التكنولوجيّ، بل أيضًا الأطر التنظيميّة في الدول المضيفة. تحت راية السيادة السيبرانيّة، تُروّج بكين لرؤية للإنترنت تُعطي الأولويّة لسيطرة الدولة على المساحات الرقميّة، متُحديةً النموذج المفتوح واللامركزي الذي طالما دافع عنه الغرب. يلزم قانون الأمن السيبراني لعام ٢٠١٦ شركات التكنولوجيا الصينيّة بمشاركة البيانات مع الدولة؛ ممّا يُثير المخاوف بشأن جمع المعلومات الاستخباراتيّة السريّة والتأثير السيبراني الاستراتيجي يبُرز هذا النظام الرقمي المتطوّر كيف أنّ أشكال الاستعمار المعاصرة لم تعد تعتمد على الاحتلال الإقليميّ، بل على احتكار تدفّقات البيانات، والحوكمة الخوارزميّة، والسيطرة على البنى التحتيّة؛ ممّا يدُيم التفاوتات العالميّة من خلال بنية القوة الرقميّة[1].

الدولة كمحرك للتحول الرقمي: بعكس النموذج الأمريكيّ القائم على السوق الحرّة، يرتكز النموذج الصينيّ على تدخّل الدولة المباشر في دعم شركات التكنولوجيا مثل Huawei وAlibaba وغيرهم، بما يخدم رؤيةً سياسيّةً وأمنيّة.

الرقابة والضبط الاجتماعي: تمثّل التجربة الصينيّة في الرقابة الرقميّة نموذجًا متكاملاً للضبط السلوكي، عبر نظم التصنيف الاجتماعيّ، والكاميرات الذكيّة، والتحكّم الكامل في تدفّق المعلومات.

طريق الحرير الرقمي: ضمن مبادرة الحزام والطريق، تروّج الصين لبنيتها التحتية الرقميّة في إفريقيا وآسيا، ما يمكنها من بناء مناطق نفوذٍ رقميّ خاضعةٍ لنموذجها السلطويّ.

تنافس استراتيجي مع الغرب: يشكّل التمدّد الصيني الرقميّ تحدّيًا للنموذج الأمريكي، ما يحوّل الجنوب العالمي إلى ساحة مواجهةٍ رقميّةٍ بين قوّتين، كلّ منهما تحمل أجندةً وهيمنةً مختلفةً في الشكل، متشابهة في المضمون.

الاختراق التكنولوجيّ الصينيّ في أفريقيا من شأنه أن يثير شبح (الاستعمار الرقمي الجديد) - تطبيق الصين للضغط الاقتصاديّ والسياسيّ من خلال التكنولوجيا من أجل السيطرة والتأثير على تصرّفات الدول الأفريقيّة. يتّخذ الاستعمار الرقميّ الصينيّ الجديد في أفريقيا شكل ثلاثة عناصر رئيسة، وهي: **أولًا**، الترويج للنموذج الصيني المتمثّل في (سيادة الإنترنت) في الدول الأفريقيّة؛ **ثانيًا**، تصدير تكنولوجيا المراقبة الاستبداديّة. إلى الدول الأفريقيّة. **ثالثًا**، نشر تكنولوجيا الذكاء

1. Yılmaz, Ö. (2025). P. 327.

الاصطناعي وتقنيات استخراج البيانات في جميع أنحاء أفريقيا[١].

لقد نجحت الصين في تقويض التصوّر السائد بأنّ التكنولوجيا سوف تلعب دور القوّة الديمقراطيّة العظيمة؛ ممّا يؤدي إلى زيادة الحريّة والشفافيّة والمشاركة. في الصين تجلب التكنولوجيا المراقبة والتحكّم. طُرحت عبارة (سيادة الإنترنت) لأوّل مرةٍ في النقاش العام في يونيو ٢٠١٠، عندما نشرت الصين ورقةً بيضاء أكّدت فيها على أولوية حقّها في إدارة الإنترنت داخل حدودها وإبقائه تحت سيطرة صارمة. وجاء في هذه الورقة البيضاء أنّ «الإنترنت، داخل الأراضي الصينيّة، يخضع لسلطة السيادة الصينيّة. وينبغي احترام وحماية سيادة الصين على الإنترنت». وجاء في القرار: «إنّ القوانين والأنظمة تحظر بوضوح نشر المعلومات التي تحتوي على محتوى من شأنه تقويض سلطة الدولة، أو تقويض الوحدة الوطنيّة أو انتهاك الشرف والمصالح الوطنيّة».

لقد نجحت الدولة الصينيّة في بناء نسخةٍ وطنيّةٍ من الإنترنت معزولة عن الإنترنت العالمي، تتمتع الدولة بالسيطرة الكاملة عليها[٢].

التكنولوجيا الصينيّة في أفريقيا

تقوم الصين بدورٍ كبيرٍ في الأوضاع في أفريقيا حيث تقوم الشركات الصينيّة بالتجارة والاستثمار في البلدان الأفريقيّة. تتهم بعض التعليقات المساعدات الصينيّة بالمساعدة في دعم الحكومات الشموليّة، وبناء البنية الأساسيّة ذات الجودة الرديئة، وتوظيف العمّال الذين يتم جلبهم من الصين، والتركيز على إحسانها بشكلٍ أساس على البلدان التي تمتلك النفط والمعادن والموارد الطبيعيّة الأخرى[٣].

لقد نما الوجود الصيني في أفريقيا بشكلٍ مطرّدٍ على مدى فترة عشرين عامًا. أصبحت الصين أكبر مصدرٍ لتمويل مشاريع البنية التحتيّة في أفريقيا. وفي كلّ مكانٍ تظهر الأدلة على تأثيرها، حيث تحتضن الحكومات الأفريقيّة عرض الخبرة الصينيّة والقروض الميسرة. ترعى الصين آلافًا من الجيل القادم من القادة والبيروقراطيين والطلّاب ورجال الأعمال الأفارقة للخضوع للتدريب والتعليم في الصين. إنّ الدعم المالي الذي تقدّمه الصين لطلّاب الدراسات العليا الأفارقة لا مثيل

1. Gravett, Willem. (2020). Digital neo-colonialism: The Chinese model of internet sovereignty in Africa. African Human Rights Law Journal 125-146. P. 127. http://dx.doi.org/10.17159/1996-2096/2020/v20n1a5

2. Gravett, Willem. (2020). P. 128.

3. Ibid. P. 135.

له؛ وتستضيف الصين كلّ عام عشرات الآلاف من طلّاب الجامعات والمدارس العليا من أفريقيا، وتقدّم الحكومة الصينيّة سنويًّا آلاف المنح الدراسيّة للطلّاب الأفارقة[1].

لقد قامت شركة هواوي، عملاق الاتصالات الصيني، ببناء من شبكة الجيل الرابع ومعظم شبكات الجيل الثاني والثالث في القارّة، متفوقةً بسهولةٍ على منافسيها الأوروبيين. وعيّنت الحكومة الكينيّة شركة هواوي مستشارًا رئيسًا لخطّتها الرئيسة فيما يتعلّق بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات. توفّر شركة الاتّصالات الصينية ZTE للحكومة الإثيوبيّة البنية الأساسيّة التي تمكّنها من مراقبة وممارسة الرقابة على اتّصالات نشطاء المعارضة والصحفيين. المفهوم الصيني لسيادة الإنترنت يُقدّم، على نحوٍ غير مسُتغربٍ، آفاقًا مغريةً للعديد من الحكومات، بما في ذلك في أفريقيا، التي تسعى إلى مكافحة الآثار المحتملة المزعزعة للاستقرار لإنترنت حر، وإلى قمع حريّة التعبير بدلاً من تبنيّ مفهوم إنترنت يلغي الحدود. وتُطبّق هذه الدول الأفريقيّة على نحوٍ متُزايدٍ قواعد وتضع عوائق تعُيق عملها باسم السيادة الوطنيّة، ولكن بهدف السماح للحكومات بتفتيش بيانات مواطنيها والتحكّم فيها كما تشاء[2].

بدأت بعض الحكومات الأفريقيّة بفرض ضرائب على وسائل التواصل الاجتماعيّ لقمع حريّة التعبير. في عام ٢٠١٨، أعلنت حكومات أوغندا وزامبيا وبنين، عن فرض ضرائب جديدةٍ على مستخدمي الإنترنت عبر الهاتف المحمول، ممّا ترك ملايين الأفارقة يكافحون لتغطية تكاليف الاتصال بالإنترنت. وفي أوغندا فرضت الحكومة ضريبةً يوميّةً على استخدام منصّات التواصل الاجتماعيّ مثل فيسبوك وتويتر وواتساب من أجل الحدّ ممّا وصفته بالثرثرة الفارغة[3].

طوّرت شركة الذكاء الاصطناعي الصينيّة Percent Corporation نظامًا ذكيًّا لتصوّر المعلومات وتحليل البيانات لمساعدة حكومة أنغولا في عملية صنع القرار. يقوم هذا النظام بتسجيل البيانات بشكلٍ دقيقٍ وديناميكيّ حول دورة الحياة الكاملة من الميلاد والتعليم والزواج والضمان الاجتماعي لكلّ شخصٍ، بالإضافة إلى المعلومات البيومتريّة للشخص مثل بصمات الأصابع وصورة الوجه. الهدف الظاهري للنظام هو إدارة الموارد السكانيّة، لكن من الواضح أنّ لديها إمكاناتٍ كبيرة من حيث المراقبة وأدوات القمع. وفي العديد من البلدان، وفي ضوء تكاليف تطوير أو الحصول على هذه التقنيات، يُعدّ العرض الصيني مغريًا؛ ولهذا السبب، وبفضل إغراءات القروض السهلة

1. Ibid. P. 136.

2. Ibid. P. 137, 138.

3. Gravett, Willem. (2020). P. 141.

والاستثمارات، أصبحت العديد من البلدان الأفريقيّة تعتمد بشكل شبه كاملٍ على الصين في توفير التكنولوجيا والخدمات. وهم عرضة للضغوط للقبول بالمفهوم الصيني (سيادة الإنترنت). يكمن الخطر الجسيم في أنّه نتيجة لهشاشة الديمقراطيّة في هذه الدول وتاريخها المتواضع في الدفاع عن حقوق الإنسان، فإنّها منفتحةٌ على دروسٍ تتجاوز مجرد الدروس الاقتصادي[1].

خلاصة التكنولوجيا الصينيّة في إفريقيا أنّ الصين تؤدّي دورًا نشطًا في إعادة صياغة النقاش العالمي حول الأمن والحرية والانفتاح من خلال الدعوة إلى نموذجها الخاصّ بسيادة الإنترنت. إنّ التوسّع السريع للتكنولوجيا الصينيّة في مختلف أنحاء أفريقيا يبرر اليقظة من جانب الديمقراطيين. وتسهم أنشطة الصين في خلق إطارٍ يتيح لعددٍ متزايدٍ من البلدان الأفريقيّة اتّباع نموذج حوكمة التكنولوجيا الصيني. ويثير هذا التطوّر احتمال أن يصبح الموقف الصيني تجاه سلطة الدولة هو النموذج السائد الذي ينبغي اتّباعه في تنفيذ الأمن والمراقبة في أفريقيا. والحقيقة الجيوسياسيّة هي أنّه مع وجود مثل هذه الأجزاء الكبيرة من البنية التحتيّة للاتّصالات في القارّة تحت السيطرة الصينيّة، فسوف تجد الدول الأفريقيّة صعوبةً في فصل نفسها عن الصين، إذا فشلت الحكومات الأفريقيّة في تعزيز القيم والمصالح بما يتّفق مع رغبات شعوبها، بما في ذلك حريّة التعبير والمبادرة الحرّة وسيادة القانون، والجرأة نفسها التي تتمتع بها الدول الأخرى.

سادسًا: الجنوب الإفريقي بوصفه ساحة صراعٍ رقميّ

يبدو أنّ مستقبل الاستعمار الرقمي مرتبطٌ بنحوٍ متزايدٍ بالصراع العالمي بين الولايات المتّحدة والصين، وكما جادل جوان أورتيز فرويلر Juan Ortiz Freuler «يبدو أنّ كلّ شيءٍ يشير إلى أنّنا ندخل في حربٍ باردةٍ رقميّة. إذا كان الأمر كذلك، فقد حان الوقت لأن تبدأ الدول الطرفيّة بتشكيل حركةٍ رقميّةٍ غير منحازة. يمكن لهذه الحركة أن تعمل كحاجزٍ بين جمهوريّة الصين الشعبيّة والولايات المتّحدة، سعيًا لحماية قيمة الإنترنت المفتوح، ومساعدتنا على تكييفه ليصبح أداةً لتبادل المعرفة التي يتطلّبها عصرنا، وتوفير الغطاء اللازم بحيث لا تشعر أيّ دولةٍ بأنّها مجُبرةٌ على الانضمام إلى شبكةٍ داخليّةٍ لا تخدم مصالح شعبها»[2].

الأثر على السيادة الوطنيّة؛ تتآكل السيادة الرقميّة في ظلّ استيراد التكنولوجيا دون قدرةٍ على تطويرها محليًّا، وتتحوّل الحكومات إلى مستهلكةٍ لحلولٍ تفرض شروطًا سياسيّةً واقتصاديّة. إنّ

1. Ibid. P. 142.

2. Avila, Renata. (2020). Against Digital Colonialism. P. 11.

آثار استغلال البيانات على مستقبل تنمية الاقتصادات الأفريقيّة متعدّدة الجوانب. ويتمحور أحد المخاوف الرئيسة حول القيمة الاقتصاديّة الناتجة عن بيانات المستخدمين. إذ تستخدم شركات مثل (فيسبوك وجوجل) هذه البيانات وسيلةً لبيع حقّ الوصول للأفراد لشركاتٍ خارجيّةٍ، ومع قيام الكيانات الخارجيّة باستثمار هذه البيانات، فإنّ الأرباح تتدفق في كثيرٍ من الأحيان إلى خارج أفريقيا، ممّا يسهم في انتقال الثروة الرقميّة الذي يؤدّي إلى تفاقم الاختلالات الاقتصاديّة داخل القارّة[1].

وعلاوةً على ذلك، عندما تعتمد أفريقيا بشكلٍ كبيرٍ على شركات التكنولوجيا الدوليّة في البنية التحتيّة والخدمات الرقميّة، يصبح خطر الاعتماد الاقتصادي على هذه الجهات الخارجيّة كبيرًا، يمكن ربط القرارات التي تؤثّر في المجتمعات المحليّة بمصالح جهاتٍ أجنبيّة، ممّا قد يؤثّر على المصير الاقتصادي للدول الأفريقيّة ويتلاعب به. يمكن أن يعُيق استغلال البيانات الابتكار وريادة الأعمال المحليّة. فعندما تُهيمن الكيانات الأجنبيّة على الأسواق الرقميّة وتجمع بياناتٍ واسعة، تواجه الشركات المحليّة عوائق في الدخول والمنافسة. كما تُعيق محدوديّة الفرص نمو شركات التكنولوجيا المحليّة، إذ تمتلك الجهات الأجنبيّة موارد وخبرات وشبكات يصعب منافستها. وقد تُؤدّي هذه الهيمنة إلى تفاوتٍ في الفرص، ويُعيق تطوير منظومةٍ تكنولوجيّةٍ نابضة بالحياة. باختصار، تشمل تداعيات استغلال البيانات على التنمية المستقبليّة لأفريقيا اختلالات اقتصادية، واعتمادًا محتملاً على جهاتٍ خارجيّة، وخنقًا للابتكار المحلّي، وتحدّيات للسيادة الوطنيّة. تبرز هذه العواقب المتعدّدة الجوانب الحاجة إلى نهجٍ شاملٍ واستراتيجي للتعامل مع المشهد الرقمي المتطوّر في أفريقيا[2].

سابعًا: خطورة الاستعمار الرقميّ في الجنوب الإفريقي

في حين أنّ المساعي الرقميّة مفيدةٌ للمجتمع بشكلٍ واضح، إلّا أنّ لها جانبًا مظلمًا في إفريقيا. وفي هذا الصدد، فإنّ أحد أكثر أشكال التكنولوجيا غدرًا هي التقنيات المدعومة بالذكاء الاصطناعي التي يتم استخدمها بثباتٍ من قبل الديكتاتوريات الرقميّة، والتي تصف الحكومات بتتبع حريّات مواطنيها والتحكّم فيها وتقويضها. هناك إشارةٌ إلى أنّ دول مثل جنوب إفريقيا مثل أنغولا وزيمبابوي، تُستخدم التكنولوجيا الصينيّة مثل تلك التي تنتجها Cloud Walk لمراقبة المعارضين السياسيين على نطاقٍ واسع. وفقًا لمسحٍ عالميّ أُجري عام ٢٠٢٠ حول التلاعب بوسائل التواصل الاجتماعي،

1. Salami, Aishat Oyenike. (2024). P. 5.

2. Ibid. P. 6.

تلجأ ٨١ دولةً على الأقل إلى نوعٍ محدّدٍ من أنشطة التصيّد الإلكتروني، يُسمّى (الجنود السيبرانيّة)، ١٣ منها دول أفريقيّة تُعرّف هذه القوات بأنّها «جهاتٌ حكوميّةٌ أو حزبيّةٌ سياسيّةٌ مكلّفةٌ بالتلاعب بالرأي العام عبر الإنترنت»، وتعمل عبر منصّات التواصل الاجتماعيّ مثل فيسبوك وتويتر[١].

أيضًا هناك انتهاك لقوانين البيانات بسبب الفوائد التي تفوق العقوبات؛ فإنّ وجود لوائح تنظيميّة واسعة النطاق لحماية خصوصيّة البيانات لا يضمن تمامًا التزام الشركات الرقميّة بها إذا كانت فائدة الاختراق تفوق تكلفة العقوبة. تُعدّ أوبر مثالاً على هذا الادّعاء، إذ انتهكت العديد من القواعد في دول مختلفة، واستمرّت في العمل لأنّ تكلفة غرامات إدارة الأعمال أقلّ من فوائدها. تنتشر انتهاكات أوبر القانونيّة عالميًّا، كما يتّضح في قضيّة عام ٢٠١٦ عندما أدانت محكمةٌ فرنسيّةٌ أوبر لمخالفتها قواعد النقل والحماية الفرنسيّة. وجدت جوجل نفسها في موقفٍ مماثلٍ عندما خطّطت خدمة جوجل بوكس ــ وهي خدمة توزيع كتب إلكترونيّة تديرها جوجل ــ لمسح عددٍ كبيرٍ من الكتب وتحويلها إلى صيغةٍ رقميّة، متجاهلةً قواعد حقوق النشر الخاصّة بها. ورغم غرامة قدرها ٣,٦ تريليون دولار، مضت جوجل بوكس قدمًا في المشروع. بسبب اختلال التوازن بين حماية البيانات وحريّة الإنترنت، يبدو أنّ هناك انتهاكًا غير مقيّد للقواعد وإساءة استخدام البيانات[٢].

يُنظر إلى الرأسماليّة الرقميّة في الجنوب العالمي، وتحديدًا في أفريقيا، بوصفها الشكل الجديد للاستعمار، حيث توجد مواردُ اقتصاديّةٌ هائلةٌ واستغلالٌ للحياة البشريّة ذات القيمة الاقتصاديّة، تمامًا مثل الاستعمار التاريخيّ، الذي يركّز على العمل البشريّ وضمّ أراضٍ شاسعة. حتى في القطاع الرسميّ لاقتصاد العمل المؤقّت، كما يوضّح أنور وجراهام، لا يزال العمّال الأفارقة يواجهون نقصًا في الاستقلاليّة ومساومة القوة الاقتصاديّة في كثيرٍ من النواحي. تشير هذه التناقضات، التي تتجاوز تشابهها مع الاستعمار التاريخيّ، إلى إعادة تمثيل الأساليب الاستعماريّة القديمة كأشكالٍ جديدةٍ من الاستعمار، حيث تظلّ أفريقيا نقطةً محوريّة. إنّ أفريقيا تقع في قلب التفاوت الجغرافيّ العالميّ، وبما أنّ التكنولوجيا مرتبطةٌ عكسيًّا بالثروة الماديّة، وأنّ إنتاج الثروة هو نتاجٌ ثانويّ للتكنولوجيا، فإنّ أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى تستحقّ بالتالي أكثر من مجرد اهتمامٍ سلبيّ في فهم الرأسماليّة الرقميّة العالميّة والاستعمار[٣].

1. Susan Brokensha, Eduan Kotzé, Burgert A. Senekal. (2023). P. 51.

2. Dahiya, Bhavna. (2023). P. 4.

3. Obi, Paul A. (2024). Labouring and Smiling: Re-Imagining Digital Colonialism in Africa, Silicon Valley Big Techs, and the Politics of Prosumer Capitalism in Nigeria. Triple

من أهمّ المخاوف المتعلّقة بالذكاء الاصطناعي احتماليّة فرضه لنماذج غربيّة لإدارة التراث على الثقافات الأفريقيّة. فالعديد من أنظمة الذكاء الاصطناعي مبنيةٌ على مجموعة بياناتٍ وخوارزميّاتٍ وأطرٍ تفسيريّة تعكس المُثل والممارسات الغربيّة والأولويّات التي تحرّكها قوى السوق. نتيجةً لذلك، قد تعجز هذه الأنظمة عن استيعاب الجوانب الفلسفيّة والروحيّة والجماعيّة الفريدة للتراث الأفريقي. على سبيل المثال، قد يُعاد تفسير المفاهيم الأفريقيّة التقليديّة لملكيّة الأراضي، والطقوس المجتمعيّة، والممارسات الروحيّة من منظورٍ غربيّ يعُطي الأولويّة للفردانيّة، والتسليع، والقيمة الماديّة. بهذه الطريقة، يُمكن للذكاء الاصطناعي تجريد التقاليد الأفريقيّة من معانيها العميقة، مخُتزلاً إيّاها إلى مجرد موادّ استهلاكيّةٍ أو ترفيهيّة للجمهور العالمي[1].

تكمن خطورة الاستعمار الرقميّ في الاعتماد على التكنولوجيا الأجنبيّة، اعتمادًا شبه كليٍّ على الشركات الأمريكيّة والصينيّة في البنية التحتيّة والبرمجيّات والمنصّات. فهو الاعتماد الأكثر حدّة؛ لأنّه لا يقتصر على استيراد التقنيات، بل حتى نماذج الحوكمة الرقميّة الجاهزة. ومن المخاطر أيضًا ما يشمل البيانات والسيادة الرقميّة؛ إذ تُستخرج البيانات بلا حماية قانونيّة واضحة، ممّا يخلق استعمارًا ناعمًا طويل الأمد. وإنّ تسرّب البيانات أكثر خطورةً بسبب غياب تشريعات الخصوصيّة الفعّالة، مع تغلغلٍ استخباراتيّ أجنبيّ. وتتمثّل المخاطر أيضًا في الرقابة والسيطرة؛ إذ الرقابة تأتي عادةً من الخارج أو تُفرض بنحوٍ غير مباشرٍ عبر الشروط التقنيّة؛ فتكون الرقابة مزدوجة: خارجيّة من قبل القوى الكبرى، وداخليّة من أنظمةٍ سلطويّةٍ تتحالف مع شركات تكنولوجيا. وهناك أيضًا التهديدات السيبرانيّة، إذ تتعرّض الدول لهجماتٍ إلكترونيّةٍ واستغلال البيانات لصالح الشركات الكبرى. ويهدد الاستعمار الرقميّ الهويّة والخصوصيّات الثقافية واللغويّة للدول الصغيرة. والخطر أكبر في العالم العربي، حيث تخترق المنصّات الغربيّة الوعي الجمعيّ وتعيد تشكيل الهويّة القوميّة والدينيّة.

يمكن إيجاز المخاطر في النقاط الآتية:

-المخاطر الأخلاقيّة المتمثّلة في استخدام الذكاء الاصطناعي في المراقبة الجماعيّة أو التمييز الخوارزميّ.

- الفجوة الرقميّة المتزايدة؛ فعلى الرغم من التقدّم، لا تزال العديد من المناطق الإفريقيّة تفتقر

C. 22 (1): 381-395. P. 386.

1. NDUBISI, Ejikemeuwa J. O. (2024). ARTIFICIAL INTELLIGENCE AND THE MANAGEMENT OF AFRICAN CULTURAL HERITAGE: TOWARDS ECONOMIC GROWTH AND DEVELOPMENT. Journal of African Studies and Sustainable Development Vol. 7, No. 5. P. 179.

إلى البنية التحتيّة الرقميّة، والانقطاع المتكرر للكهرباء، وضعف شبكات الإنترنت في مناطق كثيرة؛ ممّا يوسّع الفجوة بين المناطق الحضريّة والريفيّة، وبين الدول المتقدّمة والنامية داخل القارّة.

- نقص المهارات البشريّة؛ تفتقر أغلب الدول الإفريقيّة إلى الكوادر البشريّة المتخصّصة في علوم البيانات والبرمجة وتطوير تقنيّات الذكاء الاصطناعي.

- مخاوف اختراق الخصوصيّة واستخدام البيانات الشخصيّة؛ إذ ضعف الأطر القانونيّة والتنظيميّة يجعل من حماية البيانات الشخصيّة تحدّيًا كبيرًا، في ظلّ احتمال سوء استخدام التكنولوجيا لأغراضٍ غير أخلاقيّة أو قمعيّة.

- الاعتماد المفرط على التكنولوجيا المستوردة؛ إذ ما تزال معظم حلول الذكاء الاصطناعي تُستورد من الخارج، ما يعرض إفريقيا لمخاطر التبعيّة التكنولوجيّة والهيمنة الرقميّة.

- غياب الإطار السياسيّ والاستراتيجيّ الشامل؛ تفتقر معظم الدول إلى استراتيجياتٍ وطنيّةٍ واضحةٍ تنظّم استخدام الذكاء الاصطناعي، وتضمن تكامله مع أولويّات التنمية المستدامة.

ثامنًا: مواقف نقديّة ومقاومة رقميّة

١. نقد الاستعمار الرقمي: تُظهر التجربة الرقميّة أنّ التكنولوجيا ليست محايدة، بل تُصمَّم ضمن أنساقٍ أيديولوجيّة وسياسيّة، وهو ما يتطلّب تفكيك خطاب الحياد التقني الذي تروّج له الشركات الكبرى. يتناول مايكل كويت في كتابه (الاستعمار الرقميّ: الإمبراطوريّة الأمريكيّة والإمبرياليّة الجديدة في الجنوب العالميّ)، المراحل الأربع لهذا الاستعمار الرقميّ، أولها (احتكار سلطة استخراج الموارد متعدّدة الجنسيّات)، وهو شكلٌ جديدٌ من أشكال الاستعمار الرقميّ، وشكلٌ من أشكال الهيمنة الاقتصاديّة، والسيطرة على النظام البيئيّ الرقميّ، بدءًا من الكابلات التي تنقل البيانات إلى إفريقيا أو الأقمار الصناعيّة لشركات البيانات الضخمة مثل جوجل ومايكروسوفت وأبل، ورأسماليّة المراقبة وهيمنة التكنولوجيا. تسمح هذه السبل بالاستعمار، وهو وضعٌ يتفاقم مع استمراره بسبب الإقناع الأمريكي غير المباشر، وما يترتب عليه من إغراقٍ في الفضاء التكنولوجيّ، وهو وضعٌ يفرض بنحوٍ غير مباشرٍ نمط الحياة الأمريكيّ على مستهلكي الحقائق الرقميّة. وقد أدّت هذه المواقف إلى نوعٍ من يوتوبيا الإنترنت التي تتجلّى في المحتوى المنتج في معظم وسط وغرب إفريقيا تحت ستار اتّباع منشئي المحتوى الأمريكيين كما لو كانوا يقولون إنّ إفريقيا في بمستوى التطوّر الأمريكي[1].

1. Fonyuy, Banla Samuel. (2024). Oscillating between Racism, Colonialism, and Digital

يصف مايكل كويت الاستعمار الرقميّ بأنّ ظاهرةً جديدةً خبيثة، تُلقي بظلالها على الجنوب العالميّ. الاستعمار الرقميّ هو شكلٌ هيكليٌّ من أشكال الهيمنة يُمارس من خلال الملكيّة والسيطرة المركزيّة على الركائز الأساسيّة الثلاثة للنظام البيئيّ الرقميّ: البرمجيّات، والأجهزة، والاتّصال الشبكي. إنّ السيطرة على هذه الركائز تمنح الولايات المتّحدة قوةً سياسيّةً واقتصاديّةً واجتماعيّةً هائلة. وبالتالي، تعدّ شركات GAFAM جوجل/ ألفابت، أمازون، فيسبوك، آبل، ومايكروسوفت) وغيرها من الشركات العملاقة، بالإضافة إلى وكالات استخبارات حكوميّة مثل وكالة الأمن القومي (NSA) بمنزلة الإمبرياليين الجُدد في المجتمع الدولي. ويُشكّل الانغماس في المنتجات والنماذج والأيديولوجيات التقنيّة للقوى الأجنبيّة ــ بقيادة الولايات المتّحدة ــ عبئًا اقتصاديًّا هائلا[1]. يجُادل فوبارا- مانويل Fubara -Manuel بأنّ التقاط البيانات قبل أن يصبح حاسوبيًّا، كان استعماريًّا، ويبحث في الدراسات المبكّرة التي تُقدّم استعارة الحوسبة كاستعمار، رابطًا هذا التاريخ بمفاهيم معاصرة مثل (استعمار البيانات). ويدافع فوبارا عن دراساتٍ وأبحاثٍ تتناول الاستعمار كنظام قمعٍ ملموسٍ وموجودٍ مسبقًا، وله إرث بياناتٍ عنيف يستمر من خلال الحوسبة. ويفترض أنّ الأساليب الحاسوبيّة لالتقاط البيانات، وخاصّةً في علاقات ما بعد الاستعمار مثل الهجرة العالميّة، تمثّل استخلاصًا من الدرجة الثانية لشعوب كانت مستعمرةً سابقًا، ولا ينبغي عدّها أمرًا مسلّمًا به في أيّ تحليلٍ متقاطعٍ للبيانات والاستعمار. فوبارا مانويل القائل بأنّ (الأسر قبل أن يصبح حاسوبيًّا، كان استعماريًّا). ويزعم أنّ المنطق الاستعماريّ للاستغلال يمكن إيجاده في السياق التاريخيّ المبكّر للإقطاع في العصور الوسطى. لم يكن المجتمع في العصور الوسطى، الذي نشأ بتسلسلاتٍ هرميّةٍ قويّة، قائمًا على الاستغلال فحسب، بل على أنظمة الظهور والتشهير العلني أيضًا[2].

يواصل لوديك Ludec القول إنّ (استعمار البيانات) مفهومٌ خاطئٌ جوهريًّا. ويستشهد بمثال دراسة ميدانيّة أُجريت في مدغشقر، ليجادل بأنّ مستخدمي الإنترنت الذين يزعم خضوعهم لاستعمار البيانات لا يمكن معاملتهم بالطريقة نفسها التي يُعامل بها منتجو البيانات

Colonialism: towards Theorizing Digi-Africanism. P. 80.

1. Kwet, Michael. (2019). Digital colonialism: US empire and the New Imperialism in the Global South. P. 2.

2. Benedetta Brevini, Irene Fubara- Manuel, Clément Le Ludec, Jakob Linaa Jensen, Andrea Jimenez, and Jo Bates. (2024). P. 121, 122.

في مدغشقر. ويجادل بأنّه بدلاً من الحديث عن استعمار البيانات، ينبغي أن نتحدّث عن (استخراج البيانات)، أو (الاستعمار الرقميّ). ويرى أنّ هذين المفهومين الأخيرين يُفسّران بشكلٍ أفضل انغماس الصناعة الرقميّة في آليات القمع الاستعماري التقليديّة[1].

ثم انضمت بريفيني Brevini إليهم لتجادل بأنّه ليس مجرد سوء فهمٍ جوهريّ، بل هناك فجوة في مفهوم استعمار البيانات فيما يتعلّق بالبيئة. وتجادل بأنّ هناك حاجةً إلى تدخّلٍ في خطاب استعمار البيانات؛ لتقديم نقدٍ للعدالة البيئيّة يأخذ في الاعتبار الأضرار البيئيّة الجسيمة لتطوير تقنيات الاتّصال القائمة على البيانات؛ إذ تعتمد تقنيات الاتّصال، بجميع أشكالها المتنوّعة، على مساحاتٍ شاسعةٍ من الأراضي والبحار، وآلات وبنى تحتيّة تصدر غازاتٍ دفيئة؛ ممّا يستنزف الموارد النادرة في إنتاجها واستهلاكها والتخلّص منها. وهي تتطلّب كمياتٍ متزايدةً من أنّها تلفت انتباه، الطاقة والمياه والموارد المحدودة القارئ إلى الطرق المتنوّعة التي تؤثّر فيها تقنيات البيانات ــ بما في ذلك نماذج الذكاء الاصطناعي كثيفة الاستهلاك للطاقة ومراكز البيانات ــ على البيئة، والتي تتجاوز بكثير انبعاثات الكربون الخاصّة بها[2].

٢. الحركات الرقميّة المناهضة للاستعمار: تنتشر حركاتٌ رقميّةٌ مناهضةٌ للهيمنة التكنولوجيّة، تنادي بحقوق المستخدمين، وشفافيّة الخوارزميّات، وحماية البيانات، وتعدّ هذه الحركات امتدادًا جديدًا للنضال التحرّري. ثمّة حاجةٌ ملحّةٌ إلى تصوّرٍ أفريقيّ لواقعه في المجال الرقميّ. والبدء في التفكير في هذا السياق، يدفع المرء إلى التأمّل في الفلسفات أو المفاهيم الأفريقيّة السابقة، وتقييم مدى قدرتها على تمثيل الواقع الأفريقيّ في المجال الرقميّ. فإذا أخذنا مثالاً مفهوم (الزنوجة)، فلن يكون قادرًا على تقديم ميزةٍ واضحةٍ لأفريقيا؛ إذ أصبح مع مرور الوقت عتيقًا. وإذا اعتمدنا على (أوجاما) نيريري، التي يدعو فيها نيريري إلى إنشاء قريةٍ أفريقيّة، فستظلّ هذه الفكرة عاجزةً عن تمثيل الصورة الأفريقيّة في المجال الرقميّ؛ لأنّها تضمن لأفريقيا البدء من الصفر، وأن تكون في حالةٍ من العزلة التكنولوجيّة. على الرغم من ذلك، يبدو أنّ كتاب (الضمير) لنكوامي نكروما، الذي يدعو فيه إلى تبنّي ما هو غربيّ مع إضفاء ضميرٍ أفريقيّ عليه، مناسبٍ لتشكيل الأساس الفلسفيّ الذي يمكن من خلاله محاولة طرح فكرة (الأفريقيّة الرقميّة). وللمضي قدمًا في هذا، من المهم التأكيد على أنّ كتاب كواسي وريدو (تفكيك الاستعمار المفاهيميّ للفلسفة الأفريقيّة) يشير إلى ثلاث مجالاتٍ للاستعمار؛ أوّلها الدين،

1. Ibid. P.124.

2. Ibid. P. 127.

ثم التعليم، والديمقراطية. وعلى هذه الخلفيّة، يضاف المجال الرابع للاستعمار، وهو المجال الرقميّ؛ لذا نقترح (الأفريقيّة الرقميّة). تؤكّد (الأفريقيّة الرقميّة) على الاستشراق/الاستعمار الرقميّ، لكنها تتجنّب الخوض في ألعاب إلقاء اللوم التي يعتقد فيها قطّاعٌ عريضٌ من النقّاد الأفارقة أن جميع مشاكل أفريقيا تنبع من الغرب. بدلاً من ذلك، تحتفي بإمكانيّة مشاركة الأفارقة في إنشاء المحتوى الرقميّ، لكنّها تدعو إلى وعي أفريقيّ نقديّ في هذه العمليّة[1].

٣. مقاومة التبعيّة الثقافيّة: تسعى بعض الدول والمجتمعات إلى تعزيز الإنتاج الثقافيّ الرقميّ المحلّي، وتشجيع المحتوى بلغات السكّان الأصليّين، وتطوير منصّات مستقلة تُعبّر عن الهويّات المتنوّعة. أدركت بعض البلدان أهميّة تأكيد الملكيّة والوكالة في المجال الرقميّ، وتقوم الآن ببعض المبادرات والاستجابات لتشكيل مستقبلها الرقميّ؛ فلقد اتّخذت نيجيريا خطوةً مهمّةً في تطوّرها الاقتصاديّ مع إطلاق سياسة واستراتيجيّة الاقتصاد الرقميّ (مجموعة القمّة الاقتصاديّة النيجيريّة)، وقد صُمّم هذا الإطار الاستراتيجيّ لتسخير قوّة التقنيّات الرقميّة لتنويع اقتصاد البلاد. ويركّز على مجالاتٍ حيويّةٍ مثل تطوير المهارات الرقميّة، وتعزيز التجارة الإلكترونيّة، وتهيئة بيئةٍ تنظيميّةٍ داعمة. وحقّقت كينيا سابقةً من خلال منصّتها (Huduma Kenya)؛ ممّا يقلّل من العوائق البيروقراطيّة، ويعزّز الكفاءة الإداريّة، ويسمح بسهولة الوصول إلى الخدمات الحكوميّة للمواطنين. وفي جنوب أفريقيا، يوجد قانون حماية البيانات، وقانون حماية المعلومات الشخصيّة (POPIA) الذي يحمي حقوق خصوصيّة الأفراد للمواطنين. وفي الوقت نفسه، يتّضح التزام رواندا بتعزيز نظامٍ بيئيّ للابتكار من خلال مبادراتٍ مثل (مدينة كيغالي للابتكار)، و(أكاديمية رواندا للترميز).

تؤدّي هذه الجهود دورًا فعّالاً في تنمية القوى العاملة الماهرة في مجال التكنولوجيا ودفع نمو القطاع الرقميّ. وعلى المستوى القاريّ، أطلق الاتّحاد الأفريقيّ استراتيجيّة التحوّل الرقميّ، ممّا يُشير إلى التزامٍ جماعيّ بتسريع التطوّر الرقميّ في أفريقيا. تشمل هذه الاستراتيجية جهودًا لتنسيق السياساتٍ الرقميّة بين الدول الأفريقيّة وتعزيز تطوير البنية التحتيّة الرقميّة الحيويّة. تُظهر هذه الأمثلة أنّ الدول والمنظمات الأفريقيّة تعمل بنشاطٍ لتأكيد فاعليّتها في المجال الرقميّ. فمن خلال تطبيق السياسات، وتشجيع الابتكار، والاستثمار في البنية التحتيّة الرقميّة، تهدف هذه الدول إلى صياغة مستقبلها الرقميّ الخاصّ، وتعظيم فوائد العصر الرقميّ لمواطنيها واقتصاداتها[2].

1. Fonyuy, Banla Samuel. (2024). P. 81.

2. Salami, Aishat Oyenike. (2024). P. 7.

إنّ مستقبل أفريقيا الرقميّ يواجه تحدّياتٍ كبيرةً، وفي ضوء هذه التحدّيات، تتّضح ضرورة مساهمة أفريقيا في رسم مستقبل القارّة الرقميّ من خلال:

- **تعزيز الابتكار المحليّ:** من أهمّ أسباب دعم الوكالات الأفريقيّة في المجال الرقميّ ضرورة تعزيز الابتكار المحليّ. إنّ الاعتماد على التكنولوجيا الأجنبيّة قد يُعيق الإبداع وريادة الأعمال المحلّيّة. وللتغلّب على هذه العقبة، يجب على الدول الأفريقيّة إعطاء الأولويّة لتطوير الحلول التكنولوجيّة المحليّة والشركات الناشئة.
- **حماية السيادة الرقميّة:** يجب على الدول الأفريقيّة حماية سيادتها الرقميّة لمنع أيّ تأثيرٍ أو سيطرةٍ خارجيّةٍ غير مبرّرة. ويشمل ذلك سنّ سياساتٍ ولوائح تحمي البيانات الحسّاسة، وتشجّع على توطينها، وتضمن توافق مشاريع البنية التحتيّة الرقميّة مع المصالح الوطنيّة.
- **سدّ الفجوة الرقميّة:** لسدّ الفجوة الرقميّة التي تؤثّر بنحوٍ غير متناسبٍ في المجتمعات المهمّشة، يجب على الحكومات الأفريقيّة أن تعمل بنحوٍ استباقيّ على توسيع نطاق الوصول إلى الإنترنت والوعي الرقميّ في جميع أنحاء القارّة. يُعدّ هذا ضرورةً اقتصاديّةً ووسيلةً لضمان العدالة الاجتماعيّة[1].
- **تعزيز تطوير البنية التحتيّة الرقميّة المحليّة:** في حين أنّ الشراكات الدولية قادرةٌ على تسريع تطوير البنية التحتية الرقميّة، يجب على الدول الأفريقيّة أن تؤدّي دورًا محوريًّا في تشكيل بيئتها الرقميّة. من شأن هذا النهج أن يعزّز الحلول المصمّمة خصيصًا للسياق الأفريقيّ؛ ممّا يدفع عجلة النمو المستدام لتعزيز ثقافة التقدّم التكنولوجي من الداخل. بالإضافة إلى ذلك، ينبغي أن يكون التعاون مع الجهات الفاعلة الخارجيّة منصفًا وشفّافًا ومتماشيًا مع أهداف التنمية الوطنيّة.
- **تشجيع التعليم والبحث:** ينبغي للدول الأفريقيّة الاستثمار في التعليم والبحث لبناء أساسٍ متينٍ في مجال التقنيات الرقميّة. ويشمل ذلك تشجيع تطوير منظوماتٍ من المهارات الرقميّة تتجاوز البرمجة الأساسيّة. ومن مجالات التدخّل الاستراتيجيّ لمنع الاستعمار الرقميّ التعليم وتوفير المعرفة التي تُسهم في بناء المجتمع الرقميّ. وينبغي للدول منخفضة الدخل ألّا تتخلّى عن إمكانيّة المشاركة الفاعلة في الإبداع الرقميّ. وينبغي تزويد الأطفال بالأدوات وتدريبهم على استخدام التكنولوجيا المحايدة لإتاحة خياراتٍ لهم في المستقبل[2].

1. Ibid.

2. Avila, Renata. (2020). P. 8.

ـ **المشتريات العامّة لتغيير قواعد اللعبة ولامركزية قوة التكنولوجيا:** ينبغي أن يكون دور الاستثمار العام والمشتريات جزءًا أساسيًّا من خطّة لمكافحة الاستعمار الرقميّ. عند وضع خطّة مستقبليّة، ينبغي على الحكومات التي تسعى لاستعادة السيطرة على البنية التحتيّة الحيويّة أن تضع المصلحة العامّة في المقام الأول عند تقييم الاستثمارات الجديدة في التكنولوجيا. ينبغي عليها الاستثمار في بنيتها التحتيّة الخاصّة لنقل البيانات، على الأقلّ فيما يتعلّق بمعلومات الحكومة، وكذلك معلومات القطاعات الاستراتيجيّة. وينبغي عليها إعطاء الأولويّة وخلق حوافز لإنشاء مراكز بيانات إقليميّة، وللمطوّرين المحليين والصناعات المحليّة لتقديم الخدمات والمعدات. ومن ثم ينبغي وضع إطار عملٍ لمكافحة الضغط لتنظيم التبرعات التكنولوجيّة ومشاريع المساعدات، وخاصّة الكبيرة منه. ينبغي ــ كخطوةٍ فوريّة ــ توجيه الاهتمام إلى ممارسات شركات التكنولوجيا العملاقة، وكشف دسائسها، والتشكيك في رواياتها، ولا سيّما فيما يتعلّق بالتعليم التقني وسدّ الفجوة الرقميّة، بدلاً من الاحتفاء (بمبعوثي التكنولوجيا)، وينبغي على وسائل الإعلام وجماعات المناصرة التدقيق عن كثبٍ في هذه الزيارات وتفاعلات شركات التكنولوجيا مع الحكومات.

ـ **عصر مختلف من التعاون الرقميّ:** ويكون عبر التعاون بين الدول لتطوير وصيانة البنية التحتيّة الرقميّة العامة، ووضع أجندةٍ رقميّةٍ متعدّدة الأطراف أكثر مرونة. هناك حاليًا نقصٌ في التنسيق العالمي ضدّ الاستعمار الرقميّ خارج نطاق نظام منظمة التجارة العالميّة. هناك العديد من الهيئات المختلفة التي تؤدّي دورًا مهمًّا في تشكيل مستقبلنا الرقمي، من هيئات وضع المعايير إلى مؤسّسات مثل اليونسكو، والأونكتاد. لا تقتصر الأجندة الرقميّة العالميّة على التجارة فحسب، بل يجب أن تأخذ أيضًا في الاعتبار التنمية والتعاون، وحتى بناء السلام. ينبغي تمويل ابتكارات القطّاع العام وتشجيعها عالميًّا بشكلٍ جيّد، وتشجيع التبادل بين القطّاعين العام والخاصّ لإيجاد شكلٍ جديدٍ من أشكال التعاون التقني[1].

باختصار، يتطلّب الحد من الاستعمار الرقميّ وتعزيز مستقبلٍ رقميٍّ خالٍ من الاستعمار في أفريقيا مزيجًا من الاستراتيجيات التنظيميّة والتعليميّة والاقتصاديّة. فمن خلال إعطاء الأولويّة للسيادة الرقميّة، والاستثمار في البنية التحتيّة الرقميّة، وتشجيع الابتكار المحليّ وتنمية المهارات، يمكن للدول الأفريقيّة تعزيز سيطرتها على مصيرها الرقميّ، وإطلاق العنان لكامل إمكانات العصر الرقميّ لمجتمعاتها واقتصاداتها[2].

1. Ibid. P. 8: 10.

2. Salami, Aishat Oyenike. (2024). P. 8, 9.

خاتمة

يكشف تحليل الاستعمار الرقمي عن أنّ الهيمنة التكنولوجيّة ليست مسألة أدوات أو تطبيقات فحسب، بل هي امتدادٌ للسيطرة الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة. وبينما تَعِد التكنولوجيا بفرصٍ هائلة للتنمية، فإنّ غياب التمكين المحليّ يحوّل هذه الوعود إلى أدوات جديدة للإخضاع. إنّ العدالة الرقميّة لا تُمنح بل تُنتزع عبر سياساتٍ نقديّةٍ وممارساتٍ مقاومة، تُعيد التوازن لعالمٍ اخترقت حدوده الرقميّة بلا استئذان.

إنّ ما نشهده اليوم هو تحوّلٌ من استعمار الأرض إلى استعمار البيانات، ومن احتلالٍ مباشرٍ إلى احتلالٍ رقميٍّ ناعم، تمارسه قوى عالميّة باسم التنمية والتقدم.

لقد أظهرت هذه الدراسة أنّ الهيمنة الرقميّة الأمريكيّة تعتمد أساسًا على قوّة الشركات التكنولوجيّة العملاقة مثل (Google، وMeta، وMicrosoft) التي تسيطر على الفضاءات الافتراضيّة، وتفرض أنماطًا ثقافيّةً ومعرفيّةً عالميّةً تهمّش الإنتاج المحلّي، بينما تميل الهيمنة الصينيّة إلى استخدام النفوذ الاقتصاديّ والمشروعات التحتيّة عبر شركات مثل (Huawei، وZTE)، مدعومة بتمويلات ضخمة وسياسات شراكة استراتيجيّةٍ مع الحكومات الإفريقيّة. ورغم اختلاف الأسلوبين، فإنّ النتيجة واحدة: تعزيز الاعتماد الإفريقيّ على الخارج، وتقييد إمكانيات بناء سيادةٍ رقميّةٍ حقيقيّة.

كما بيّنت الدراسة أنّ هذه المنافسة الثنائيّة ليست مجرد صراعٍ بين قوّتين عظميين، بل هي أيضًا اختبارٌ لقدرة إفريقيا على صياغة مستقبلها الرقميّ وفقًا لأولويّاتها التنمويّة والأمنيّة والثقافيّة. فغياب استراتيجيّات رقميّة موحّدة على مستوى الاتّحاد الإفريقيّ، وضعف التشريعات المحليّة لحماية البيانات، وانعدام الاستثمار الكافي في البحث العلميّ والبنية الرقميّة المحليّة، كلّها عوامل تجعل القارّة عرضةً لإعادة إنتاج التبعيّة الرقميّة بأشكالٍ متعدّدة.

إنّ مستقبل إفريقيا الرقميّ لن يُحسم فقط في مراكز القرار في واشنطن أو بكين، بل على أرض القارّة نفسها، من خلال الإرادة السياسيّة، والاختيارات الإستراتيجيّة، والقدرة على تحويل التحوّلات التكنولوجيّة العالميّة إلى أدواتٍ للتمكين لا للاستلاب. وهنا تكمن أهميّة بلورة مشروعٍ إفريقيّ جماعيّ يضع السيادة الرقميّة في صميم الأمن القوميّ والتنمية المستدامة، ويجعل من التكنولوجيا وسيلةً للتحرّر، لا أداة لإعادة إنتاج الاستعمار بثوبٍ معاصر.

إنّ نقد الاستعمار الرقميّ لا يعني رفض التكنولوجيا، بل يعني مساءلة علاقتها بالقوة، وتفكيك من يتحكّم في أدواتها ويوجّه غاياتها. فالمعركة ليست بين (تقدّم وتأخّر)، بل بين (استقلالٍ وتبعيّة)، و(تحكّمٍ ذاتيّ، وهيمنةٍ خارجيّة). إنّ إنهاء التبعيّة الرقميّة ليس خيارًا تقنيًّا فحسب، بل هو خيارٌ سياديٌّ، حضاريٌّ مصيريّ، يحتاج إلى رؤيةٍ بعيدة المدى، وإرادةٍ سياسيّةٍ تتجاوز منطق السوق إلى منطق الاستقلال والمصلحة العامة.

المصادر والمراجع

1. African Union. (2020).THE DIGITAL TRANSFORMATION STRATEGYFOR AFRICA (2020–2030).

2. Avila, Renata. (2020). Against Digital Colonialism. Platforming Equality.

3. Banos, Alejandro Mayoral. (2023). Data colonialism is not a metaphor: Remembering colonialism and why it matters in the digital ecosystem. In Resisting Data Colonialism – A Practical Intervention. Amsterdam: The Institute of Network Cultures.

4. Benedetta Brevini, Irene Fubara- Manuel, Clément Le Ludec, Jakob Linaa Jensen, Andrea Jimenez, and Jo Bates. (2024). Critiques of Data Colonialism. In DIALOGUES IN DATA POWER. Britain: Bristol university press.

5. Coleman, Danielle. (2019). Digital Colonialism: The 21st Century Scramble for Africa through the Extraction and Control of User Data and the Limitations of Data Protection Laws, Michigan Journal of Race and Law. Vol. 24. https://repository.law.umich.edu/mjrl/vol24/iss2/6.

6. Dahiya, Bhavna. (2023). Digital Colonialism: Neo-Colonialism of the Global South. https://www.researchgate.net/publication/370938813

7. Fonyuy, Banla Samuel. (2024). Oscillating between Racism, Colonialism, and Digital Colonialism: towards Theorizing Digi-Africanism. International Journal of Humanities Social Sciences and Education (IJHSSE). Vol. 11. Issue .5. PP. 74-83.

8. Gravett, Willem. (2020). Digital neo-colonialism: The Chinese model of internet sovereignty in Africa. African Human Rights Law Journal 125-146. http://dx.doi.org/10.17159/1996-2096/2020/v20n1a5.

9. Kalema, Nai Lee. (2023). Intersections of Data Power: Unmasking the Nexus of Data Colonialism and Digital Racial Capitalism. In In Resisting Data Colonialism – A Practical Intervention. Amsterdam: The Institute of Network Cultures.

10. Kenny, Bríd. (2022). Digital Colonialism. Æther Journal - Issue 1.

11. Köppert, Katrin. (2021). Digital Colonialism – In Visual Culture.

12. Kwet, Michael. (2019). Digital colonialism: US empire and the New Imperialism in the Global South. https://ssrn.com/abstract=3232297.

13. Navigating Digital Neocolonialism in Africa. (2024). CIGI. Tyler Stevenson.

14. NDUBISI, Ejikemeuwa J. O. (2024). ARTIFICIAL INTELLIGENCE AND THE MANAGEMENT OF AFRICAN CULTURAL HERITAGE: TOWARDS ECONOMIC GROWTH AND DEVELOPMENT. Journal of African Studies and Sustainable

Development Vol. 7, No. 5.

15. Obi, Paul A. (2024). Labouring and Smiling: Re-Imagining Digital Colonialism in Africa, Silicon Valley Big Techs, and the Politics of Prosumer Capitalism in Nigeria. Triple C. 22 (1): 381-395.

16. Ogunbukola, Matthew. (2024). Digital Africa: Transforming the Continent through Technology. https://www.researchgate.net/publication/381339406.

17. Ruth Karachi Benson Oji & Nzeaka, Emmanuel Ezimako. (2020). Digital Colonialism on Digital Natives: A WhatsApp Usage Perspective. UJAH. Vol. 21. No.1.

18. Salami, Aishat Oyenike. (2024). Artificial intelligence, digital colonialism, and the implications for Africa's future development. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/dap.2024.75.

19. Susan Brokensha, Eduan Kotzé, Burgert A. Senekal. (2023). AI in and for Africa A Humanistic Perspective. CRC Press.

20. Yılmaz, Ö. (2025). The Origins of Digital Colonialism. İmgelem. Vol. 16. pp. 321-344.

21. Zia, Samavia. (2025). Digital Colonialism: Reimagining Power, Identity, and Resistance by Decolonizing AI.

تطوّر الاقتصاد المصريّ من الحرب العالميّة الأولى إلى ثورة ١٩٥٢ معضلة التبعيّة للكولونياليّة

د. شريف إمام[١]

المُلخّص

يستعرض البحث مسيرة الاقتصاد المصريّ التي بدأت بتبعيّةٍ مطلقةٍ للاحتلال البريطانيّ، حيث سيطر رأس المال الأجنبيّ على ٩١٪ من أصول الشركات قبل الحرب العالميّة الأولى، مع توجيه الإنتاج كليًّا لخدمة (أحاديّة محصول القطن)، وربط العملة بالإسترلينيّ.

شكّلت الحرب العالميّة الأولى وما تبعها من ثورة ١٩١٩ نقطة تحوّلٍ؛ إذ برزت (البرجوازيّة المحليّة) التي قادها بنك مصر عام ١٩٢٠ م، نحو التصنيع الوطني. ومع ذلك، بقيت هذه البرجوازيّة أسيرة (الجدلية) بين الرغبة في الاستقلال والاضطرار للشراكة مع رأس المال الأجنبيّ المستوطِن.

جاءت الثلاثينيّات بفرصٍ جديدةٍ عبر التعريفة الجمركيّة عام (١٩٣٠) التي حمت الصناعة الناشئة، لكنّها شهدت أيضًا تقليص دور بنك مصر وتحجيمه سياسيًّا. وبحلول عام ١٩٥٢، كان الاقتصاد قد حقّق مكاسب مثل التمصير الجزئيّ للشركات، وإلغاء الامتيازات الأجنبيّة، إلاّ أنّ هيمنة كبار الملاّك والتبعيّة الهيكليّة للنظام الرأسماليّ العالميّ ظلّت العائق الأكبر أمام الاستقلال الاقتصاديّ الكامل حتّى قيام الثورة.

كلمات مفتاحيّة: الحرب الأولى، ثورة يوليو، التبعيّة البورجوازيّة، الكولونياليّة الاقتصاديّة.

---

١. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة عين شمس ـــ مصر.

المقدمة

تُمثَّل الحرب العالميّة الأولى حدًّا فاصلاً في مسيرة الاحتلال البريطانيّ لمصر، حيث أجبرته على أن يُفصِح عن حقيقته، ويُحدَّد وضعه القانوني بدقة، بعد أكثر من عقدين من المراوغة ودعاوى عدم ديمومته وأنّ ظروفه إنهائه لم تنضج بعد. فقد وجدت بريطانيا أنّ السيادة الاسميّة التي ارتضتها للدولة العثمانيّة على مصر بعد دخولها عام ١٨٨٢م، باتت تحدّيًا كبيرًا بعد أن مال العثمانيون إلى الألمان، وخشت لندن من أن تصبح مصر بؤرة توترٍ لنفوذ بريطانيا في المنطقة؛ لذا أعلنت بريطانيا الحماية على مصر في ديسمبر ١٩١٤م، وظلّت قائمةً حتى ارتأت سلطة الاحتلال تحت وطأة حركة الجماهير في ١٩١٩ م، أن تعطي مصر استقلالاً منقوصًا، ما لبثت أن وسّعته بإعادة تنظيم العلاقة بمقتضى معاهدة ١٩٣٦م، التي خفَّضت من التواجد العسكريّ في مصر وجعلته مقتصرًا على منطقة القتال، وصار ممثّل بريطانيا سفيرًا وليس مندوبًا ساميًا، وأنهت الامتيازات الأجنبيّة.

لكن هذا الحيز من الاستقلال لم يسمح لمصر بأن تستقلّ بقرارها السياسيّ والاقتصاديّ، وما حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢م، وإجبار الملك على تعيين مصطفى النحّاس رئيسًا للوزراء، إلّا تأكيدًا لهذا الدور الذي لا يبتعد عن ممارسات كرومر في أيام الاحتلال الأولى. وهكذا ظلّت التبعيّة السياسيّة لسلطة الاحتلال البريطانيّ قائمةً حتى الجلاء، أمّا التبعيّة الاقتصاديّة فقد عبّرت عنها هيمنة رأس المال الأجنبي على الاقتصاد المصريّ، ودمجه في الاقتصاد الرأسماليّ، بجعله وحدةً إنتاجيّةً متخصّصةً في إنتاج القطن، مع ضرب القطاع الصناعيّ وربط العملة المصريّة بالجنية الإسترلينيّ، وإجهاض أيّ محاولةٍ للبرجوازيّة المحليّة للشبِّ عن الطَّوْق، وتهدف هذه الورقة إلى تتبع نقاط الارتكاز في تطوّر الاقتصاد المصريّ من ١٩١٤ وحتى ١٩٥٢م، مع إبراز جدليّة العلاقة بين البرجوازيّة المحليّة ورأس المال الأجنبيّ.

١. اندماج مصر في الاقتصاد العالميّ وميلاد البرجوازيّة المحليّة

قبيل الحرب العالميّة الأولى، كان الاقتصاد المصريّ يتنازعه جناحان، الرأسماليّة الأجنبيّة الوافدة الآخذة في التغلغل في كلّ مفاصل الاقتصاد، والبرجوازيّة المحلية الوليدة- التي عمادها طبقة كبار الملّاك – والباحثة عن مزاحمة رأس المال الأجنبي، وإن كان من بوابة الشراكة معه أكثر من إقصائه. وبالنسبة للرأسماليّة الأجنبيّة، فإنّها وجدت في فرض معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ على محمد علي، نجاحًا في القضاء على محاولة التنمية التي شهدتها مصر في عهده، رغم ارتباطها العضويّ بالغرب،

وإعادةً لدمج مصر في الاقتصاد العالمي[١]. فلقد حاول محمد علي بناء اقتصادٍ مستقلٍّ في إطار السوق العالميّ يرتكز على بناءٍ صناعيّ، وإذا كانت هذه المحاولة لم تنجحْ، فإنّ ما تم خلالها من تغييرٍ في الاقتصاد المصريّ نحو اقتصاد مبادلةٍ ساعد في عمليّة إدماجه في السوق الرأسماليّة العالميّة، كاقتصادٍ تابعٍ يخضع لسيطرة لرأس المال الأجنبيّ[٢]. بل إنّ قضاء محمد علي على الطبقة الوسطى المصريّة الوليدة ممثّلةً في المشايخ والتجّار والحرفيين، سهّل مهمّة رأسمال الأجنبيّ، فلم يُوَاجه بمقاومةٍ إلّا في أواخر القرن التاسع عشر[٣]. وبانضمام مصر إلى السوق العالميّة، بدأ رأس المال يتوافد إليها؛ إذ كانت أوروبا قد دخلت في عصر الحريّة التجاريّة، بشكلٍ جعل السوق المصريّة ميدانًا للتنافس بين دولها[٤]. وبدأ المصرفيّون الأوروبيّون يفدون على مصر، وأخذوا في تأسيس البنوك وتمويل التجارة، وعند نهاية عام ١٨٥٥م، كان قد تمّ إنشاء ثلاثةٍ من هذه البنوك الأوربيّة، وفي عام ١٨٥٦م، افتتح البنك الرابع، برأس مال إنجليزيّ، وسُمّي (بنك مصر)[٥].

كان الجزء الأكبر من الاستثمارات الأجنبيّة حتى اندلاع الحرب العالميّة الأولى، في قطاعاتٍ لم يكنْ لمصر بها من قبل سابق عهد، مثل الشركات المساهمة والبنوك والأعمال التجاريّة والتأمين، كما شكّل إقراض الحكومة جزءًا من تلك الاستثمارات، ولا سيّما في مرحلتها المبكّرة[٦]. ووفقًا لدراسة كراوتشلي A. Crouchley فإنّ ٩١٪ من أصول الشركات العاملة في مصر حتى ١٩١٢م، كان يملكها رأس المال الأجنبيّ، على حين لم يحظَ رأس المال المحليّ بأكثر من ٩٪ من أصول تلك الشركات. وتركّزَت تلك الاستثمارات في ثلاث دولٍ هي فرنسا وبريطانيا وبلجيكا[٧]، وشكّلت القطاعات الخدميّة وقطّاع الزراعة وما يتّصل به من الري والصرف واستصلاح الأراضي البور،

---

1. Barbara E .Kalkas, Barbara E .Kalkas, Aborted economic and social development in Egypt: new leaders in old system, PhD in sociology, The University of Illinois, 1979, p.212.

٢. محمد دويدار، الاقتصاد المصريّ بين التخلّف والتطوير، ص١٥٩.

٣. محمد أنيس، تطوّر المجتمع المصري من الإقطاع إلى ثورة يوليو ١٩٥٢، ص ٧٩.

٤. راشد البراوي ومحمد حمزة عليش، التطوّر الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، ص٨٩.

٥. جون مارلو، تاريخ النهب الاستعمارى لمصر، ص١٣٥. وكذلك ديفيد لاندز، بنوك وباشاوات، ص١٧٥.

٦. إ. كراوتشي، التنمية الاقتصاديّة لمصر الحديثة، ص٢٠٥.

7. Arthur Crouchley, Investment of foreign capital in Egypt companies and public Debt., Cairo, 1936, p.93.

النسبة الأكبر في هذه الاستثمارات[١]. على النحو الذي يوضّحه الجدول التالي:

طبيعة النشاط وحجم رأس المال الأجنبيّ والمحلّيّ عام ١٩١٢ [٢]

النشاط	الإجماليّ	رأس المال الأجنبيّ	رأس المال المحلّيّ
التمويل العقاريّ	٥٦٩.٥٤	٥٦٩.٥٤	-
البنوك	٧٢٧.٥	٥٥٢.٥	١٧٥
الزراعة	٥٧٣.١٨	٣٣٢.١٢	٢٤١.٦
النقل والقنوات	٠٧٦.٦	٧٣٣.٥	٣٤٣
التعدين والصناعة والتجارة	٢٠٧.١٥	٤٠٥.١٣	٩٥٢.١

ولم تحظَ الصناعة باهتمامٍ كبيرٍ، واقتصرت على صناعة السكّر والبيرة وموادّ البناء وما شابهها. وكانت سياسة الاحتلال البريطاني، ترتكز على تدمير الصناعة المصريّة، وهذا ما عبّر عنه كرومر بقوله: «إنّه لا يجب السماح بقيام صناعةٍ قطنيّةٍ في مصر؛ لأنّ ذلك سيضرّ بمصالح بريطانيا»[٣]. بل إنّ بريطانيا حينما علمت بعزم شركتين بريطانيتين إقامة مصنع نسيجٍ في مصر، فرضت رسوم إنتاج ٨٪ على الإنتاج المحلّيّ من المنسوجات، وهو ما يعادل الرسوم الجمركيّة المفروض على المنسوجات المستوردة [٤].

أمّا البرجوازيّة المحليّة، فعلى الرغم من استمرار ملكيّة الدولة للأراضي الزراعيّة - وحدة الإنتاج الرئيس في الاقتصاد المصري - في عهد محمد علي، فإنّه سُمِح للمُنعم عليهم بأطيان الرزق ــ التي كانت موقوفةً على أعمال البر قبل أن تستولي عليها الدولة ــ بتوريثها لأولادهم وأحفادهم؛ وبذلك نشأت حقوقٌ ثابتةٌ على الأراضي لفئةٍ من الناس، ثم تدعم وضع تلك الفئة بالحصول على حقّ الملكيّة التامّة – من بيع وتنازل ورهن - في ١٨٤٢م[٥]. ولقد حملت أزمة الديون في عهد الخديو إسماعيل على إصدار لائحة المقابلة عام ١٨٧١م؛ وهي بمنزلة قرضٍ وطنيّ، تعهّدت الحكومة فيه لكلّ من يدفع ستة أمثال الضريبة المقرّرة على الأرض سنويًّا مرةً واحدةً، الإعفاء من نصف الضريبة

1. إسماعيل محمد زين الدين، الزراعة المصريّة في عهد الاحتلال البريطاني، ص 155.

2. Arthur Crouchley , Investment of foreign capital in Egypt companies،p. 93.

٣. تقرير لورود كرومر عن الإدارة والمالية والحالة العمومية في مصر والسودان ١٩٠٥، ص ١٥٢.

٤. روبرت مابرو، الاقتصاد المصري ١٩٥٢ – ١٩٧٢، ص ٢٠.

٥. جرجس حنين ،الأطيان والضرائب في القُطر المصري، ص٢٢١.

إلى الأبد، وأن تكون ملكيّته على الأرض تامّة؛ وبذلك اتّسع حجم الملكيّة الخاصّة [١].

ومع طرح أراضي أسرة محمد على (الدومين)، وأسرة الخديو إسماعيل (الدائرة السنية) للبيع، سارع كبار الملاّك للاستفادة من قروض شركات وبنوك الرهن العقاريّ الأجنبيّة لشراء تلك الأراضي وتوسيع ملكيّتهم[٢]. وسمح تحسين أعمال الري في عهد الاحتلال في ازدهار زراعة القطن – المحصول الذي تخصّصت فيه مصر وفق آليات دمج الاقتصاد المصريّ بالاقتصاد العالمي - وارتفاع سعره؛ ممّا جعل المال يجرى في أيدي كبار الملاّك الزرعيين وتتوسّع ملكيتهم، وتتعمّق شراكتهم مع رأس المال الأجنبيّ. وغدت أرض مصر قبل الحرب العالميّة الأولى، يستحوذ ٠,٨٪ من الملاّك على ٤٣,٩٪ من المساحة، فيما استحوذ ٩٠,٧٪ من الملاّك على ٢٦,١٪ من مساحة الأراضي الزراعية؛ فيما حاز متوسّطو الملكيّة (أكبر من ٥ وأصغر من ٥٠ فدان) على ٣٠٪ من الأراضي وكانت نسبتهم ٨,٥٪ من مجموع الملاّك[٣].

وينبغي الإشارة إلى وجود طبقةٍ أخرى من الرأسماليين الأجانب من يونانيين وفرنسيين وشوام وأرمن وإيطاليين وبلجيك وغيرهم؛ ممّن استقرّوا بمصر قبل الاحتلال البريطاني، وأدّوا أدورًا برجوازيّةً كومبرادوريّة، وارتبطوا بقوة بالرأسماليّة الأجنبيّة الوافدة والبرجوازيّة المحلّيّة، ويمكن تسمية تلك الطبقة بالرأسماليّة الأجنبيّة المستوطنة تميزًا لها عن رأس المال الأجنبيّ الوافد الذي يعمل من خارج البلاد.

وبذلك يتّضح أنّ الرأسماليّة لم تنشأ في مصر نتيجة التطوّر الداخلي للمجتمع المصري، وإنّما نتيجة تحوّل الرأسماليّة العالميّة إلى مرحلة الاحتكار والاستعمار. كما أنّ البرجوازيّة التي نشأت في ركابها كانت أداةً لاستنزاف موارد البلاد، وأخّرت بشكلٍ كبيرٍ نشأة البرجوازيّة الوطنيّة[٤]. وهكذا شهدت مصر قبل الحرب العالميّة الأولى سيطرة رأس المال الأجنبيّ على نشاطها الاقتصادي، الذي وفد إليها محصّنًا بالامتيازات ومتحصّنًا بسياسة الاحتلال، بشكلٍ جعله طليق اليدين في اختيار النشاط الذي يرغب، وهو الأمر الذي عمّق من تبعيَّة الاقتصاد المصريّ للاقتصاد الرأسمالي العالمي.

---

١. الحكومة المصرية، القوانين العقارية في الديار المصرية، مجموع يشتمل على القوانين واللوائح والتعليمات الإدارية المتعلقة بالعقارات، ص٥.

٢. جرجس حنين، الأطيان والضرائب في القُطر المصري، ص٢٣٢.

٣. إبراهيم عامر، الأرض والفلاح: المسالة الزراعية في مصر، ص ٧٦، ٧٧.

٤. عادل غنيم، ثورة يوليو والرأسمالية، الطليعة، س ١، ع ٧، ١٩٦٥، ص ١٦٧.

٢. معاناة الحرب وتحوّل البرجوازيّة المحلّيّة للتصنيع

أصبحت مصر مُساقةً إلى المشاركة في الحرب العالميّة الأولي بمجرد قيامها، بعد أن صارت محميّةً بريطانيّةً، وقد أثَّر نشوبها تأثيرًا عميقًا في الحالة الاقتصاديّة لمصر. فلقد سُخّرت كلّ موارد الاقتصاد لخدمة المحتلّ وحلفائه، فعمدت سلطة الاحتلال إلى تسعير أثمان القطن بثمنٍ بخسٍ لفائدتها، وأعطت أوامر بمنع تصديره. وكانت بريطانيا المشتري الرئيس للقطن في مصر مع احتكار توريد المنسوجات القطنيّة إلى مصر؛ لذا اشتروا بأرخص الأثمان وباعوا المنسوجات بأغلاها. ولقد فُرض على مصر تقليص المساحة المزروعة بالقطن لصالح إنتاج الحبوب الغذائيّة - في ظلّ تعذّر استيراد القمح -، لسدّ احتياجات البلاد والجيش المحتلّ الرابض على أرضها الذي تمدد ووصل إلى ٢٧٥ ألف جنديّ بريطانيّ؛ فانخفضت المساحة المزروعة بالقطن في السنة الأولى للحرب بنحو ٦٨٪. وقد تعرّض الفلاحون لمصادرة حيواناتهم وحبوبهم، بل حُدّد مقدارًا شهريًّا يتعيّن على كلّ مدينةٍ أن تقدّمه، فالقاهرة مثلاً تقدم ٢٥٠٠ طن، والإسكندرية ٢٠٠٠ طن وهكذا [١].

ولقد انتشر رجال الحكومة رفقة سلطة الاحتلال، ينقبون في منازل الفلاحين عن الذرة الشاميّة والرفيعة وبذور القطن والبطاطس وغيرها لمصادرتها. كما استخدمت السكك الحديديّة المصريّة في نقل الجنود والذخائر والمؤن إلى ميادين القتال المختلفة وأماكن تمركز القوات طوال مدّة الحرب، فبليت مع كثرة الاستخدام وأصاب أجزاءً منها العطب، وقد أمرت السلطات العسكريّة بجمع المراكب التجاريّة على النيل وتخصيصها للأعمال الحربيّة، ممّا أدى إلى تعذّر التنقل؛ فعوّل المصريّون على الدواب، فلم تسلم هي الأخرى، فقد قامت السلطات البريطانيّة الحاكمة بجمع جميع الدواب واستولت عليها لصالحها، بل طلب من العُمَد والمشايخ في عموم البلاد أن يقدّموا كشوفًا وافيةً تشتمل على عدد الجمال والحمير وأصحابها، وقُبض على أعدادٍ كبيرةٍ من الأهالي لإخفائهم بعض الدواب[٢]. ناهيك عن الضرر الذي تعرّضت له الأيدي العاملة الزراعيّة، بعد تجنيد قرابة نصف مليون مصريّ في ميادين القتال.

وبالنسبة لماليّة الدولة، فالمعلوم أنّها كانت تعتمد اعتمادا كليًّا على القطن في اقتصادها؛ فلقد شكّل القطن وبذرته ٩٠٪ من إجمالي صادرات مصر عام ١٩١٣ [٣]. ومنذ أن بدأت الحرب هبطت

١. للمزيد راجع لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص ١٠٧ وما بعدها.

٢. راشد البراوى ومحمد حمزة عليش، التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، ص ١٩٠، ١٩١.

3. Egypt. Ministry of Finance, Statistical Department, Annuaire Statistique, Cairo, 1914, pp. 284-288.

أسعاره ونقص محصوله، وتوقّفت الحركة التجاريّة، وهبطت الرسوم الجمركيّة وكادت تقفل أبوابها، ورسوم الموانئ والمنائر مسّها الضرر، وذلك لتنقاص عدد السفن التجاريّة التي تطرّق ثغور مصر البحريّة. والرسوم القضائيّة والكيديّة نقصت لقلّة المعاملات التي تدعو الى التقاضي وقلّة عقود نقل الملكيّة. وتراجعت إيرادات السكك الحديد والبريد والتلغراف، ومسّ النقص إيجار الأملاك الأميريّة ومتحصلاتها التي تأثرت من جرّاء هبوط أسعار القطن. انعكس ذلك كلّه على أوّل مشروع ميزانيّة عام ١٩١٥م، فقد نقصت الإيرادات عن العام الذي قبله مبلغ ٢,٩٢٣,٠٠٠ جنيه. ولقد حاولت الحكومة المصريّة الخاضعة للاحتلال الاقتصاد في النفقات؛ فقادها تفكيرها إلى التقطير في بند الرواتب والأجور، فعمدت إلى إلغاء بعض الوظائف، ومنع الترقيات والعلاوات، وخفض معدل إصدار الصحف وإنشاء المدارس، وأوقفت البعثات التعليميّة، وألغت إعانات الطلبة، وأقفلت المعامل الخاصّة بالمصل، بل واقتُصد في أغذية المسجونين[١].

وجاء ربط الجنية المصريّ بالجنيه الإسترلينيّ خلال الحرب العالميّة الأولى ليحكم إطار التبعيّة حول الاقتصاد المصري، فلقد حالت دون استيراد الذهب من الخارج؛ فأُلغي شرط تغطية نصف النقد المصريّ بالذهب اكتفاءً بأذونات الخزانة البريطانيّة، وأصبح في مقدور بريطانيا إصدار أيّ كميّةٍ من أوراق النقد المصريّ من خلال البنك الأهلي – الخاضع لسيطرتها منذ تأسيسه ١٨٩٨م- دون حاجةٍ إلى غطاءٍ ذهبيّ، وبمقتضى هذا تمكنت إنجلترا من الحصول على النقد المصري اللازم لها لشراء محصول القطن وغيره من الغلّات المصريّة، ثم لسداد نفقات جيوشها في مصر دون حاجةٍ إلى التنازل عن جزءٍ من الذهب الذي في حوزتها. وتبع ذلك أن أخذ نظام العملة المصريّة ينتمي إلى نظام الإسترليني، وتحوّل عن قاعدة الصرف بالذهب [٢]. ومع سيطرة الاحتلال على العملة المصريّة، ارتفع معدل إصدار البنكنوت المصري بنحوٍ أدّى إلى تفشّي ظاهرة التضخّم وارتفاع الأسعار لأكثر من ٣٠٠٪ لبعض السلع والمحاصيل[٣].

١. لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨، ص ١١٩.

٢. راشد البراوى ومحمد حمزة عليش، التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، ص ١٩٠.

٣. للمزيد: جاد لبيب، بناء الاقتصاد المصري والعلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر وإنجلترا، ص ٥٩، ٦٠.

تطوّر النقود المتداولة في مصر أبّان الحرب العالميّة الأولى[١]

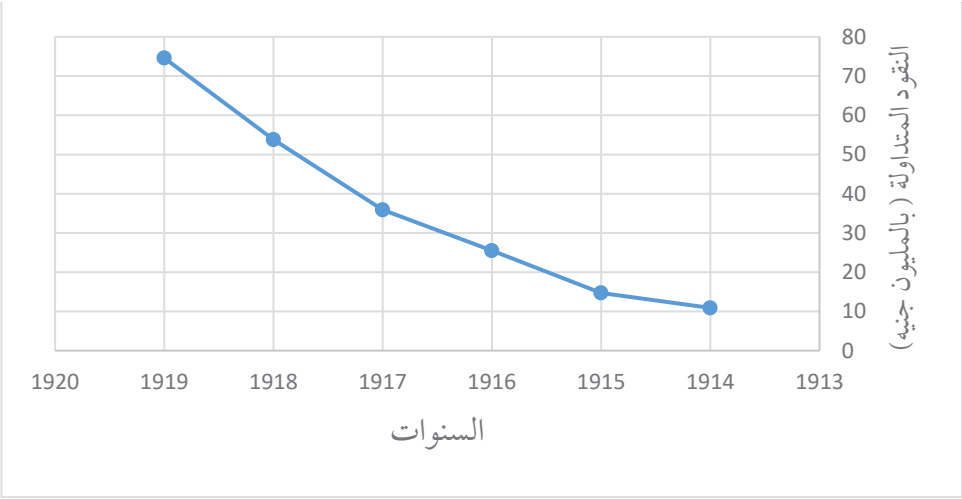

في المقابل، شكّلت الحرب العالميّة الأولى مناخًا مناسبًا لنمو طبقتي الأقليّات الأجنبيّة التي كانت بمنزلة رأس المال الأجنبيّ المُسْتوطِن، وطبقة كبار الملّاك، من خلال لعب دور الوسيط التجاري مع رأس المال الأجنبي[٢]. وأسهمت الأموال الطائلة التي تجمّعت لدى طبقة كبار الملّاك نتيجة الارتفاع الهائل في أسعار القطن منذ عام ١٩١٦م في تحوّل شريحةٍ كبيرةٍ منهم إلى الأعمال الماليّة والتجاريّة[٣]، وإن كان الاحتلال قد تدخّل للحدّ من تلك المكاسب، عندما احتكر محصول القطن جميعه عام ١٩١٨م، وما كان مخزونًا من محصول عام ١٩١٧م للاحتفاظ به للإمبراطوريّة البريطانيّة وحلفائها بالموارد اللازمة لهم، وحدّد ثمن شرائه ب ٤٢ ريالاً للقنطار في الوقت الذي كان يُباع في ليفربول ب ٧٥ ريالاً، وفي أمريكا ب ٨٠ ريالاً [٤]. لكن هامش الربح الذي تركته بريطانيا سمح بتراكم الثروة في يد كبار الملّاك، وتوسيع ثروتهم العقاريّة.

في المقابل، كان لظروف الحرب أثرٌ كبيرٌ في دفع عجلة الصناعة؛ فقد شكّلت الحرب حمايةً طبيعيّةً للسوق المصريّة، بحكم تعثّر وصول المصنوعات الأجنبيّة في ظلّ العمليّات العسكريّة في

1. Arthur Crouchley, The economic development of modern Egypt, p.270.

2. Marius Deeb, The Socioeconomic Role of the Local Foreign Minorities in Modern Egypt, 1805-1961, International Journal of Middle East Studies, Vol. 9, No. 1 Jan., 1978, p. 17.

3. Charles Issawi, Egypt at Mid Century, London, 1954, P.56

٤. لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨، ص ١١٦.

حوض البحر المتوسّط، بذلك ارتفعت أسعار المنتجات الأجنبيّة؛ ممّا فسح المجال أمام الصناعة المحليّة فنشطت صناعات الغزل والنسيج والسكّر والجلود والأثاث والكحول، وعادت الحياة تدبّ من جديدٍ في الصناعات الحرفيّة التي أصابتها المنافسة الأجنبيّة بالشلل منذ الاحتلال، وتحوّل جزءٍ كبيرٍ من رؤوس الأموال المحليّة، بل والأجنبية للاستثمار في القطّاع الصناعي[١]. بل إنّ الحكومة المصريّة – التي سيطر عليها كبار الملاّك منذ عهد الاحتلال - سعت لحماية الإنجازات الصناعيّة التي تحقّقت إبّان الحرب، حيث صدر قرارٌ خاصٌّ من مجلس الوزراء في ٨ مارس ١٩١٦م، بتكوين لجنة الصناعة والتجارة، وكان تقرير هذه اللجنة الذي صدر عام ١٩١٨م، بمنزلة الإعلان الشرعي لتحوّل البرجوازيّة المحلّيّة (طبقة كبار الملاّك) إلى برجوازيّة صناعيّة، وبالرغم من أن تشكيل اللجنة كان لا يضمّ إلاّ ثلاثة مصريين فقط؛ هم إسماعيل صدقي، وطلعت حرب، وأمين يحيي، فإنّ قرارات اللجنة جاءت لصالح المصريين، حيث وضعت دستورًا للتقدّم الصناعي والتجاري، أوصت فيه بتعديل نظام الجمارك، وإنشاء مدارس صناعيّة، وتخفيف الضرائب على الصناعات المحليّة، وخفض أسعار النقل بالسكك الحديدية، ومنح حق الأفضليّة للمصنوعات المصريّة في المناقصات الحكومية، وتقديم إعانات لبعض المشروعات الصناعية الهامة أو الخاصّة باستخراج المعادن، وأكّدت اللجنة أنّ مشكلة الوقود ليست عقبةً في سبيل تطوّر الصناعة المصريّة[٢]، وأنّ مصر بلد يمكن أن تفلح فيه الصناعة، بل أنّ في مصر مُتّسعًا لإنشاء صناعاتٍ جديدة؛ ولذا عُدّ تقرير لجنة التجارة والصناعة وثيقةً حيّةً في تاريخ مصر الاقتصادي، ونبذًا للبرجوازيّة المحليّة لفكرة الاعتماد على الزراعة وحدها كميدان للاستثمار، وتطلّعها إلى آفاقٍ استثماريّةٍ جديدةٍ في قطاعات التجارة والصناعة التي كانت حكرًا على رأس المال الأجنبي، على أنّ ارتيادها لهذه الإقطاعات كان بشراكةٍ مع رأس المال الأجنبي المُسْتوطِن، التي رأت فيه شريكًا يمكن العمل معه لتحجيم رأس المال الأجنبي الوافد[٣].

لكن علينا القول إنّ الحرب لم تؤثر على حجم ملكيّة الأجانب في الاقتصاد المصري، فظلّوا يستحوذون على أكثر من ٩٠٪ من رؤوس الأموال المستثمرة، وهو الأمر الذي دفع السير برونيات

١. وثائق مجلس النظار، تقرير لجنة الامتيازات ١٩١٨، وثيقة رقم ١٠٦٦.

٢. محمد صالح الفلكي: التسليف الصناعي في مصر، صحيفة التجارة والصناعة، العدد الثاني، السنة ٨، فبراير ١٩٣٢م، ص٢١٤

3. Robert L. Tignor, State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt, 1918-1952, Princeton University Press, 1984, p. 58.

في مقترحاته للجنة الامتيازات نوفمبر ١٩١٨م، بالمطالبة بإنشاء مجلس شيوخ لوضع التشريعات، يكن فيه تمثيل للبريطانيين والأجانب؛ وذلك لكونهم يسيطرون على الاقتصاد المصري[١]. انقضت الحرب، بعد أن أعطت لرأس المال المحلّيّ والأجنبيّ المُسْتوطِن، فرصةً للتراكم عند انفرادهما بالسوق المحليّة، ليصل رأس المال المحلّيّ الذي نشأ في أحضان رأس المال الأجنبيّ، إلى نقطة تحول كيفيّة تتجلّى في إنشاء بنك مصر على يد نخبه كبار ملّاك الأراضي[٢]. وتتحوّل البرجوازيّة المحليّة من زراعيّةٍ إلى صناعيّة.

٣. بنك مصر ونمو البرجوازيّة الصناعيّة المحليّة

لما وضعت الحرب أوزارها، حاول الغرب العودة إلى الحريّة الاقتصاديّة، فسرعان ما تدفّقت الصناعات الأجنبيّة إلى السوق المصريّة، ولم تصمد الصناعة المصريّة الوليدة أمامها، في ظلّ غياب الحماية الجمركيّة، وضعف القوة الشرائيّة في السوق المصريّة، بسبب احتدام الفقر في ظلّ ثبات الأجور عند معدلات ما قبل الحرب رغم التضخّم [٣]، واضطرت صناعاتٌ كثيرةٌ ناشئةٌ إلى إغلاق مصانعها وورشها. لكن حركة الجماهير في مارس ١٩١٩م، عمّقت الرغبة في تحقيق الاستقلال السياسيّ والاقتصاديّ؛ فمثّل عام ١٩٢٠م، عامًا حاسمًا بالنسبة للبرجوازيّة المحليّة، عندما نجحت في إنشاء بنك مصر، كأوّل محاولةٍ ناجحةٍ لرأس المال المحلّيّ في الصمود أمام الهيمنة الأجنبيّة، وقد أراد مؤسّسو البنك وفي طليعتهم طلعت حرب منع الأجانب من التسلل إليه، فجعلوا ملكية الأسهم قاصرةً على المصريين وحدهم، كما جعلوا اللغة العربيّة هي اللغة المستعملة في معاملاته وسجلاته، كما أنّ جميع العاملين بالبنك كانوا من المصريين باستثناء فردٍ أو اثنين من الخبراء الأجانب المؤقّتين. ولم يكن بنك مصر بنك تجاريًّا فحسب، وإنّما عمد إلى تجميع المدّخرات لإنشاء المشروعات الاقتصاديّة في صورة شركاتٍ مساهمةٍ مصريّةٍ مع الهبوط بقيمة السهم إلى أقلّ من نصف ما عليه في الشركات الأجنبيّة؛ وذلك لجذب صغار المستثمرين[٤].

ولعب الدور الرئيس في توجيه اهتمام المصريين في تلك الفترة لميادين استثماريّةٍ أخرى كان هو نفسه أسبق إليها ونجح فيها، وساعد البنك في إثبات وجوده أنّ أحوال الزراعة لم تكن تشجّع

١. عادل غنيم، ثورة يوليو والرأسمالية، ص١٦٧.

٢. محمد دويدار، الاقتصاد المصري بين التخلّف والتطوّر، ص٢١٨.

٣. أمين مصطفى عفيفي، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ص ٢٥٧.

٤. إيريك دافيز، طلعت حرب وتحدى الاستعمار: دور بنك مصر في التصنيع ١٩٢٠- ١٩٤١، ص ١٢٩ وما بعدها.

على استمرار الاستثمار فيها بالصورة التي كانت عليها من قبل، ومن ذلك مثلاً الأزمة القطنيّة من سنة ١٩٢٠م، حتّى سنة ١٩٢٢م، حيث ساعدت الأسعار المنخفضة للقطن على توجيه رؤوس الأموال نسبيًّا نحو الميدان الصناعيّ والخدمات. وعمد البنك إلى مدِّ يدِ العون للبرجوازيّة المصريّة بهدف تحويلها إلى مجال الاستثمار الصناعيّ. كما نجح في تحويل عددٍ من المنشآت الفرديّة وشركات الأشخاص إلى شركاتٍ مساهمةٍ، تعبيرًا عن الوعي الاقتصادي بكيفيّة إدارة الشركات[1]. كما لعب دورًا في نداءات السعيِ لتمصيرِ الشركات الأجنبيّة المسيطرة على اقتصاديّات البلاد عبر شراء أسهمها، بل طالب بفصل النظام النقديّ المصريّ عن النظام البريطانيّ وحماية الصناعة المصريّة عبر التعريفة الجمركيّة. وقد سار بنك مصر في خطّته وئيدًا حذرًا فيما يتعلّق بإنشاء الشركات حتى لا يعجل بالصدام مع المحتلّ؛ فبدراسة القرارات المؤسّسة للشركات التي أسّسها بين عامي (١٩٢٩/٢٠م) نجدها أمّا شركات تجاريّة وأمّا مؤسّسات ائتمانيّة أو صناعة قطنيّة تتعامل مع تصدير القطن مثل شركات مصر لحلج الأقطان، ومصر للغزل والنسيج المحلة الكبرى، ومصر لنسج الحرير حلوان، وشركة مصر للغزل والنسيج الرفيع كفر الدوار [2]. كما أنّه لم يشارك سوى عددٍ قليلٍ من المصريين (في مقابل المتمصّرين) في تأسيس هذه الشركات.

تطوّر بنك مصر في عقده الأول ١٩٣٠/٢٠ [3]

الشركة وسنة التأسيس	رأس المال المدفوع بالألف جنيه	النسبة المملوكة للبنك
مطبعة مصر ١٩٢٢	٥	٢.٤٣
شركة مصر للورق ١٩٢٣	٣٠	٧.٥٠
مصر لحليج الأقطان ١٩٢٤	٣٠	٥٠
مصر للنقل والملاحة ١٩٢٥	٤٠	٧٥
أستوديو مصر ١٩٢٥	١٥	٧.٦٦
مصر للغزل والنسيج ١٩٢٧	٣٠٠	٤٨
مصر لمصايد الأسماك ١٩٢٧	٢٠	٥٤

1. Robert L. Tignor, State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt, 1918-1952, p. 67.

٢. نوال قاسم، تطور الصناعة المصرية من عهد محمد علي حتى عبد الناصر، ص٣٥٧.

٣. بنك مصر، اليوبيل الذهبي ١٩٢٠/ ١٩٧٠م، ص ٣١٨.

مصر لنسيج الحرير ١٩٢٧	١٠	٦٥
مصر للكتان ١٩٢٧	١٠	٥٥
بنك مصر، سوريا، لبنان ١٩٢٩	١٦٠	٨٣
مصر لتصدير الأقطان ١٩٣٠	١٦٠	٥٠

وفي إطار اهتمام البرجوازيّة المصريّة بتنوّع مجالاتها، اتّجهت رموزها إلى تكوين غرفٍ واتّحاداتٍ لجمع شمل أصحاب رأس المال وتوعيتهم بمصالحهم ومصلحة المجتمع، وبالمجالات التي يجب أن يهتمّوا بالعمل فيها، وكانت أول غرفةٍ تجاريّةٍ مصريّةٍ قد أنشأت بمدينة القاهرة عام ١٩١٣م، إذ وضع أساسها جماعةٌ من تجّار العاصمة، ولكن قلّة خبرة المصريين في المجال التجاري جعلت دور الغرفة في ذلك الوقت غير واضحٍ، وابتداءً من سنة ١٩٢٠م، أخذت تنتشر فكرة إنشاء الغرف التجاريّة على نطاقٍ واسعٍ في معظم مديريات القطر، غير أنّ قانون الغرف لم يصدر إلاّ سنة ١٩٣٣م. وبذلك بدأت تتحرّك جانبًا لخدمة التجّار وللدفاع عنهم[١].

كما تأسس اتّحاد الصناعات المصريّة عام ١٩٢٢م، الذي عكس مصالح رأس المال الأجنبيّ المُسْتوطِن ورأس المال المحلّيّ، وتخوفهما من أنّ انقضاء الحرب يعنى إعادة فتح باب التعامل مع الخارج بما لديه من منتجاتٍ صناعيّةٍ تتمتع بجودةٍ أكبر وثمن أقل، ولم تكنْ الصناعة المحليّة تجد حماية من نظام التعريفة الجمركيّة المتّبع وقتها[٢]. ووضع الاتّحاد برنامجًا للعمل متشعّب النواحي استوحاه من توصيات لجنة التجارة والصناعة، وهذا البرنامج كان يرمي إلى تنفيذ وجوه الإصلاح التي كان يتعين البدء بها قبل غيرها لإقامة الصناعة المصريّة على أساس يسمح لقواها الكامنة بالظهور. ومع ذلك يجب أن نضع في الحسبان أنّ اتّحاد الصناعات لم يقم بدوره كاملاً في ترقية الصناعة المصريّة وتنميتها على الوجه المطلوب، وإنّما كثيرًا ما خضع لأهواء الأجانب، ودافع عن مصلحة طبقةٍ خاصّةٍ من المستثمرين في الصناعة، وحصر كلّ اهتمامه في زيادة الحواجز الجمركيّة، ورفع التعريفة، دون أن يعمل على مساعدة رجال الصناعة على تخفيض نفقات إنتاجهم، وكانت مطالب اتّحاد الصناعات ذات طابعٍ تجاريّ وليست ذات طابعٍ صناعيّ؛ بمعنى أنّها كانت تهتم بالإنتاج لهدف التجارة الربح وليس لهدف توفير مطالب صناعيّة، ويعاب على اتحاد الصناعات أيضًا وقوفه بصفةٍ دائمةٍ أمام كلّ تشريعاتٍ عماليّةٍ تعطي العمال حقوقًا، نظرًا لتمثيله لتلك النظرة

١. أسمهان مصطفي خليل، الرأسماليّة الوطنيّة في الاقتصاد المصري الموجّه ١٩٦١-١٩٧٤م، ص ٣٢.

٢. ماجدة بركة، الطبقة العليا بين ثورتين ١٩١٩ – ١٩٥٢، ص٦١.

الرأسماليّة ضيقة الأفق[١].

على كلّ حال، يمكن النظر إلى الفترة التي تلت الحرب العالميّة الأولى وحتّى تفشّي الكساد الكبير في العالم، بأنّه مرحلة مزاحمة رأس المال الوطني للأجنبي محاولاً خلق قطاعٍ صناعيّ مصريّ، ورغم تلك المجهودات، فإنّ الأجانب ظلّوا حتى عام ١٩٣٣م، يستحوذون على نحو ٨٥٪ من رأس المال المدفوع في الشركات العاملة في مصر[٢]. ولم تتراجع استثماراتهم إلاّ في قطّاع بنوك الرهن والودائع فيما ظلّ نصيبه مستقرًّا في الزراعة والصناعة والنقل، أي إنّه حافظ على سيطرته على القطاعات الإنتاجيّة، فيما كانت البرجوازيّة المحلّيّة خجولةً في مساهمتها وسعت للشراكة مع رأس المال الأجنبيّ وتجنّب الاصطدام به.

٤. تمدد البرجوازيّة المحلّيّة وأزمتها مع الإمبرياليّة الاقتصاديّة

روّع العالم أواخر العشرينيّات ومطلع الثلاثينيّات بأزمة اقتصاديّةٍ لم يعرف لها مثيلٌ من حيث عنفها وحدّتها، وهي أزمة الكساد الكبير، فجهدت كلّ أمةٍ في علاجها أو التخفيف من حدتها. تواكب اشتداد الأزمة مع تولّي إسماعيل صدقي رئاسة الوزراء [٣]، الرئيس السابق لاتّحاد الصناعات المصريّة وعضو لما لا يقلّ عن إحدى عشرة شركةٍ مساهمة، وصاحب العلاقة الوثيقة بالبرجوازيّة المحلّيين على اختلاف شرائحها [٤]؛ لذا عمد الرجل – من واقع انتمائه الطبقي - لاغتنام الفرصة عام ١٩٣٠م، من أجل تعديل التعريفة الجمركيّة، وفرض ضرائب قد تكون مانعةً على الواردات التي يمكن للدولة إنتاج مثلها[٥]. وقد روعي في النظام الجمركي الجديد عدّة أمور:

- **زيادة موارد الخزانة؛** ولهذا رفعت الرسوم على أدوات الترف والمشروبات الروحيّة والعطور والدخان، بينما فرضت رسوم معتدلة على المواد الغذائيّة.
- **تشجيع إنتاج البلاد الزراعي والصناعي** وذلك بخفض الرسوم على المواد الأولية والآلات اللازمة للصناعة.

١. محمود متولي، الأصول التاريخيّة للرأسماليّة المصريّة وتطورها، ص ١٢٦.

2. Esmail Hosseinzadeh, An evaluation of the theory of non-capitalist development: The case of Nasser's Egypt, PhD, New School for Social Research, 1987. P.103

3. ( )Malak Badrawi, Isma'il Sidqi, 1875-1950 Pragmatism and Vision in Twentieth Century Egypt, London, 2014, pp. 52, 60.

4. ((FO 407/213, No. 138, Loraine to Henderson, June 17, 1931.

٥. جمال الدين محمد سعيد، اقتصاديات مصر، ص ٤٢.

ـ **تشجيع التصدير بإلغاء أيّ ضريبةٍ على الصادرات ما عدا القطن وبذرته**، مع فرض ضرائب مانعة على المواد الخام المصدّرة التي تحتاج إليها الصناعات المحلّيّة، مثل الجلود لتشجيع صناعة الدباغة والصناعات الجلديّة.

ـ **مراعاة التدرّج في فرض الضريبة حسب حالة السلعة**؛ فإذا كانت خامًا فرضت ضريبة منخفضة، وإذا كانت نصف مصنوعة كانت متوسطة، والمصنوعات تكون ضريبتها عالية [١].

وبذلك سمح القانون الجديد في إضعاف سيطرة رأس المال الأجنبيّ على الاقتصاد المصريّ التابع، وبدأت البرجوازيّة المصريّة تعيد النظر في السياسة الاقتصاديّة، نحو مزيدٍ من الاكتفاء الذاتيّ وتنويع الإنتاج والتصنيع، بشكلٍ أفسح المجال لرأس المال المحلّيّ لإنشاء بعض الصناعات، مستغلاًّ أيضًا تخفيف بريطانيا قبضتها على الاقتصاد المصريّ، مدفوعةً بتداعيات الأزمة العالميّة، والتوترات الدوليّة في أوربا فترة الثلاثينيّات [٢].

ولقد سمحت التعريفة الجمركيّة بتوفير حماية للمنسوجات القطنية المحلية، بعد فرض رسوم ١٥٪ على المنسوجات المستوردة، بل رُئي أن هذا لا يكفي لحماية الصناعة المحلية، فزيد حتى وصلت إلى ٤٠٪ على المنسوجات اليابانية تحديدًا، في ظل تخوف المحتل والبرجوازية المحلية من سيطرة اليابان على السوق المصرية، بل اضطرت الحكومة المصرية إلى إلغاء الاتفاقية التجارية المبرمة مع اليابان رضوخًا لسلطة المحتل [٣].

وفي عام ١٩٣٠م وصلت الديون العقاريّة إلى أعلى مراحلها، إذ بلغت قيمتها ثلاثين مليونًا من الجنيهات بضمان أراضٍ بلغت مساحتها ٣٣٤٠٠٠٠ فدَّانًا، أيْ ما يعادل تقريبًا أراضي مصر كلّها، فيما عدا أراضي الوقف والملكيات الصغيرة التي خضعت لقانون الخمسة أفدنة. ومن المُلاحَظ أنّ صفوة كبار المُلَّاك في مصر كانوا مثقلين بالديون العقاريّة، إذ كانت أراضيهم مرهونةً لأكثر من بنك، ولأكثر من بيتٍ ماليّ، ولأفراد من المُموِّلين، ولقد حمل هؤلاء لواء المطالبة بتدخّل الحكومة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أملاكهم المرهونة والمعروضة للبيع في المزادات في حالة عجزهم عن السداد. واستجابةً لدعوات كبار المُلَّاك المَدينين، تدخّلت الحكومة لشراء الأراضي المعروضة للبيع الجبري بالمزاد، على أن يكون هذا التدخّل عن طريق الشركة العقاريّة المصريّة - إحدى

١. أمين مصطفى عفيفي، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

2. Robert L. Tignor, State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt, 1918-1952, p.

3. F.O 371/J178, Increase of Egyptian Customs on cotton textless ,Apr.1938

شركات بنك مصر- التي تتولى إدارة تلك الأطيان بعد شرائها حتى تجد مشتريًا لها بثمنٍ مناسبٍ، مع إعطاء المَدين الأصلي وعائلته وأهل منطقته حقَّ الأولويّة في الشراء خلال السنوات الخمس التالية لانتقال ملكيّة الأرض إلى الشركة، وتكون الشركة بعد ذلك حُرّةً في البيع لمَن تشاء؛ بشرط أن يكون المشتري مصريًّا في كلّ الأحوال [١].

كما حاولت الحكومة المصريّة التخفيف من حدّة أزمة الكساد على الزرّاع وبصفةٍ خاصّةٍ صغارهم، من خلال إنشاء بنك التسليف الزراعي الذي قدّم للفلاحين ما يحتاجون إليه من أموالٍ بسعر فائدةٍ منخفضٍ، كما وزّع البنك البذور الجيدة والأسمدة الكيماويّة مقابل خصمها من أثمان المحاصيل عند بيعها، ولقد أسهمت تلك الخطوة في انخفاض ظاهرة نزع أراضي الفلّاحين الغارمين من ٣٤٩١١ فدان عام ١٩٣١م، إلى ١٢٥٦٠ فدان عام ١٩٣٩م[٢]. لكن البنك الذي أنشأ من أجل صغار الملّاك ممّن يمتلكون أقلّ من خمسة أفدنة، تسلل إليه كبار الملّاك واستفادوا بشكلٍ كبيرٍ من تسهيلاته.

كما سمحت ظروف الثلاثينيّات وارتفاع حدّة التوترات الدوليّة، في جعل مصر أكثر حريّةً في علاقاتها التجاريّة؛ لذا بدأ يتضاءل مركز بريطانيا تدريجيًّا في تجارة مصر الخارجيّة، فتراجعت صادرات مصر إليها من ٣٧,٦٪ عام ١٩٢٨م، إلى ٣٠,٩٪ عام ١٩٣٧م، في الوقت الذي ارتفعت صادرات مصر إلى ألمانيا واليابان من ٩٪ إلى ١٥٪ في المدّة نفسها. وفيما يتعلّق بالواردات فقد حافظت بريطانيا على حصّتها من الواردات المصريّة عند ٢١,٧٪ بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٧م، فيما قفزت الواردات الألمانية اليابانية إلى مصر من ١١٪ إلى ١٥,٥٪ [٣].

ولقد كانت فترة الثلاثينيّات فرصةً لنمو المشروعات الصناعيّة التي كان يراعاها بنك مصر، فقد تم تأسيس سبع شركاتٍ جديدةٍ والتوسّع في عددٍ من الشركات القائمة، فتأسّست أوّل شركةٍ مصريّةٍ للنقل الجوي، وهي مصر للطيران، وفي العام نفسه أسّس البنك شركة بيع المصنوعات المصريّة، ولا سيّما المنسوجات. وفي عام ١٩٣٤م، أسّس البنك أربع شركات: مصر للتأمين، ومصر لصناعة دبغ الجلود، ومصر للملاحة البحريّة، ومصر للسياحة. ومن المؤشّرات على النجاح الكبير الذي حقّقه البنك ارتفاع رأس مال كبرى شركاته، مصر للغزل والنسيج من ٣٠٠ ألف جنيه عام ١٩٢٧م،

١. رؤوف عباس وعاصم الدسوقي، كبار الملاك والفلاحين في مصر ١٨٣٧-١٩٥٢، ص ١٦٣، ١٦٤.

٢. إيريك دافيز، طلعت حرب وتحدى الاستعمار: دور بنك مصر في التصنيع، ص ١٦٥، ١٦٥.

3. F.O 371/J1121 Egyptian measures regulating the cotton market ,memo ,March 1939.

إلى مليون جنيه عام ١٩٣٦م[1]. لكن البنك وهو يتمدّد في ترسيخ الصناعة المصريّة ارتكب خطأين كانا كفيلين بتعرّضه لأزمةٍ عنيفةٍ انتهت بالإطاحة بمؤسّسه طلعت حرب وتحجيم دوره في الاقتصاد المصري:

أولًا: اتّجه البنك إلى الاعتماد بصورةٍ كبيرةٍ على الدولة وعلى الهياكل التقليديّة لتحقيق سياسته، وأدّى هذا التحوّل من الاعتماد على دعم جموع الشعب إلى الاعتماد على الحكومة المصريّة وعدد معين من عائلات الأعيان إلى القضاء على الحماس الذي كان موجودًا للبنك، لدى قطاعات الحركة الوطنيّة وتراجع صورة البنك كممثلٍ لمصالح الشعب بأكمله، ليصبح تدريجيًّا أكثر التصاقًا بالعناصر المحافظة من ملّاك الأراضي [2]. والحقيقة أنّ فترة ما بين الحربين قد شهدت تداخلًا بين البيروقراطيّة والرأسماليّة المصريّة والأجنبيّة، حيث اتّجهت بعض الشركات الأجنبيّة والمصريّة إلى تعيين بعض الوزراء وكبار الموظّفين وكذلك بعض النوّاب في مجالس إدارتها، فمثلًا كان حافظ عفيفي عضوًا في مجالس إدارات ٣٣ شركة وإسماعيل صدقي كان عضوًا في مجالس تسع شركاتٍ على الأقل. وكان الهدف معلومًا، وهو الحصول على التسهيلات الإداريّة.

ثانيًا: شراكة البنك مع الرأسماليّة الأجنبيّة وبالتحديد البريطانيّة، وقد بدأ الأمر بالاستعانة بالخبراء الغربيين ثم إلى قبول شراكة رأس المال الأجنبيّ في تأسيس شركاتٍ مساهمةٍ، جاء ذلك عام ١٩٣٧م، عندما دخل شارك شركة صبّاغي برادفورد الإنجليزيّة لإنشاء شركةٍ لصباغة وتبيض المنسوجات. وعلى الرغم من أنّ البنك رام من شراكة المحتلّ اتقاء غضبه، فإنّ بريطانيا لم تكن مرتاحةً إلى وجود هذا الاستقلال الاقتصادي لمصر، بعد أن بلغ بنك مصر مكانةً عظيمةً، وأقام له فروعًا داخل البلاد، حتى بات منافسًا للبنك الأهلي المصريّ الذي يسيطر عليه الإنجليز وبنك باركليز، ومن هنا فقد دبّت الغيرة في نفوس منافسيه الذين تبيّنوا في عطف الأمّة عليه والأخذ بنصرته خطرًا يهددهم. ولم يكن الحاقدون على البنك من الأجانب فقط، بل من الرأسماليّة المحليّة المصريّة التي شهدت تنافسًا حادًّا فيما بينها منذ الحرب العالمية الأولى[3]؛ لذا عمد رأس المال الأجنبي المتحكّم في الاقتصاد المصريّ والمحمي من قبل سلطة الاحتلال، إلى استغلال هذا الانقسام، فعمل مع عناصر الرأسماليّة الكمبرادوريّة مجموعة

1. Clement Levy (Ed.). The Stock Exchange Year-Book of Egypt 1937, Cairo, 1966, pp, 40, 440

٢. إيريك دافيز، طلعت حرب وتحدى الاستعمار: دور بنك مصر في التصنيع،، ص ١٢٤.

3. Robert Vitalis, When Capitalists Collide: Business Conflict and the End of Empire in Egypt, London, 1995, p.120.

عبود باشا وحافظ عفيفي في استغلال ارتفاع حدّة القلق لدى المودعين من أجل وضع بنك مصر في اختبارٍ صعبٍ حيك بعناية[١]. فعندما اضطربت الحالة الدوليّة في صيف عام ١٩٣٩م هرع أصحاب الودائع إلى سحب ودائعهم من البنك وخاصّة عملاء صندوق توفير البريد لدى البنك وكذا صندوق توفير البريد الحكومي الذي قام بالتركيز على سحب ودائعه من بنك مصر على وجه الخصوص رغم أنّ له ودائع في البنوك الأخرى لم يقم بسحبها وهو الأمر الذي يدعو إلى الدهشة؛ ممّا يفسر الدور الحكومي في أزمة البنك [٢]. وما يكشف ذلك، أنّ رئيس البنك طلعت حرب لجأ إلى حسين سري وزير الماليّة وإلى البنك الأهلي من أجل الاقتراض منهما، لحلّ أزمة السيولة، فرُفض طلبه. وجاء عرض وزير الماليّة لحلّ الأزمة ليكشف المؤامرة التي شاركت فيها الحكومة سلطة الاحتلال مع عناصر من الرأسمالية الكمبرادوريّة مجموعة عبود باشا، عندما اشترط سري باشا لمساعدة البنك، خروج طلعت حرب من رئاسة بنك مصر وفصل شركات بنك مصر عن البنك تمامًا بحيث يصبح بنكًا تجاريًّا فقط. وبالفعل خرج طلعت حرب وتولّى حافظ عفيفي القريب من الاحتلال رئاسة البنك بعد أن صار بنكًا تجاريًّا.

وهكذا مرّ بنك مصر بمرحلتين: مرحلة العشرينيّات حيث غلبت روح الاستقلال عليه وكانت المؤشرات تُنبّئ بإمكانيّة ميلاد برجوازيّةٍ وطنيّةٍ مستقلّة، ومرحلة الثلاثينيّات التي وجد فيها بنك أنّه لا مفرّ من الارتباط برأس المال الأجنبيّ من أجل تأسيس مؤسّساتٍ صناعيّةٍ كبرى مثل مصر للطيران وغيرها. وعليه لم يعد بنك مصر في أواخر الثلاثينيّات من القرن الماضي وطنيًّا مستقلًّا، وبالتالي فقد سبّب وجوده الأصلي، كأداةٍ لتصفية التبعيّة الاقتصاديّة [٣]. وبذلك دفع بنك مصر ثمن تناقضه بين أهدافه كمؤسّسةٍ رأسماليّةٍ تهدف لتوسيع حجم قوتها الاقتصاديّة ممّا يجعلها تقبل شراكة رأس المال الأجنبي والحكومة التي يسيطر كبار الملّاك وبين أهداف الحركة الوطنيّة التي كانت تسعى إلى تخليص مصر اقتصاديًّا من قبضة الاحتلال البريطاني؛ وبذلك تكون فترة الثلاثينيّات قد أسهمت في انتقال شريحةٍ من البرجوازيّة المحلّيّة إلى تصنيع، لكنّه كان مبعثرًا وقائمًا على تعويض الاستيراد

يشير ماريوس ديب Marius Deeb يشير إلى أن رأس المال المُسْتوطِن قد شهد مثل هذه الانقسامات أيضًا وهذا ما ظهر في خلافهم حول قانون التعريفة الجمركية الذي عارضه الإنجليز وشجعه البلجيك والفرنسيون.

Marius Deeb, The Socioeconomic Role of the Local Foreign Minorities, p.19.

١. أحمد الشربيني، الاقتصاد المصري بين التبعيّة والاستقلال، ص ٩٣.

٢. فؤاد مرسى ، البنك الأهلي وبنك مصر وقضية السيطرة الاستعمارية، مجلة الطليعة، س٢،ع٥، ١٩٦٦، ص٩٤ وما بعدها.

3. ( ) Marius Deeb, Bank Misr and the Emergence of the Local Bourgeoisie in Egypt, p.82.

بصناعةٍ داخليّة، غلب عليها الطابع الاستهلاكيّ الباحث عن العائد السريع، في ظلّ هيمنة رأس المال الأجنبيّ الذي سيطر على مساحةٍ كبيرةٍ في الاستثمارات الجديدة ما بعد الحرب.

٥. الاقتصاد المصريّ من الحرب العالميّة الثانية وحتى الثورة

اشتعلت الحرب العالمية الثانية بعد أن حقّقت الرأسماليّة المصريّة مكسبين مهمين، تعديل نظام التعريفة الجمركيّة وإلغاء الامتيازات الأجنبيّة ١٩٣٧م، وأسهمت الحرب في تحقيق رواجٍ اقتصاديّ ولا سيّما في القطّاع الصناعيّ، حيث اتّجهت رؤوس الأموال المحليّة للمشاركة بقوةٍ في مجال التصنيع[١]، وفي حين أنّ الحرب اشتعلت في ظلّ تفاقم أزمة بنك مصر التي أدّت إلى شلّ قدرات البنك في مجال التصنيع، فإنّها في الوقت نفسه سمحت لشرائح أخرى من عناصر الرأسماليّة الكومبرادوريّة المرتبطة برأس المال الأجنبيّ بتوسيع نشاطهم [٢]. وبلغت مساحة ما أسهمت به الرأسماليّة المحلّيّة نحو ٨٧٪ من مجموع الأموال المستثمرة أثناء الحرب [٣]. وبذلك تكون الحرب قد أفادت الرأسماليّة المصريّة في تدعيم مركزها الماليّ وقوّتها الاقتصاديّة. في المقابل، اضطربت سوق القطن بعد نشوب الحرب، فتدخلت الحكومة وأمرت البنوك بتقديم قروضٍ للزرّاع بضمان أقطانهم ومواردهم، وألغت ضريبة الصادر، وبرغم هذه التدابير وغيرها هبطت أسعار القطن إبّان الحرب.

ولقد سعت مصر للاستفادة من عالم ما بعد الحرب في تدعيم استقلالها الاقتصادي، ومن ذلك الانضمام إلى صندوق النقد الدولي، وكان هذا الانضمام يعنى الدخول في نظام بريتون وودز، حيث تحديد صرف العملات على أساس الدولار الأمريكي؛ مما يعنى الخروج من منطقة الإسترليني وهو ما تم عمليًا عام ١٩٤٧. ولتعزيز استقلال النقد المصري، أقدمت الحكومة المصرية على تغيير نظام الغطاء النقدي للعملة المصرية، وإحلال أذونات الخزانة المصرية محل أذونات الخزانة البريطانية في تغطية أوراق البنكنوت المصرية، مع التوسع في شراء الذهب والعملات قابلة التحويل بالذهب [٤].

ومن أهمّ المحطات الاقتصاديّة إبّان الحرب العالميّة الثانية، نجاح مصر في إسدال الستار على

1. Ragaei W. El Mallakh, The effect of second world war on the economic development of Egypt, PhD, New Jersey, 1955, P.172.

٢. محمود عبد الفضيل، الاقتصاد المصري بين التخطيط المركزى والانفتاح، ص ٦٦.

٣. راشد البراوى، حقيقة الانقلاب الأخير، ص ٦٢.

٤. أحمد الشربيني، الاقتصاد المصري بين التبعيّة والاستقلال، ص ٩٥.

ملف ديونها الخارجيّة، وتصفية صندوق الدين بعد ثمانين عامًا من تأسيسه، فعلى الرغم من العجز في الميزان التجاري المتولّد خلال سنوات الحرب، بسبب انخفاض صادرات القطن، جاء الإنفاق العسكريّ لقوات الحلفاء في مصر فعوَّض هذا العجز وزاد عليه، بأن أصبحت مصر دائنةً لبريطانيا، فيما عرف بالأرصدة الإسترلينيّة [١]، حيث قام البنك الأهلي المصري أثناء الحربين بإصدار أوراق النقد المصريّ، مقابل التغطية بسنداتٍ على الخزانة الإنجليزيّة يحتفظ بها بنك إنجلترا بصفته البنك الرئيس للبنك الأهلي[٢]. وقد سهّل هذا القرار مهمّة تمويل الجيوش المتحالفة في مصر؛ إذ أصبح بإمكان الحكومة البريطانيّة - كلما احتاجت إلى كميّةٍ معينةٍ من البنكنوت المصري للإنفاق على جيوشها في مصر أو في البلاد التي تقبل العملة المصريّة - أن تقدّم للبنك الأهلي المصري أذونات على الخزانة البريطانيّة تعادل قيمة البنكنوت المطلوب، فيحتفظ البنك الأهلي بهذه الأذونات في قسم الإصدار، ويصدر البنكنوت ويقدمه للحكومة البريطانيّة التي تتولى عندئذ إنفاقه؛ وعليه، لا يصحّ النظر إلى عملية إقراض بريطانيا بوصفها مظهرًا من مظاهر الاستقلال الاقتصادي، بقدر ما هي استجابةٌ قسريّةٌ فرضتها سلطة الاحتلال على الحكومة المصريّة. ولقد ماطلت بريطانيا في سداد تلك الديون، التي قُدّرت بنحو ٤٠٠ مليون جنيه استرليني، وهو رقمٌ هائلٌ بمعايير ذلك الزمن، إذ يعادل ما لا يقلّ عن ٥٠ مليار جنيه استرليني في الوقت الراهن إذا احتسبنا معدّلات الفائدة أو حتى معدّلات التضخّم خلال الفترة من عام ١٩٤٥م، وحتى الآن.

وبعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية ساءت الأحوال الاقتصاديّة وخاصّة الأحوال الصناعيّة؛ إذ قلّ الطلب في الأسواق عن العرض نتيجة رحيل جيوش الحلفاء وفتح الاستيراد من الخارج؛ ممّا أدى إلى كساد الصناعة المصريّة فأغلقت الكثير من المصانع، وقامت بتسريح عددٍ كبيرٍ من العمّال [٣]. ولكن سرعان ما شرعت الحكومة المصريّة في زيادة التعريفة الجمركيّة مجدّدًا، وفرض قيودٍ على الاستيراد لحماية الصناعة المحليّة، بل إنّ إلغاء الامتيازات الأجنبيّة عام ١٩٤٩م، سمح بتعديل نظام الضرائب وزيدت بنسبة تتراوح بين ١٢ و١٣٪ في سنوات ما بعد الحرب على الأملاك المنقولة والأرباح التجاريّة. بل إنّ الحكومة مدفوعةً بالحراك الوطني لجأت إلى تأميم بعض الشركات مثل شركة النور في القاهرة،

١. جلال أمين، قصة الاقتصاد المصري، ص ٤٥.

٢. محمد فهمي لهيطة: الأرصدة الأسترلينية ومركز البنك الأهلي المصري منها، مجلة المقطم، ع ١٨٩١٨، س ٦٢، ٣٠أبريل ١٩٥٠م، ص٥.

٣. وثائق عابدين، محفظة ٥، مذكرة مرفوعة لمجلس الوزراء بشأن تجديد العمل بالقانون رقم ٨٨ لسنة ١٩٤٤.

وارتفعت الأصوات المطالبة بإلغاء امتيازاتٍ نفطيّةٍ كانت قد حصلت عليها شركاتٌ أجنبيّة [١].

ويمكن النظر لأهم إنجازات الاقتصاد المصريّ ما بعد الحرب نحو الاستقلال من خلال أمرين: تأسيس بنك التسليف الصناعي، الذي أسهمت الحكومة فيه بنسبة ٥١٪ من رأس ماله البالغ ١,٥ مليون جنيه، واستطاع البنك أن يقدّم قروضًا بقدر رأس المال الذي تأسس به في الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢ [٢]. وكالعادة سعت البرجوازيّة المصريّة للاستفادة من هذا القانون على حساب صغار الصنّاع.

كما صدر قانون الشركات عام ١٩٤٧م، الذي يُعدّ خطوةً كبيرةً على طريق تمصير الصناعة المصريّة؛ حيث نصّت المادّة الرابعة من القانون على وجوب أن يكون ٤٠٪ على الأقل من أعضاء مجلس إدارة أيّ شركةٍ مساهمةٍ من المصريين، وإلّا بطلت جميع قراراته، ونصّت المادّة الخامسة أنّه يجب ألّا يقلّ عدد المصريين المستخدمين في الشركات المساهمة عن ٧٥٪ من مجموع المستخدمين، كذلك لا يجوز أن يقلّ عدد العمال المصريين عن ٩٠٪ من مجموع العمّال، كما أكّد القانون في مادّته السادسة على تخصيص ٥١٪ على الأقل من أسهم الشركة المساهمة للمصريين سواء عند تأسيس الشركة أو عند زيادة رأس المال. ولقد عمد الأجانب للتحايل على هذا القانون عبر الحصول على الجنسيّة المصريّة، أو تعيين الباشوات المصريين في مجالس الإدارات ليكونوا واجهةً فقط يستتر خلفها نشاطهم وغير من الحيل [٣].

أمّا ما يتعلّق بوضع الاستثمارات في مصر في تلك الفترة التي أعقبت الحرب الثانية وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، فقد حدث ارتفاعٌ تدريجيٌّ في نصيب رؤوس الأموال المحليّة في الشركات التي أقيمت بعد الحرب، حتى أنّ نسبة الاستثمارات المحليّة قفزت من ٩٪ سنه ١٩١٤ إلى ٤٠٪ سنه ١٩٥٠م [٤]. كما شهدت تلك الفترة ارتفاع نسبة رأس المال الأجنبي المُسْتوطِن لحساب رأس المال الأجنبي الوافد، الذي بات لا يشكّل أكثر من ١٩٪ من إجمالي الاستثمارات الأجنبيّة بعد الحرب [٥]. ويرصد

١. أحمد الشربيني، الاقتصاد المصري بين التبعيّة والاستقلال، ص ١٢٠.

٢. سحر حسن أحمد، تطور الصناعة في مصر ١٩١٤- ١٩٥٢، مجلة كلية البنات للآداب، ع ١٢، مج ٤، جامعة عين شمس،٢٠١٤، ص ٩٨٨.

٣. الوقائع المصرية، تنظيم بعض الأحكام الخاصة بالشركات المساهمة، ع ٧٢، ٤ أغسطس ١٩٤٧، ص ١.

٤. أمين مصطفي عفيفي عبد الله، تاريخ مصر الإقتصادي والمالى في العصر الحديث، ص ٤٩٦.

٥. راشد البراوى، حقيقة الانقلاب الأخير، ص ٦٦.

الشكل التالي مجموع رؤوس الأموال الأجنبيّة المستثمرة في مصر في المدّة (١٩٣٣-١٩٤٨)[١].

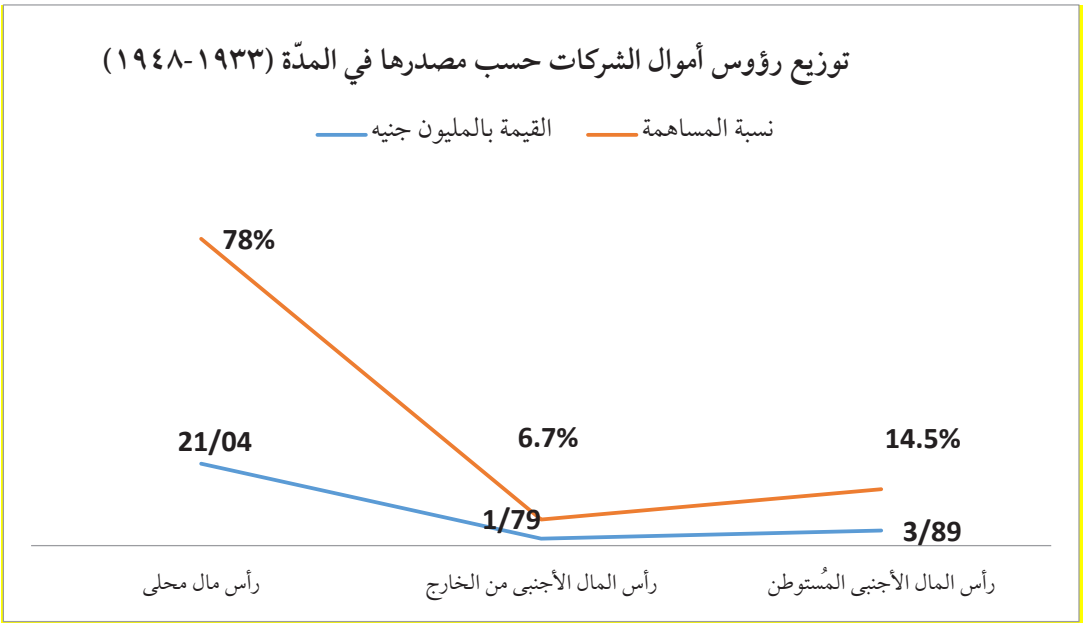

كما كانت تلك المدّة شاهدةً على زيادة الترابط بين رأس المال المحلّيّ والأجنبيّ بشكلٍ مطّرد، وإن كانت صلات التعاون مع مجموعة بنك مصر كانت أقلّ من الجناح الكومبرادوري الممثّل بشكلٍ كبيرٍ في اتّحاد الصناعات وشخصيّات مثل محمد فرغلي وأحمد عبود وعلى يحيى[٢]. وهذا يفسّر الجدل الذي أُثير حول قانون الشركات عام ١٩٤٧م، الذى اشترط أن يكون نصيب رأس المال المصري في الشركات المساهمة لا يقلّ عن ٥١٪، وتأييد مجموعة بنك مصر مقابل معارضة الكمبرادوريين[٣].

١. المصدر نفسه، ص ٦٢.

٢. للمزيد راجع دراسة ماريوس ديب

Marius Deeb, Bank Misr and the Emergence of the Local Bourgeoisie in Egypt, Middle Eastern Studies, Vol. 12, No. 3, Special Issue on the Middle Eastern Economy Oct., 1976, pp. 69-86.

٣. عبد العظيم رمضان، صراع الطبقات في مصر، ص ١١٦. وإن كان الدكتور رمضان يعتقد أن التيار الذي ناصرا قانون ١٩٤٧ والممثل في مجموعة بنك مصر، كان رافضًا بالكلية للاستثمارات الأجنبية، وهو ما لا أتفق معه فيه.

الخاتمة

أظهرت فترة الحرب العالميّة الثانية وما بعدها الصفة الاحتكاريّة للرأسماليّة المصريّة والأجنبيّة، وكان ذلك واضحًا، في صناعة السكّر والأسمنت، والتقطير، والأسمدة [١]. بل إنّ الصفة الاحتكاريّة تظهر في استغلال ظروف الحرب، فتم رفع الأسعار مضاربةً على عدم القدرة على استيرادها[٢]. ولعلّ هذه الصفة تحديدًا هي المسؤول عن ظهور ما عرف بالمسألة الاجتماعيّة، وهي خللٌ في توزيع الثروة وغياب للعدالة الاجتماعيّة؛ فإذا أمعنا النظر في كيفيّة توزيع الدخل القومي عام ١٩٤٥م لوجدنا أنّ ٦١٪ من هذا الدخل يذهب إلى الرأسماليين وكبار الملاّك؛ في صورة إيجارات وأرباح وفوائد. فقد قُدّر الدخل القوميّ لهذا العام بمبلغ ٥٠٢ مليون جنيه، ذهب منه ما يزيد على ٣٠٨ ملايين على شكل إيجاراتٍ وأرباحٍ وفوائد، بينما نجد متوسّط أجر العامل الزراعيّ في العام لا يزيد على أربعة عشر جنيهًا، وإذا أخذنا في الاعتبار ارتفاع تكاليف المعيشة لكان الأجر الحقيقي للعامل الزراعي لا يتجاوز ثلاثة جنيهات في العام [٣].

لقد أثبتت تجربة الاقتصاد المصريّ أنّ المجتمع المصري كان قادرًا في ظلّ الاحتلال على إنتاج فائض؛ أي إنتاج رأس المال. كلّ ما في الأمر أنّ الفائض يوجد إمّا لتمويل حروب بريطانيا وإما لتحويله إلى خارج مصر لمصلحة رأس المال الأجنبيّ أو لاستهلاكه استهلاكًا عشوائيًّا بوساطة بعض فئات المجتمع في الداخل [٤]. كما أنّ الاستثمارات الأجنبيّة – طيلة الفترة - لم تسهم في تغيّرٍ فعّالٍ داخل هيكل الاقتصاد المصري الذي ظلّت الزراعة والخدمات تستقطبان نحو ٧٥٪ من حجم الأيدي العمالة، بينما لم تحظَ الصناعة بأكثر من ٨,٥٪. كما أنّ حركة التصنيع التي نشأت بعد الحرب العالميّة الأولى لم تكن مدروسةً وركّزَت على الصناعات الاستهلاكيّة [٥]. ويرجع ذلك لكون الرأسماليّة المحليّة التي نشأت في ركاب الاستعمار كان تتسم بالطابع الطفيلي، فلقد تعمّق انفصال الملكيّة الرأسماليّة لوسائل الإنتاج عن إدارتها الفعليّة. وجعلت تلك الطبقة من ريع

---

١. أنور عبد الملك، المجتمع المصري والجيش ١٩٥٢- ١٩٧٣، ص٤١

٢. فؤاد مرسى ،الأعباء الاقتصاديّة للحرب العالميّة الثانية، الطليعة، س ٣، ع٩، ١٩٦٨، ص٤٨.

٣. رؤوف عباس حامد، جماعة النهضة القوميّة، ص ١٠، ١٥.

Issawi, Charles: Egypt at mid – century, Oxford 1954 P. 140

٤. محمد دويدار، الاقتصاد المصري بين التخلّف والتطور، ص٢٤٨.

٥. حسن محمد ربيع، مصريين عهدين بحث اقتصاد واجتماعي وسياسي عن مصر، ٨٢ وما بعدها.

الأسهم والسندات مَعَشها، وصارت الأنشطة الطفيليّة كالمضاربة ونحوها مسلكها، مستغلَّةً ضعف الضرائب المفروضة على نشاطها. فمع نهاية الحرب الثانية بلغ الدخل القومي ٥٠٢ مليون جنيه كانت حصيلة الإيجارات والفوائد والأرباح ٣٠٨ مليون جنيه، وهى عوائد الرأسماليين[١]. كل ما أسهمت فيه الاستثمارات الأجنبيّة، هو تشويه الاقتصاد المصريّ وخلق مجموعةٍ غير متكاملةٍ من الهياكل الاقتصاديّة، وهي ما تمثّلت في هيكلٍ استعماريّ أجنبيّ، وهيكلٍ رأسماليّ كبيرٍ ارتبط بسابقه الأجنبي، وثالثٍ إقطاعيّ في الزراعة، وآخر رأسماليّ صغيرٍ ضمّ أصحاب الحرف وصغار التجّار والفلّاحين، ومن ثم سادت علاقاتٌ اقتصاديّةٌ رأسماليّةٌ في إطارٍ من التبعيّة الاستعماريّة[٢].

١. فؤاد مرسى، الأعباء الاقتصاديّة للحرب العالمية الثانية، ص ٤٩.

٢. فؤاد مرسى مفهوم التنمية الاقتصاديّة واتجاهاتها، الطليعة، س ١١، ع١١، ١٩٧٥، ص ٢٨.

المصادر والمراجع

الوثائق

١. وثائق مجلس النظّار، تقرير لجنة الامتيازات ١٩١٨، وثيقة رقم ١٠٦٦.

٢. وثائق عابدين، محفظة ٥، مذكرة مرفوعة لمجلس الوزراء بشأن تجديد العمل بالقانون رقم ٨٨ لسنة ١٩٤٤

3. FO 407/213, No. 138, Loraine to Henderson, June 17, 1931.

4. F.O 371/J1043/J178, Increase of Egyptian Customs on cotton textless ,Apr.1938

5. F.O 371/J1121 ,Egyptian measures regulating the cotton market , March 1939

الدراسات العربيّة والمُعرّبة

٦. إ. كراوتشي، التنمية الاقتصاديّة لمصر الحديثة، ترجمة محمد مدحت، القاهرة ٢٠١٤م.

٧. إبراهيم عامر، الأرض والفلاح، مطبعة الدار المصريّة، القاهرة، ١٩٥٨م.

٨. أحمد الشربيني، الاقتصاد المصريّ بين التبعيّة والاستقلال، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٩. إسماعيل محمد زين الدين، الزراعة المصريّة في عهد الاحتلال البريطانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٠. أسمهان مصطفي خليل، الرأسمالية الوطنيّة في الاقتصاد المصري الموجّه ١٩٦١-١٩٧٤، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ٢٠١٥.

١١. أمين مصطفي عفيفي عبدالله، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، الأنجلو مصريّة، ١٩٥٤م.

١٢. أنور عبد الملك، المجتمع المصريّ والجيش ١٩٥٢- ١٩٧٣م، دار المحروسة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

١٣. إيريك دافيز، طلعت حرب وتحدي الاستعمار: دور بنك مصر في التصنيع ١٩٢٠- ١٩٤١م، ترجمة هشام سليمان، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩م.

١٤. تقرير لورود كرومر عن الإدارة والماليّة والحالة العموميّة في مصر والسودان ١٩٠٥م، مجلة المقطم ١٩٠٥م.

١٥. جاد لبيب، بناء الاقتصاد المصريّ والعلاقات الاقتصاديّة والماليّة بين مصر وإنجلترا، مكتبة الأنجلو المصريّة، ب ت.

١٦. جرجس حنين ،الأطيان والضرائب في القُطر المصري، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٩٠٤م.

١٧. جلال أمين، قصة الاقتصاد المصريّ، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠م.

١٨. جمال الدين محمد سعيد، اقتصاديات مصر، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١م.

١٩. جون مارلو، تاريخ النهب الاستعماري لمصر، ترجمة عبد العظيم رمضان، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٢٠. حسن محمد ربيع، مصر بين عهدين بحثٌ اقتصاديّ واجتماعيّ وسياسيّ عن مصر، القاهرة ١٩٥٤م.
٢١. الحكومة المصريّة، القوانين العقاريّة في الديار المصريّة، مجموعٌ يشتمل على القوانين واللوائح والتعليمات الإداريّة المتعلّقة بالعقارات، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٨٩٣م.
٢٢. ديفيد لاندز، بنوك وباشاوات، ترجمة عبد العظيم أنيس، كتاب الأهالى، القاهرة، ١٩٨٥م.
٢٣. رؤوف عبّاس حامد، جماعة النهضة القوميّة، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٦م.
٢٤. رؤوف عبّاس وعاصم الدسوقي، كبار الملّاك والفلاحين في مصر ١٨٣٧-١٩٥٢م، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠٢٣م.
٢٥. راشد البرّاوي، حقيقة الانقلاب الأخير، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٥٢م.
٢٦. راشد البرّاوي ومحمد حمزة عليش، التطوّر الاقتصاديّ في مصر في العصر الحديث، دار النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٥٤.
٢٧. شهدي عطية، تطوّر الحركة الوطنيّة المصريّة ١٨٨٢ - ١٩٥٦م، دار شهدى، القاهرة، ١٩٥٧م.
٢٨. روبرت مابرو، الاقتصاد المصري ١٩٥٢ - ١٩٧٢م، ترجمة صليب بطرس، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٩. سحر حسن أحمد، تطوّر الصناعة في مصر ١٩١٤- ١٩٥٢م، مجلة كليّة البنات للآداب، ع ١٢، مج ٤، جامعة عين شمس، ٢٠١٤م.
٣٠. عادل غنيم، ثورة يوليو والرأسماليّة، مجلة الطليعة، س ١،ع ٧، ١٩٦٥م.
٣١. عبد العظيم رمضان، صراع الطبقات في مصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٧ م.
٣٢. فؤاد مرسى، مفهوم التنمية الاقتصاديّة واتّجاهاتها، الطليعة، س ١١، ع١١، ١٩٧٥م.
٣٣. فؤاد مرسى، الأعباء الاقتصاديّة للحرب العالميّة الثانية، مجلة الطليعة، س ٣، ع٩، ١٩٦٨م.
٣٤. فؤاد مرسى، البنك الأهلي وبنك مصر وقضيّة السيطرة الاستعماريّة، مجلة الطليعة، س٢،ع٥، ١٩٦٦م.
٣٥. لطيفة سالم، مصر في الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
٣٦. ماجدة بركة، الطبقة العليا بين ثورتين ١٩١٩ -١٩٥٢م، ترجمة محمود ماجد، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م.
٣٧. محمد أنيس، تطوّر المجتمع المصري من الإقطاع إلى ثورة يوليو ١٩٥٢م، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٧٧م.
٣٨. محمد دويدار، الاقتصاد المصري بين التخلف والتطوير، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٨م.
٣٩. محمد صالح الفلكي، التسليف الصناعي في مصر، صحيفة التجارة والصناعة،ع ٢ س ٨، ١٩٣٢م.
٤٠. محمد فهمي لهيطة: الأرصدة الأسترلينيّة ومركز البنك الأهلي المصري منها، مجلة المقطم، ع ١٨٩١٨، س ٦٢، ٣٠أبريل ١٩٥٠م.
٤١. محمود عبد الفضيل، الاقتصاد المصري بين التخطيط المركزي والانفتاح، معهد الإنماء العربى، بيروت، ١٩٨٠م.

٤٢. محمود متوليّ، الأصول التاريخيّة للرأسماليّة المصريّة وتطوّرها، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.
٤٣. نوال قاسم، تطوّر الصناعة المصريّة من عهد محمد علي حتى عبد الناصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٨م.
٤٤. الوقائع المصريّة، تنظيم بعض الأحكام الخاصّة بالشركات المساهمة، ع ٧٢، ٤ أغسطس ١٩٤٧م.

الدراسات الأجنبيّة

45. Arthur Crouchley , Investment of foreign capital in Egypt companies and public Debt., Cairo, 1936.
46. _____ , The economic development of modern Egypt, London , 1938.
47. Barbara E .Kalkas, Barbara E .Kalkas, Aborted economic and social development in Egypt: new leaders in old system, PhD in sociology, The University of Illinois, 1979.
48. Charles Issawi, Egypt at Mid Century, London, 1954.
49. Clement Levy (Ed.). The Stock Exchange Year-Book of Egypt 1937, Cairo, 1966.
50. Egypt. Ministry of Finance, Statistical Department, Annuaire Statistique, Cairo, 1914.
51. Esmail Hosseinzadeh, An evaluation of the theory of non-capitalist development: The case of Nasser's Egypt, PhD, New School for Social Research, 1987.
52. Issawi, Charles: Egypt at mid – century, Oxford 1954
53. Malak Badrawi, Isma'il Sidqi, 1875-1950 Pragmatism and Vision in Twentieth Century Egypt, London, 2014.
54. Marius Deeb, Bank Misr and the Emergence of the Local Bourgeoisie in Egypt , Middle Eastern Studies, Vol. 12, No. 3, Special Issue on the Middle Eastern Economy Oct., 1976.
55. _____, The Socioeconomic Role of the Local Foreign Minorities in Modern Egypt, 1805-1961, International Journal of Middle East Studies, Vol. 9, No. 1 Jan., 1978.
56. Ragaei W. El Mallakh, The effect of second world war on the economic development of Egypt, PhD, New Jersey, 1955.
57. Robert L. Tignor, State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt, 1918-1952, Princeton University Press, 1984.
58. Robert Vitalis, When Capitalists Collide: Business Conflict and the End of Empire in Egypt, London, 1995.

ثورة الزعاطشة في المقاومة الشعبيّة الجزائريّة
نقطة تحوّلٍ في العام ١٨٤٩ م

زينب رزيوي[١]

الملخّص

يتناول هذا البحث مقاومة واحة الزعاطشة (١٨٤٩) ببسكرة كنموذجٍ للمقاومة الشعبيّة ضدّ الاحتلال الفرنسيّ في الجنوب الجزائريّ، التي ورغم قصر مدّتها، فإنّها مثّلت محطّةً مفصليّةً بفضل صمودها الأسطوريّ أمام حصارٍ خانقٍ وقواتٍ استعماريّةٍ ضخمة. يهدف البحث إلى تبيان أبعاد هذه المعركة التي انتهت بإبادةٍ جماعيّةٍ للساكنة، لكنّها شكّلت أولى عتبات التوغّل الاستعماري نحو الصحراء.

يطرح البحث إشكاليّةً محوريّةً حول حجم تأثير وصدى المقاومة على الثورات اللاحقة، مع بحث أسبابها، ودور قائدها الشيخ بوزيان، وأهمّ مراحلها ونتائجها. وبتطبيق المنهج التاريخيّ التحليليّ، يسعى البحث لربط الماضي بالحاضر وتسليط الضوء على هذه الحلقة المضيئة في سجل البطولات الجزائريّة من أجل الحريّة والكرامة، مؤكّدًا أنّ (الزعاطشة) لم تكن مجرد معركةٍ خاسرة، بل مدرسة في المقاومة والتضحية ألهمت الأجيال المتعاقبة.

الكلمات المفتاحيّة: مقاومة الزعاطشة، الشيخ بوزيان، الاحتلال الفرنسي، الجنوب الجزائريّ، المقاومة الشعبيّة.

---

١. باحثة وأستاذة في جامعة سعيدة – الجزائر.

المقدّمة

يقول الدكتور: أبو القاسم سعد الله (١٩٢٧-٢٠١٣) الملقّب بشيخ المؤرّخين الجزائريين في كتابه (الحركة الوطنيّة الجزائريّة) عند حديثه عن مقاومة الزعاطشة: «فبعض الكتّاب يعتبر ما حدث في الزعاطشة إنّما هو حادثةٌ منعزلةٌ... في الجزائر، وكثير من الكتّاب يمرّون في تاريخ الجزائر على ثورة الزعاطشة مرور الكرام، مكتفين ببعض السطور عمّا كلّفت الفرنسيين من قتلى وجرحى، وهم يذكرون (الزعاطشة) كقريةٍ أو واحةٍ ثانيةٍ في الزيبان لا تهمّ دارسي تاريخ الجزائر كثيرًا، ونحن إلى هنا وبناءً على ذلك المنظور، لا نعرف إلّا أنّ ثورة حدثت هناك سنة ١٨٤٩، بقيادة مرابط يدعى (بوزيان)، وانتهت بتخريب الواحة، وقطع نخيلها، وقتل (بوزيان)، وبعدها عاد الأمن والسلام هكذا بكلّ بساطةٍ واختصار»[١]، والحقيقة أكبر من ذلك بكثير، وهو ما يسعى هذا البحث إلى توضيحه.

فهي ثورةٌ مهمّةٌ في حقل الدراسات التاريخيّة، وتعدّ محطّةً مهمّةً من محطّات المقاومة الجزائريّة، وهي استمرارٌ لمقاومة الأمير عبد القادر وأحمد باي، حرّكتها أسبابٌ وعواملُ استثمرها قائدها الشيخ بوزيان الذي أعلن الجهاد بمباركة أهالي المنطقة والمجاورين له، وقد هزّت كيان الجيش الفرنسيّ، الذي واجهها بجيشٍ ضخمٍ مدجّجٍ بأحدث الأسلحة، وحوّل الواحة إلى رماد، منكلًا بسكّانها في صورٍ تغيب فيها الإنسانيّة لتكون عبرةً للباقي وردعًا لهم. ولعلّ الإشكال الذي يطرح هذا البحث يكمن في: مدى حجم تأثير وصدى مقاومة الزعاطشة ١٨٤٩م على باقي الثورات الشعبيّة في الجزائر، وكيف استطاعت أن تهزّ كيان الجيش الفرنسيّ؟

وتندرج تحتها عديد من الأسئلة الفرعيّة أهمّها: أين تقع واحة الزعاطشة؟ وما واقعها قبيل الثورة؟ من هو قائدها؟ وما كفاءته واستعداداته للمقاومة؟ وما هي العوامل التي أشعلت فتيل الثورة؟ وما موقف القبائل المجاورة؟ وكيف كان ردّ الفعل الفرنسيّ وما هي استراتيجيّاته لإخمادها؟ وما هي نتائجها ومصيرها؟ وكيف أثّرت في المقاومات الأخرى؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة اتّبعنا المنهج التاريخيّ المبني على جمع المادة التاريخيّة واستقرائها ومقارنتها ومقابلتها، وهيكلنا البحث في مقدمةٍ ومجموعة مطالب: تناولت التعريف بالموقع الجغرافي لواحة الزعاطشة، والتعريف بقائدها، وواقعها قبيل الثورة، ثم تطرّقنا الى العوامل التي فجّرتها، وسيرها وأحداثها، ثم مصيرها ونتائجها، وانعكاساتها على المقاومات الوطنيّة في ربوع الوطن، وختمنا بحثنا بخاتمةٍ كانت عبارةً عن أهمّ مميّزات وخصوصيّات الثورة، وألحقنا بحثنا بمجموعةٍ من الملاحق التوضيحيّة، وقائمة المصادر والمراجع.

---

١. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج١، ص٣٣١-٣٣٢.

ولعلّنا نسعى من خلال بحثنا هذا هو الإسهام في كتابة تاريخنا الذي نعتزّ به ونفتخر ببطولات أجدادنا، ونذكر بمجازر فرنسا وجرائمها ضد الإنسانيّة في حقّ الشعب الجزائري، فنكون حلقة وصلٍ بين الماضي والحاضر، من خلال استرجاع ذكرى ثورة الزعاطشة التي خلّدها التاريخ وكتب تاريخها من ذهب، فهي حلقةٌ مضيئةٌ من سلسلة بطولات الشعب الجزائري من أجل استرجاع حريّته وكرامته.

١. التعريف بجغرافية المنطقة وواقعها قبيل الثورة[١]:

تقع واحة الزعاطشة في الزاب الغربي ببلدية ليشانة على بعد ٣٥ كلم من عاصمة الزيبان بسكرة، ولهذه المنطقة أهميّةٌ استراتيجيّةٌ بوصفها جزءًا من بلاد الزيبان الممتدّة ما بين الحدود التونسيّة شرقًا إلى هضاب ولاد نايل غربًا، يمرّ عليها واد ريغ؛ لذا انتشرت فيها الواحات، تميّزت بالثراء والغنى لتنوّع محاصيلها الزراعيّة؛ ممّا جعلها محطّ أطماع المستعمِر الفرنسي[٢]، والزعاطشة واحدة منها، وهي عبارةٌ عن واحـة صغيرة، محاطة ببساتين النخيل حوالي ١٧٠ ألف نخلة، والأشجار المثمرة كالتين والرمّان والمشمش... تمتد على مساحة ١٢ كلم، بناياتها قديمة وصلبة، محصنة بأسوارٍ عاليةٍ وخندقٍ مائيّ يحيط بها من كلّ الجهات، يبلغ اتّساعه نحو ٨ أمتار، وعمقه بين ١,٢٠ و١,٥٠ مترًا، وبالتالي كانت الحصن المنيع[٣].

كانت منطقة الزيبان كلّها تابعةً للأمير عبد القادر، ويتم تعيين شيخها من قبل خلفائه، حاول أحمد باي السيطرة عليها للاستفادة من مداخيلها الماليّة، ثم خضعت منطقة الزيبان للاستعمار الفرنسيّ بدايةً من ١٨٤٤م، وجعلوا من بسكرة النقطة العسكريّة الأكثر توغّلًا في الصحراء، وعيّنوا عليها الضابط سان جيرمان[٤].

أما قائدها فهو الشيخ بوزيان، واسمه الحقيقي هو: عبد الرحمن بن زيان من أعراش وادي عبدي

---

١. ينظر الملحق :١-٢.

٢. حورية جيلالي، الاستراتيجيّة الاستعمارية ضدّ مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربيّة، العدد ٤، ص٩٧.

٣. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩ على ضوء الكتابات الأجنبية، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص١٣٣.

٤. حورية جيلالي، الاستراتيجية الاستعماريّة ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩»، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربيّة، العدد ٤، ص٩٧.

بالأوراس من المرابطين الأشراف مقدم للطريقة الدرقاوية، كان تابعًا لدولة الأمير عبد القادر، عُيّن شيخًا على واحة الزعاطشة والزاب الظهري، تميّز بقدراته ومبادراته، فكان محاربًا شجاعًا، من أحذق الرماة، وذا سمعةٍ واسعةٍ وشخصيّةٍ محترمة، ونفوذٍ مالي، حارب ضدّ جنود أحمد باي خلال حصار الزعاطشة سنة ١٨٣١م، استطاع أن يجنّد الثوّار لمواجهة المستعمِر من العديد من المناطق مثل الخنقة وبوسعادة وأولاد جلال ومسعد؛ لذا يعدّ من الثوّار الذين خلفوا الأمير عبد القادر، وحملوا مشعل الثورة لمواصلة الكفاح في سبيل الله والوطن.

استشهد سنة ١٨٤٩م حسب ما وصفته الكتابات الجزائريّة[١]، في حين تصفه الكتابات الأجنبيّة وعلى رأسهم الجنرال هيربيون Herbillon - قائد الحملة والمسؤول على منطقة قسنطينة، في كتابه المنشور سنة ١٨٦٣م بباريس تحت عنوان: (الثورة في جنوب عمالة قسنطينة وعلاقتها بمحاصرة زعاطشة) - بالدجّال المتعصّب الذي استغلّ الدين لإثارة السكّان[٢].

٢. عوامل قيام ثورة الزعاطشة

إنّ الانتفاضة ما هي إلّا نوعٌ من المقاومة «وهي في ذاتها تعبيرٌ صادقٌ عن إرادة الأمّة في رفض كلّ ما هو غريب، دفاعًا عن مقوّماتها الحضاريّة المتميّزة»[٣]، ولعلّ أهمّ العوامل التي فجّرت ثورة الزعاطشة من وجهة نظرين، النظرة الأولى ترجع للكتّاب الفرنسيين الذين أرجعوا أسباب الثورة إلى عوامل ماديّة وأخرى ذاتيّة تكمن في: حرمان الشيخ بوزيان من منصب في إدارة الأهالي تحت السلطة الفرنسية، وإضافة ضريبةٍ جديدةٍ على الزوايا[٤]، وارتفاع قيمة الضرائب المفروضة على أشجار النخيل دون مراعاة الوضعيّة المزرية للسكّان، حيث قرّرت فرنسا ابتداءً من شهر مارس ١٨٤٩م رفع الضريبة من ٠,٢٥ فرنك إلى ٠,٤٠ فرنك للنخلة الواحدة، مع إعفاء المرابطين المالكين للنخيل، وكذلك العائلات الأرستقراطيّة الحاكمة من دفعها[٥]، فهذا يعدّ في نظر الكتّاب الفرنسيّين

١. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج١، ص٣٣١-٣٣٢.

٢. رابح لونيسي، انتفاضة سكان واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م، من خلال مذكرات الجنرال هيربيون، مجلة عصور، جامعة وهران، العدد٢، السنة ١، ص٧٤، ٧٨.

٣. محمد الطيّب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائريّة من عام ١٨٣٠ م، حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤، ص٦٥.

٤. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩ على ضوء الكتابات الأجنبيّة، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص١٢٩.

٥. حورية جيلالي، الاستراتيجيّة الاستعماريّة ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربيّة، العدد ٤، ص١٠١.

السبب الحقيقي والمباشر للثورة، ولكن في رأي الكتّاب الجزائريين وعلى رأسهم أبو القاسم سعد الله السبب الجوهري مختلف؛ فهو لا يستبعد أن يكون الظلم الاقتصادي دافعًا من دوافع الثورة، ولكنّه ليس الدافع الأساس في نظره، فيقول عن ذلك: « لأنّ الفرنسيّين أنفسهم سيشهدون بأنّ الجزائريين لم يثوروا أبدًا ضدّهم بدافع الجوع والخصاصة، ولكن لأسبابٍ أخرى أهمّها الدين والشرف والوطنيّة»[١].

إلاّ أنّ الثورة اندلعت بوجود عدة دوافع جوهريّة أسهمت في إشعال فتيلها، وهي عوامل أكثر موضوعيّة تنمّ عن نضج المقاومة في الجزائر، وهي كالتالي:

- **رفض الشعب القاطع للاحتلال الفرنسي**، وهو يعدّ أقوى الأسباب وأهمّها في المسيرة الكفاحيّة للشعب الجزائريّ ومقاومته، وانتشار الروح الدينيّة والوطنيّة للحفاظ على كيان هذا الشعب من التنصير والفرنسيّة [٢].
- **اشتغال الاحتلال بقمع الثورات في القطاع القسنطيني كثورة الزواغة**، وبني يعلي، وبني مليكش بجبال جرجرة، وأولاد دراج بالحضنة، وأولاد فرج ببوسعادة...، مع تراجع قواته ببسكرة إلى ٨٠٠ جندي، مع غياب قائدهم **سان جيرمان Saint Germain**[٣].
- **انشغال فرنسا بثورة ١٨٤٨م**، وما تخلّلها من سقوط النظام الملكي بقيادة الملك لويس فليب، وقيام النظام الجمهوري، ذلك كلّه أثر على الحياة السياسيّة بالجزائر حيث عزل الحاكم العام للجزائر وهو الدوق دومال Le Duc D'Aumal ابن الملك لويس، وعيّن بدلاً منه الجنرال كافنياك Cavaignac يوم ٠٣ مارس ١٨٤٨م، ثم تلاه رحيل عدة كتائب من الجيش الفرنسي من الجزائر لتشارك في الثورة الفرنسيّة بفرنسا وتعمل على إخماد الفتن، مع انتشار أخبار مفادها توتر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا، هذه الأخيرة التي أعلنت الحرب على فرنسا، وأنّها تستعدّ لشنّ حملة عارمة على الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وقد اطلع المجاهدون على تلك الأنباء كلّها بوساطة أبناء الواحات الشرقيّة العاملين في العاصمة [٤].

---

١. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص٣٣٣.

٢. إبراهيم مياسي، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨م، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد١١، ١٢، ص٨٩،٨٧.

٣. عباس كحول، مقاومة الزعاطشة من خلال موقف ومراسلات شيوخ الزوايا بالزاب الشرقي واحمر خدو، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد٢٥، ص٦٦٨.

٤. رابح لونيسي، المرجع السباق، ص ص٧٦-٧٧؛ إبراهيم مياسي، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨م، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد١١، ١٢، ص٨٧-٨٨.

٣. اندلاع الثورة وسير أحداثها ومجرياتها

تظافرت كلّ العوامل لاندلاع ثورة الزعاطشة، وبدأ التحضير لها منذ شهر ماي ١٨٤٩م، حسب التقارير العسكريّة الفرنسيّة[١]، وعرف الشيخ بوزيان كيف يؤطّر استياء الشعب الجزائري من ظلم العدو الفرنسي، حيث باشر اتصالات حثيثةً مع رؤساء القبائل والأعراش بإرسال عدّة رسائل[٢] بختمه تدعو للجهاد وتهيئة الشروط الضروريّة له، كجمع المال وشراء السلاح، وتوفير وتخزين المؤونة، وحفر الخنادق، وإقامة التحصينات والبحث عن الحلفاء[٣]، على أن تكون واحة الزعاطشة هي القاعدة والحصن المتين للثورة[٤]؛ لاتّصالها الشديد طبيعيًّا وبشريًّا وعسكريًّا مع واحات ليشانة وفرفار وطولقة وبوشقرون[٥].

ممّا استرعى انتباه أعوان وعملاء الإدارة الفرنسيّة، فقام الملازم سيروكا Seroka نائب المكتب العربي ببسكرة بالتحرّك نحو الزعاطشة رفقة الخائن ابن الميهوب شيخ بلدة طولقة وبعض الفرسان للقبض على الشيخ بوزيان الذي أعلن الجهاد من مآذن المساجد، وفشل سيروكا في القبض عليه بعد أن ثار عليه سكّان الواحة بأسلحتهم، فكانت هذه الحادثة بمنزلة الشرارة الأولى لاندلاع الثورة، وعلى إثر ذلك انتقل الضابط ديبوسكي Dubosquet رئيس المكتب العربي إلى الزعاطشة ليطلب من السكّان تسليم الشيخ بوزيان، فرفضوا الانصياع، وأعلنوا أنّهم سيقاتلون رجالاً ونساءً عن آخرهم من أجله، فأدرك الضابط الفرنسي أنّهم مستعدّون للثورة، فتراجع إلى بسكرة ليتّخذ الإجراءات اللازمة لمعالجة الموقف[٦].

انطلاقًا من هذه الحادثة أخذت الثورة منعطفًا جديدًا، وعليه يمكن تقسيم مقاومة الزعاطشة إلى ثلاثة مراحل: الانتصار، ثم الحصار، وأخيرا الانكسار[٧].

١. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩م، على ضوء الكتابات الأجنبية، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص١٣٠.

٢. ينظر الملحق رقم: ٣-٤.

٣. نصر الدين براشيش، المقاومة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر ثورة الزعاطشة نموذجًا، مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، العدد٤٣، ديسمبر ٢٠١٧، ص١١٦.

٤. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩م، على ضوء الكتابات الأجنبيّة، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص١٣١.

٥. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص٣٣٣.

٦. إبراهيم مياسي، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨، مجلة الدراسات التاريخيّة، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد١١، ١٢، ص٩٠.

٧. عباس كحول، مقاومة الزعاطشة من خلال موقف ومراسلات شيوخ الزوايا بالزاب الشرقي واحمر خدو، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد٢٥، ص٦٦٩.

المرحلة الأولى: مرحلة انتصار الشيخ بوزيان وحلفائه

أدركت الإدارة الاستعماريّة خطورة ما يجري في واحة الزعاطشة وما يجاورها، حيث كتب المترجم الرسميّ للجيش شارل فيرو قائلاً: «إنّ تطوّرات الأحداث في الزعاطشة باتت مقلقةً للغاية، ليس على عمالة قسنطينة فحسب، بل على كلّ الجزائر». فكلّف الجنرال هيربيون الحاكم العام لقسنطينة العقيد كاربوسيا Carbuccia بالتوجه للزعاطشة وأوصاه بتاريخ ٩ جويلية ١٨٤٩ «بعدم ترك أيّ شيءٍ للحظ، وعدم التوجّه إلى قلب الزعاطشة إلّا إذا كنت متأكّدًا من النتيجة، وعليك بالحذر من الحواجز المائيّة والنخيل...، لا يجب المجازفة إلّا بنتائج محقّقة»، ورد عليه كاربوجيا بتاريخ ١٤ جويلية ١٨٤٩: «سأتوجه إلى الزاب الظهري، وسأقمع الثورة به، وسيتذكر هؤلاء ثأرنا لأكثر من ٢٠٠ سنة»، وجمع جيشًا قوامه ١٦٨٠ جندي مدجّج بأثقل العتاد من بينها المدافع، يوم ١٦ جويلية ١٨٤٩، إلّا أنّه مني بهزيمةٍ نكراء، وخسر ٣١ عسكريًّا، وجرح ١١٧، منهم ٦ ضباط، واضطر للانسحاب[١]، وكان من نتائجها انتقال الثورة إلى الأوراس بقيادة عبد الحفيظ الخنقي، ومقتل قائد القوات الفرنسيّة الضابط: سان جيرمان في معركة أولاد أبراز بسريانة ١٧ سبتمبر ١٩٤٨م، ولما وصل نعيه للجنرال هيربيون حاكم مقاطعة قسنطينة آنذاك، عيّن العقيد كبروسيا خلفًا له، ثم توجّه بنفسه لمحاصرة الزعاطشة[٢]، وهو يدرك تمامًا أنّ هزيمة القوات الفرنسيّة في الزعاطشة سيكون له تأثيرٌ كارثيّ على الوضع الأمني العام في الجزائر، كما أنّ تحقيق الانتصار سيكون له تأثيرٌ إيجابيٌ على كلّ المنطقة الشرقيّة؛ لذا قرّر هيربيون الامتثال لأوامر الحاكم العام الذي أمره بأخذ «أكبر قوّةٍ ممكنةٍ لتحقيق نتائج ملموسةٍ ومعاقبة الزعاطشة عقابًا مثاليًّا»[٣].

المرحلة الثانية: مرحلة حصار الزعاطشة

وصل هيربيون يوم ٧ أكتوبر ١٨٤٩ إلى الزعاطشة بجيشٍ قوامه ٤٤٩٣ جندي، وهاجم الواحة يوم ٢٠ من الشهر نفسه، ورغم ذلك تكبد خسائر في الأرواح قتلى وجرحى فانسحب في انتظار الدعم

---

١. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩ على ضوء الكتابات الأجنبية، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص١٣٢-١٣٣.

٢. عباس كحول، مقاومة الزعاطشة من خلال موقف ومراسلات شيوخ الزوايا بالزاب الشرقي واحمر خدو، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد٢٥، ص٦٦٩-٦٧٠.

٣. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩ على ضوء الكتابات الأجنبية، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص ١٣٥.

مكتفيًا بالحصار للواحة الذي دام إلى غاية ٢٨ نوفمبر، وقد أرسل الشيخ بوزيان طلب النجدة، وأتاه الدعم من بوسعادة وأولاد نابل وواد سوف، وحتى من نقطة زاوية مصطفى بن عزوز يقودهم محمد الصغير بن أحمد بلحاج[١].

وفي هذه النقطة يجب أن نوضّح أنّ جغرافية الثورة لم تبق حبيسةً على واحة الزعاطشة التي تحملت النصيب الأكبر من الخراب والدمار، وإنّما جغرافيّتها شملت الحضنة والزيبان وأجزاء من الأوراس والصحراء، واشتركت فيها: الخنقة وبسكرة وطولقة وأولاد جلال وبوسعادة وسريانة وواحات عديدة مثل فرفار وليشانة، فكانت نحو ٢٠ قبيلة، كما لم تكن حكرًا على الشيخ بوزيان وإنّما أسهم في إثارتها وقيادتها عددٌ من رجال الدين البارزين شيوخ الطرق الصوفيّة أمثال: عبد الحفيظ الخنقي (نسبة الى خنقة)، والصادق ابن الحاج زعيم ثورة الاووراس ١٨٥٨، قدم بـ٧٠٠ جنديّ لفك الحصار عن الزعاطشة، والمختار الجلالي (أولاد جلال)، ومحمد بن شبيرة (بوسعادة)، والحاج موسى الدرقاوي[٢].

المرحلة الثالثة: مرحلة الانكسار وتدمير الواحة

طلب الجنرال هيربيون النجدة من السلطات الفرنسيّة، فأتته مدجّجةً بالعتاد والعدّة من قسنطينة وباتنة وبوسعادة وسكيكدة وعنابة، يقودهم ضبّاط بارزون ومشهورون في ميدان القتال، أمثال: بارال Barral، وكانروبار Canrobert، ولورمال Lourmel، ودومنتال Domantel ...، وقد وصل تعداد جيشه إلى ٨٠٧٥ عسكري، وأعطيت تعليمات جديدة تمثّلت بارتكاب إبادة جماعيّة للواحة، وقتل جميع من فيها نساءٍ ورجالٍ وأطفال، وقطع وحرق جميع الأشجار المثمرة والنخيل، وتخريب كلّ المنازل وحرقها، وإزالة وجودها من الخريطة، فتمّ الهجوم عليها يوم ٢٨ نوفمبر ١٨٤٩م، وأطلق عليها ما مجموعه ٣٥٠٠ قذيفة من ١٦ مدفعًا بعياراتٍ مختلفة، واشتبك الثوّار مع العدو، من شارع إلى شارع، ومن دارٍ إلى دار، وبعد ٤ ساعات من القتال، وفي حدود الساعة التاسعة صباحًا سقطت كلّ الدور، وسكتت جميع الأرواح، وبقي بيت الشيخ بوزيان الذي نُسف ثلاث مراتٍ متتالية، دون أن تتوقف المقاومة بداخله، وبعد اشتباكاتٍ مع الشيخ بوزيان ومن معه تمّ رميهم بالرصاص، ثم قطعت رؤوس كلٍّ من الشيخ بوزيان وابنه والشيخ سي موسى الدرقاوي[٣]، وعلّقت على جذع

١. عباس كحول، مقاومة الزعاطشة من خلال موقف ومراسلات شيوخ الزوايا بالزاب الشرقي واحمر خدو، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد٢٥، ص ٦٧٠.

٢. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ص٣٣١.

٣. ينظر الملحق رقم: ٠٥.

النخلة، ثم نقلت إلى متحف[١] الإنسان بباريس[٢].

٤. قراءة في نتائجها وعوامل الفشل

لهذه الثورة نتائج عديدة هي:

- الخسائر فادحة، التي تمثّلت في تخريب واحة الزعاطشة عن آخرها، وقطع نخيلها، وقتل نحو ٨٠٠ من سكّانها[٣] في مظاهر يُندى لها جبين الإنسانيّة من عنفٍ وقسوةٍ وقطع الرؤوس وتعليقها على خناجر البنادق والأبواب نكايةً وتشفّيًا[٤]، واستمرّ الهدم والحرق حتى بعد نهاية المعركة، وذلك للقضاء على كلّ أثرٍ للواحة، من أجل إعطاء درسٍ للذين تسوّل لهم أنفسهم إعلان الثورة[٥]، ويصف المؤرّخ الفرنسيّ **بوديكو Baudicour** فظاعة وهمجيّة الاستعمار وأعماله المخزية في واحة الزعاطشة بقوله:

«هنا جنديٌّ قطع ثدي امرأةٍ تتوسّل إليه بأن يُنهي حياتها، وهناك جنديٌّ آخر حمل طفلاً صغيرًا من رجليه وحطّ رأسه على جدار، فخرج مخّه من جمجمته، هنا وهناك كانت مناظر مخزية يخجل أيّ فمٍ شريفٍ من سردها. لقد تركت هذه الثورة دويًّا كبيرًا في الداخل، فالأعمال البربريّة هذه لم تكن ضروريّةً، وهي من شأنها أن تثير الذعر بين الناس، ولكنّها تغرس الكراهيّة في نفوسهم ضدّ المستعمِرين، وتلد ثوراتٍ أخرى»[٦].

ومن أعمال فرنسا البربريّة الإجراميّة قطع رأس الشيخ بوزيان وابنه ورفيقه، ونقلهم إلى

---

١. ينظر الملحق رقم: ٠٦.

٢. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩م، على ضوء الكتابات الأجنبية، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص١٣٩.

٣. يُنظر الملحق رقم: ٧-٨.

٤. إبراهيم مياسي، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨م، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد١١، ١٢، ص٩٧.

٥. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٣٧.

٦. عثمان سعدي، الجـــزائر في التاريخ، ص٥٦٦.

فرنسا حيث وضعوا في المتحف الأنثروبولوجي بباريس[١] «إمعانًا في امتهان كرامة الإنسان، وإشباعًا لبعض الغرائز البدائيّة المتقنعة بقناع العلم»[٢].

- إنّ ما فعلته فرنسا في الزعاطشة ليس انتصارًا ولا بطولةً ولا إنسانيّة، وإنّما هي اعتداءٌ صارخٌ على كلّ القيم باستعمال الحرائق والألغام، والحصار الطويل، ونسف الديار، وقطع الرؤوس البشريّة وتعليقها على البنادق والأبواب تشفّيًا وازدراءً... فستبقى الزعاطشة وصمة عارٍ أبديّ على فرنسا[٣].
- كانت ثورةً بطوليّةً بلغت الذروة في التضحية والفداء رغم العزلة وقلة الإمكانات وضخامة القوات الاستعماريّة التي بلغت نحو ٢٠ ألف جندي، واستطاعوا أن يصمدوا أكثر من خمسين يومًا ويكبّدوا القوات الاستعماريّة خسائر ماديّةً وبشريّةً كبيرة[٤].
- أسهمت في زعزعة العدو الفرنسي وإلحاق خسائر باهظة بقواته[٥]، تستر عليها الإعلام الفرنسي، فحسب إحصائيات المحافظة فقد تمثّلت الخسائر في مقتل ١٠ ضباط، و٦٠ جريحًا، بالإضافة إلى مقتل ١٦٥، و٧٩٠ جريحًا في صف الجنود، أمّا **هيربيون** فيذكر أنّ الجيش الفرنسي خسر ٤٣ قتيلاً، منهم ٣ ضباط، و١٩٥ جريحًا، منهم ٥ ضبّاط، أمّا الفرنسي **أوغسطين بيرنار** فيقول إنّ ثورة الزعاطشة كلّفت الفرنسيين ١٥٠٠ قتيل، بينهم ٣٠ ضابطًا[٦].

أما فشلها فمردّه إلى عدّة أسباب هي:

---

١. تم استرجاع رفاة جماجم الشهداء إلى الجزائر يوم ٠٣ /٠٧/ ٢٠٢٠ في الذكرى ٥٨ لعيدي الاستقلال والشباب على متن طائرةٍ حربيّةٍ عسكريّةٍ بأمرٍ من طرف السيّد رئيس الجمهوريّة عبد المجيد تبون، وقد بلغ عددهم ٢٤ رفاة من بينهم: جماجم الشيخ بوزيان، ومستشاره العسكري ورفيقه موسى بن الحسن الدرقاوي، وآخرين أمثال الشريف بوبغلة ورفيقه. وتمت إعادة دفنهم في مربع الشهداء بالجزائر العاصمة. يُنظر: الموقع الإلكتروني: الجلفة انفو،

https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/12528.html

أُطّلع عليه بتاريخ: ٠٤ /٢٠٢٤/٠٩ على الساعة ٢٢:٠٠.

٢. بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر، ج١، ص١٢٧.

٣. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص٣٣٠.

٤. يحى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص٢١٩.

٥. حورية جيلالي، الاستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩»، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربية، العدد ٤، ص١٠٤.

٦. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ص٣٣٦.

- أنّها كانت عبارةً عن استجابةٍ تلقائيّةٍ للدعوة التي وجّهها الشيخ بوزيان للجهاد، ضدّ الإهانة التي لحقت بهم، وبالقبائل المجاورة لهم من طرف الاستعمار الفرنسي، فكان ينقصها التنظيم والتعبئة، والحنكة السياسيّة، فأغلب قيادي الانتفاضات من العلماء ورجال الدين ثاروا باسم الجهاد، يضاف إليهم عنصر الارتجاليّة والتلقائيّة في تفجيرها؛ ممّا لا يسمح لهم بالاستعداد الكافي، والتنظيم المحكم، وتحديد الأهداف.
- ضيق الرقعة الجغرافيّة للانتفاضة؛ ممّا سهّل مهمّة الجيش الفرنسي في تطويق المنطقة، والقضاء عليها، مع عدم تكافؤ موازين القوى من حيث العدّة والعتاد، ومع وجود الخونة والعملاء[١].
- لم تكيّف هذه الثورة دفاعاتها واستراتيجيّاتها مع تغيّر وضع واستراتيجيّات العدو الفرنسي، كما أنّها جاءت نتيجة ظروفٍ معيّنة عاشها سكّان الواحة تمثّلت في زيادة نسبة الضرائب بالدرجة الأولى، إذ سرعان ما اندلعت قبل أن يتمّ التحضير لها بنحوٍ محكم[٢].

٥. انعكاساتها على الثورات الأخرى

توالت انتفاضات القبائل بعد وصول أخبار الزعاطشة وما حلّ بها من جرائم شنيعة، فتأثرت وعزمت على الانتقام، فلم تهدأ الثورات بالشرق الجزائري ما بين ١٨٤٩-١٨٥٠م، ثم توالت بعد ذلك في عدّة مناطق من التراب الجزائري، وهذا ما يؤكّد أنّ الجزائريين لم يتقبلوا أمرًا واقعًا مفروضًا عليهم عنوانه الذل والمهانة، ولن يتقبّلوا ذلك، والنماذج كثيرة أبرزهـــا:

- ثورة في بوسعادة بقيادة محمد علي بن شبيرة الذي أرسل النجدة للشيخ بوزيان، وهاجم حامية عسكريّةً فرنسيّةً في بوسعادة سنة ١٨٤٩م، وانضمّ إليه أولاد نائل وسكّان النواحي، لكن الدعم وصل إلى الحامية الفرنسيّة المحاصرة، وتمّ فكّ الحصار عنها بقيادة العقيد دوماس الذي هاجم المدينة يوم ١٤ نوفمبر ١٨٤٩م، ونصّب عليها الضابط PEIN قائدًا للمكتب العربي، الذي فرض على السكّان غرامات ثقيلةً قُدّرت بثمانية آلاف فرنك، ودفع أغلى ما يملكون من زرابي ومنسوجات...، ففرّ كثيرٌ منهم من بوسعادة متّجهين نحو تونس[٣].
- ثورة واحة ناره الواقعة على واد عبدي بالأوراس، ضدّ الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال كاروبير، في ديسمبر ١٨٥٠م، فعاث فيها فسادًا فقتل وهدم وأحرق، فكان مصير الواحة كمصير واحة الزعاطشة.

١. محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائريّة من عام ١٨٣٠ حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤م، ص٦٥.

٢. حورية جيلالي، الاستراتيجيّة الاستعماريّة ضدّ مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربيّة، العدد ٤ ص١٠٣.

٣. إبراهيم مياسي، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨م، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد١١، ١٢، ص٩٧-٩٨.

- ثورة الشريف محمد بن عبد الله ١٨٥٢ في الأغواط وتوقرت وورقلة، ألحق بفرنسا خسائر كبيرةً في عدّة معارك في جنوب بسكرة يوم ٢٢ ماي ١٨٥٢م، وعين الرق ١ أكتوبر ١٨٥٢م، ولكن الخونة وعملاء فرنسا أمثال سي حمزة آغا الأغواط وسي زوبير باشاغا ورقلة كانوا سببًا في فشل ثورته، حيث اعتقل وسلّم للسلطات الفرنسيّة ١٨٦١م[١].
- ثورة جبال الأوراس بقيادة أحد مجاهدي ثورة الزعاطشة وهو سي الصادق بن الحاج زعيم أولاد أيوب، ووسّع من ثورته حتى وصلت إلى الزيبان، ورغم مجهوداته إلّا أنّها باءت بالفشل المحتوم بسبب الخونة وقوة الجيش الفرنسي، وألقي القبض عليه يوم ٢٠ جانفي ١٨٥٩م[٢].
- ثورة زواوة الواقعة بين تيزي وزو وسور الغزلان بقيادة الشريف بومعزة الذي قتلته القوات الفرنسيّة يوم ٢ أكتوبر ١٨٤٩م، وعلقت رأسه كما هو الحال بالشيخ بوزيان[٣].
- ثورة الشريف بوبغلة ١٨٥١-١٨٥٤، والحاج عمر لالة فاطمة نسومر ١٨٥٥-١٨٥٧ بالقبائل[٤].

الخاتمـة

نختم دراستنا هذه بأهم مميّزات وخصوصيّات ثورة الزعاطشة المتمثّلة بما يأتي:

- تعدّ ثورة الزعاطشة امتدادًا لثورة الأمير عبد القادر في الوقت الذي اعتقد فيه الفرنسيّون أنّ المقاومة انتهت بالقضاء على مقاومته، وكذا مقاومة أحمد باي، وكانوا ينتظرون الاستسلام التام من الجزائريين.
- واحة الزعاطشة الصغيرة بمساحتها، القليلة بعدد سكانها، القصيرة بثورتها، هزّت الجيش الفرنسي بأكمله[٥]، وأسهمت في زعزعة أمنه والحاق الخسائر الباهظة بقوّاته رغم دعمه بقوات كثيرةٍ وبأسلحةٍ متطوّرة، مقابل أسلحة بيضاء ورصاص أنوية التمر (ثلاثة نويات تمر مجموعةً في ورقة بسيطةٍ من الرصاص)[٦]، قال عنها الجنرال دوبـــارا: «كانت انتفاضة الزعاطشة أكثر خطورةً مقارنةً ببقية المقاومات الأخرى، وبقيت هي الوحيدة التي ما زال ذكراها بأذهاننا، لم

١. منور العربي، تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، ٢٠١؛ عثمان سعدي، الجـــزائر في التاريخ، ص٥٦٧-٥٦٩.

٢. عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى ١٩٦٢ (الجزائر عامة)، ج١، ص٣٨٥-٣٨٦؛ عثمان سعدي، الجـــزائر في التاريخ، ص ص٥٦٧-٥٦٩.

٣. إبراهيم مياسي، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨م، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد١١، ١٢، ص٩٨.

٤. لأكثر تفاصيل يُنظر: بشير بلاح، المرجع السابق، ١٢٧-١٢٨؛ منور العربي، المرجع، ص٢٠٥.

٥. محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائريّة من عام ١٨٣٠ حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤، ص٦٩.

٦. حورية العلوي، المرجع السابق، ص١٠٠-١٠١.

تُعطَ لها أهميّة في البداية، لكنّها اكتسبت شهرةً نتيجة الصعوبات التي واجهتنا، حيث لم يكن بمقدورنا تجميع القوات الكافية لسحقها قبل استفحالها، لكنّنا كنّا على يقين بأنّ القوات التي سنسخّرها لهذه المهمة، فيما بعد ستسمح لنا بالسيطرة على كافة أقاليم الجنوب القسنطيني»[١].

- جُسدت فيها أعظم صور التضامن الديني والوطني، إذ تهاطلت عليها النجدة من كلّ الجهات القريبة والبعيدة، حتى اضطرّ العدو أن يقيم فرقًا خاصّةً في ثلاثة اتجاهاتٍ لقطع الطريق أمام النجدات الآتية من بوسعادة وأولاد جلال وباتنة والأوراس وطولقة[٢].
- نتائجها كارثية على سكّان الواحة الذين أبيدوا عن آخرهم، فكان ما ارتكبه الفرنسيّون بحقّهم إبادةً جماعيّةً تصنّف في مقدمة الجرائم ضد الإنسانيّة، وهي استراتيجيّةٌ إجراميّةٌ مدروسةٌ اتّبعتها فرنسا لمواجهة المقاومة[٣]، وصفها الكُتّاب الفرنسيّون وعلى رأسهم بول أزان بأنّه الدرس القاسي الذي أنتج الهدوء في المنطقة[٤].
- إنّ أعمال القمع والتنكيل التي مورست على أهالي الزعاطشة أساءت إلى الجيش الفرنسي، وزادت من سمعة المقاومين، إذ صرّح **بيليسي Pellissier deraymand** قائلًا: «لا أخاف إذ أقول بأنّ مجد المنهزمين فاق وغطّى على مجد المنتصرين»[٥].
- تميّز قائدها الشيخ بوزيان بالدهاء والذكاء والنفوذ والكفاح في سبيل الله، وقد تغنّى به الشعراء أمثال: مفـــدي زكريـــاء حيث قال عنه:

تلقـــف رايتـــك ابـــن الجزائـــر
وعنـــد ابـــن زيـــان تبـــلى الســـرائـــر
وهـــبَّ الزعاطشـــة الثـــائرو
ن فهـــبَّ لنصرتهـــم كـــلُّ ثائـــرِ

١. عبد القادر نايلي، المقاومات والانتفاضات الشعبية من خلال المجلة الأفريقية La Revue Africaine انتفاضة الزعاطشة نموذجًا، ص١٠٠.

٢. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص٣٣٢.

٣. حورية جيلالي، الاستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربيّة، العدد ٤، ص١٠١.

٤. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص٣٣٦.

٥. محمد الطيّب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائريّة من عام ١٨٣٠م حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤م، ص٦٨.

تحـــدى ابـــن زيـــان ســـخف اللئـــ
ـــــام فـــمات الشـــهيد فـــداء الجزائـــرِ
وهـــل يخفـــض ابـــن الجزائـــر هامًـــا
ويحنـــي جبيننـــا أمـــام الصـــــرائرِ؟
لتشـــهد بســـكرة إصـــــــرارنا
وصـــدق ندانـــا أمـــــام المجـــازرِ
ولـــترو النخيـــل لعقبـــة عنّـــا
وتحـــكِ الرمـــال صمـــــــود القســـاورِ[١].

وختامًا تعتبر الزعاطشة محطّةً مهمّةً من محطّات المقاومة الجزائريّة؛ لأنّها هدّدت التواجد الفرنسي باعتراف الحاكم العام نفسه، وكادت تغيّر مصير الجزائر، ورغم أحداثها المأساويّة والمجازر الوحشيّة التي يندى لها الجبين التي ارتكبت بحق المنتفضين، فإنّها تعبّر عن قمة الثبات والمقاومة ورفض الرضوخ والاهانة والذل بكلّ أشكاله، هو الدرس الذي استوعبه باقي سكّان الجزائر؛ فثاروا في مختلف ربوع الوطن معبّرين عن حقدهم للاستعمار ومطالبين بالحريّة والكرامة، إذًا هي فعلاً نقطة تحوّلٍ حاسمة في تاريخ المقاومة الشعبيّة الجزائريّة.

١. نصر الدين براشيش، المقاومة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر ثورة الزعاطشة نموذجًا، مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، العدد٤٣، ص١٢٢.

الملاحـــق:

الملحق رقم ٠١: خريطة عسكريّة لواحتَي الزعاطشة وليشانة بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٤٩م[١].

١. بلعزوز (العربي)، بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩م على ضوء الكتابات الأجنبيّة، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد ١، ص ١٣٩.

الملحق رقم ٠٢: موقع واحة الزعاطشة (رسم تخطيطي) [١]

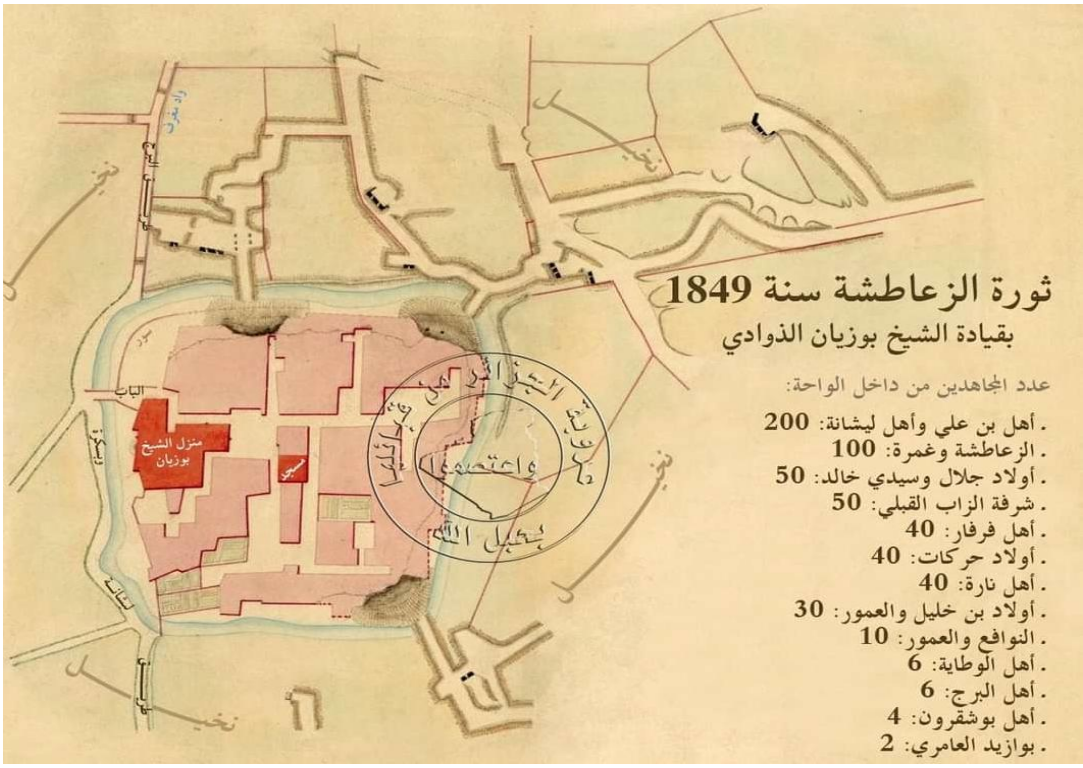

١. الموقع الالكتروني: عروبة الجزائر من قبائلها، https://www.facebook.com/orobeteldjazair/posts أُطّلع عليه بتاريخ ٠١ /٢٠٢٤/٠٩ على الساعة ٩.

الملحق رقم: ٠٣ : الرسالة التي بعثها الشيخ بوزيان إلى الشيخ سي عبد الحفيظ الخنقي[١] .

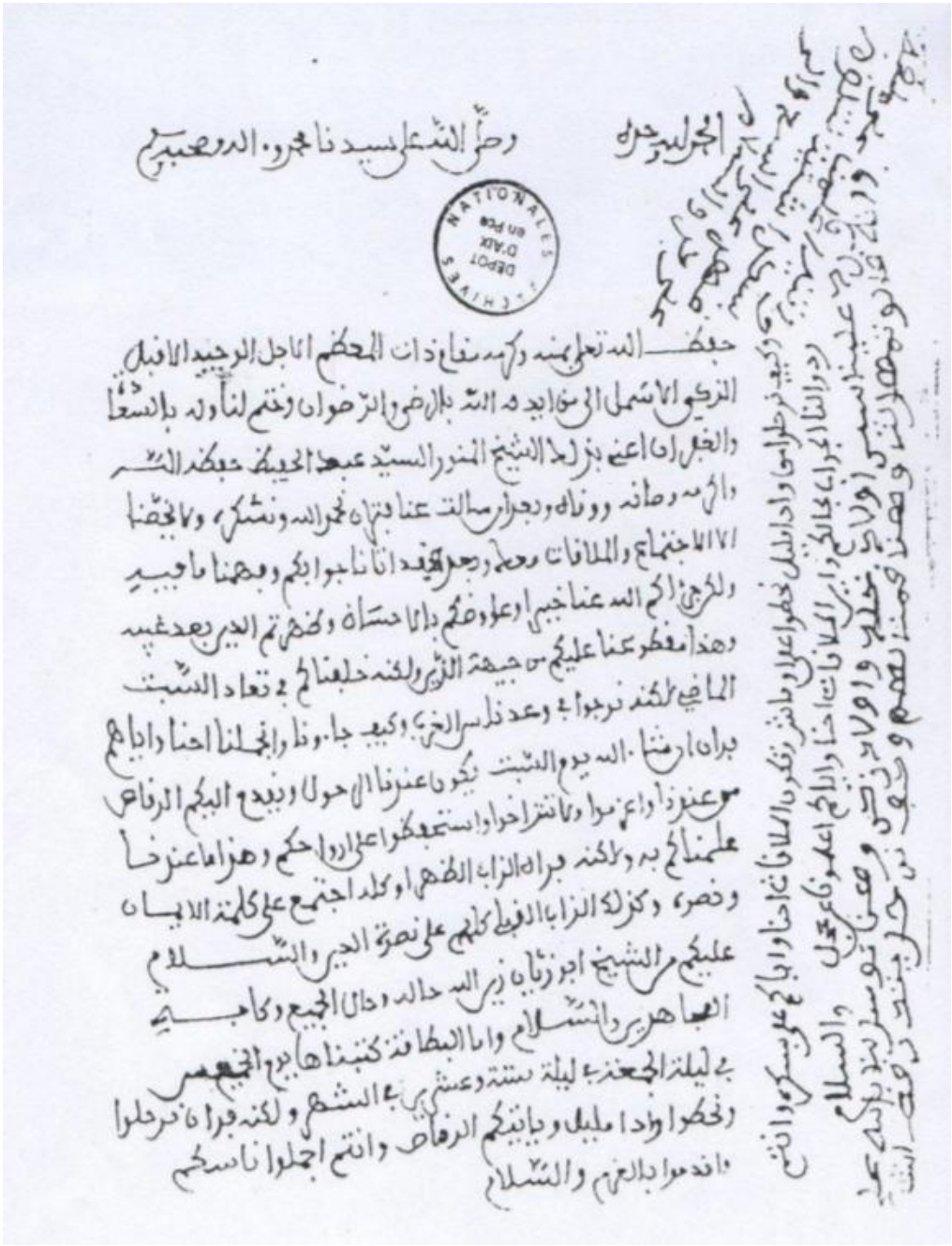

١. أوعثماني (ستار)، وثيقتان للشيخ بوزيان عن ثورة الزعاطشة، مجلة المرآة، المجلد٤، العدد١، ص٦٢.

الملحق رقم: ٠٤: الرسالة التي بعثها الشيخ بوزيان إلى الشيخ الصادق بلحاج[١].

١. أوعثماني (ستار)، وثيقتان للشيخ بوزيان عن ثورة الزعاطشة، مجلة المرآة، المجلد٤، العدد١، ص٦٦.

الملحق رقم: ٠٥ : صورة الرؤوس المقطوعة الشيخ بوزيان وابنه حسن، ورفيقه موسى الدرقاوي (رسم الدكتور كونْوَا)[١] .

١. الموقع الالكتروني: الجلفة انفو، https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/١٢٦٧٨.htm أُطّلع عليه بتاريخ ٠١ /٠٩/ ٢٠٢٤ على الساعة ١٠.

الملحق رقم: ٠٦ : رفاة شهداء المقاومة الشعبيّة في المتحف الفرنسي التي تم استرجاعها الى الجزائر من بينها جمجمة الشيخ بوزيان رقم (٥٩٤١)[١] .

الحاج موسى (٥٩٤٢)، الشيخ بوزيان (٥٩٤١)، الشريف بوكديدة (٥٩٤٣)، الشريف بوبغلة (٥٩٤٠)

١. الموقع الالكتروني: الجلفة انفو، https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/١٢٥٢٨.html أُطّلع عليه بتاريخ ٠٤ /٢٠٢٤/٠٩ على الساعة ٢٢:٠٠.

الملحق رقم:٠٧: صورة جداريّة تُخلّد معركة الزعاطشة (توضّح خسائر المقاومة، وخسائر الفرنسيين)[١].

١. الموقع الالكتروني: الجلفة انفو، https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/١٢٦٧٨.htm أُطّلع عليه بتاريخ ٠١ /٠٩/ ٢٠٢٤ على الساعة ١٠.

الملحق رقم: ٠٨ : نصب تذكاري يُخلّد معركة الزعاطشة[١] .

١. الموقع الالكتروني: الجلفة انفو، https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/١٢٦٧٨.htm أُطّلع عليه بتاريخ ٠١ /٠٩/ ٢٠٢٤ على الساعة ١٠.

المصادر:

١. أوعثماني (ستار)، وثيقتان للشيخ بوزيان عن ثورة الزعاطشة، مجلة المرآة، المجلد٤، العدد١، ٢٠٢٣م، ص٥٢-٦٨.

٢. براشيش (نصر الدين)، المقاومة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر ثورة الزعاطشة نموذجًا، مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، العدد٤٣، ديسمبر ٢٠١٧م، ص ١١٥-١٣٨.

٣. بلعزوز (العربي)، مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة ١٨٤٩ على ضوء الكتابات الأجنبية، مجلة عصور الجديدة، المجلد٨، العدد١، ماي ٢٠١٨م، ص١٢٨-١٤١.

٤. بلاح (بشير)، تاريخ الجزائر المعاصر، ج١، دار المعرفة، الجزائر، ٢٠٠٦م.

٥. بوعزيز (يحيى)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، ٢٠٠٩م.

٦. جيلالي (حورية)، الاستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩، مجلة المرآة، مخبر الدراسات المغاربيّة، النخب وبناء الدولة الوطنيّة، جامعة أحمد بن بلة، وهران، العدد٤، ديسمبر ٢٠١٥م، ص٩٧-١٠٤.

٧. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج١، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٨. سعدي (عثمان)، الجـــزائر في التاريخ، دار الأمة، الجزائر، ط١، ٢٠١١م.

٩. العلوي (محمد الطيب)، مظاهر المقاومة الجزائريّة من عام ١٨٣٠ حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤م، دار البعث، قسنطينة، ط١، ١٩٨٥م.

١٠. عموره (عمار)، الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى ١٩٦٢ الجزائر عامة، ج١، دار المعرفة، الجزائر، ٢٠٠٩م.

١١. كحول (عباس)، مقاومة الزعاطشة من خلال موقف ومراسلات شيوخ الزوايا بالزاب الشرقي وأحمر خدو، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة محمد خيدر، بسكرة، العدد٢٥، ديسمبر ٢٠١٧م، ص٦٦١-٦٨٤.

١٢. لونيسي (رابح)، انتفاضة سكّان واحة الزعاطشة عام ١٨٤٩ من خلال مذكرات الجنرال هيربيون، مجلة عصور، جامعة وهران، العدد٢، السنة١، ديسمبر ٢٠٠٢م، ص٧٣-٨٤.

١٣. منور (العربي)، تاريخ المقاومة الجزائريّة في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، ٢٠٠٦م.

١٤. مياسي (ابراهيم)، ثورة الزعاطشة ١٨٤٨م، مجلة الدراسات التاريخيّة، معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد المزدوج ١١، ١٢، ٢٠٠٠م، ص٩٧-١٠٤.

١٥. نايلي (عبد القادر)، المقاومات والانتفاضات الشعبية من خلال المجلة الافريقية La Revue Africaine انتفاضة الزعاطشة نموذجًا، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٨م.

المواقـــــع الالكترونيـــــة:

١٦. الجلفة انفو

17. https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/12678.htm

أُطّلع عليه بتاريخ ٠١ /٢٠٢٤/٠٩ على الساعة ١٠.

١٨. الجلفة انفو:
https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/12528.html
أُطّلع عليه بتاريخ ٠٤ /٢٠٢٤/٠٩ على الساعة٢٢:٠٠ .
١٩. عروبة الجزائر من قبائلها، https://www.facebook.com/orobeteldjazair/posts أُطّلع عليه بتاريخ ٠١ /٢٠٢٤/٠٩ على الساعة ٩.

دور علماء الأزهر
في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ والإنجليزيّ

د. غيضان السيّد علي[1]

المُلخّص

عمل علماء الدين في مصر - الذين تخرجوا في الأزهر الشريف الجامع والجامعة - على التصدّي للمحاولات الاستعماريّة التي استهدفت مصر مع نهاية القرن الثامن عشر، وتمثّلت في الاستعمار الفرنسيّ سنة ١٧٩٨م، أو تلك التي جاءت مع بدايات العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وتمثّلت في الاستعمار الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م. وقد فطن علماء الدين الإسلامي إلى حقيقةٍ مهمّةٍ فحواها أنّه إذا كان الغزو العسكري المباشر يستهدف السيطرة الماديّة على البلاد، وسرقة خيراتها وثرواتها وكنوزها، فإنّ المشروع الحقيقي للاستعمار هو تشويه الثقافات، وطمس الهويّات وخاصّة الهويّة الإسلاميّة. ومن ثم كان لعلماء الدين دورٌ بارزٌ في مواجهة الاستعمار وغزوه السياسيّ والثقافيّ، تجلّى بوضوحٍ في كلّ الوقائع الميدانيّة التي خاضتها البلاد من أجل التحرّر من الاستعمار، التي سلك فيها المستعمِر كافة سُبله الوحشيّة والبربريّة من قتلٍ، وتمثيلٍ بالجثث، وتعذيبٍ، وسجنٍ، ومصادرة أموالٍ وأملاكٍ، وهدم أحياءٍ بكاملها على رؤوس ساكنيها، وغير ذلك من أفعال المستعمِر التي تعكس همجيّةً ووحشيّةً تتنافى مع أبسط مبادئ الإنسانيّة.

الكلمات المفتاحيّة: علماء الدين، الأزهر، ثورة القاهرة الأولى، ثورة القاهرة الثانية، ثورة ١٩١٩م، ثورة يوليو ١٩٥٢م.

---

١. متخصّصٌ في الفكر الإسلامي، وأستاذٌ بكليّة الآداب جامعة بني سويف/ مصر.

مقدّمة

يقوم علماء الدين الإسلامي منذ عصر نزول الوحي حتى اليوم بدورٍ عظيمٍ في الدفاع عن الأوطان ومواجهة المحتلّين والظالمين والمتجبّرين والمتغطرسين، فلم يبخلَ- الصادقون منهم- بنفيسٍ ولا غالٍ، فبذلوا – وما زالوا يبذلون- المال والنفس عن رضًى وهم صابرون محتسبون، يرجون الأجر والثواب من الله تعالى وحده[١].

وفي هذا البحث نحاول أن نلقي الضوء على جهود بعض من علماء الدين في مصر الذين تصدّوا للمحتل الأجنبي سواء أكان فرنسيًّا أم إنجليزيًّا، وسطّروا أروع صفحات البطولة والفداء والوطنيّة في الدفاع عن الأرض والعرض، عن الهويّة والدين، وعن المقدّسات والثوابت الدينيّة.

تعرّضت مصر منذ نهايات القرن الثامن عشر حتى اليوم إلى ثلاثة أنواعٍ من الاستعمار أو الاحتلال، كان أوّلها عام ١٧٩٨م، حيث كان الاحتلال الفرنسيّ لمصر بقيادة نابليون بونابرت الذي قاد حملته الشهيرة على مصر لكنّها أمام جهود المخلصين من أبناء الوطن لم تستطع الصمود واحتلال مصر سوى ثلاث سنوات؛ فكان الجلاء عن مصر في عام ١٨٠١م. ثم كان الاستعمار الإنجليزيّ الأطول عمرًا ومكوثًا، والأصعب والأكثر تأثيرًا في مصر حيث استمر من ١٨٨٢م، حتى عام ١٩٥٦م، أي ما يقرب من ٧٥ عامًا. ثم كان احتلال الكيان الصهيوني لجزءٍ غالٍ ونفيسٍ من أرض مصر، وهو شبه جزيرة سيناء عام ١٩٦٧م، وقد اندحر هذا المحتلّ الصهيوني عام ١٩٧٣م، بعد نصر أكتوبر العظيم.

ومع كلّ استعمارٍ أو احتلالٍ كان يَهِبُ علماء الدين من المسلمين للدفاع، سواء في المجال السياسي أو على مستوى النضال الميداني وحمل السلاح، أو على مستوى النضال في الميدان الثقافي، فيقاومون الغزو الفكريّ والاستلاب الثقافيّ، وهو دورٌ لا يقلّ أهميّةً عن النضال السياسي أو حمل السلاح لمقاومة المستعمِر.

وسوف نقتصر في هذا البحث على تناول دور علماء الدين الإسلامي في التصدّي للاستعمار الفرنسي الذي استعمر مصر في يوليو ١٧٩٨م، ولم يمكث إلّا ثلاثة أعوامٍ حتى تم إجلاؤه مرغمًا عن مصر بفعل تلك المقاومة التي صاحبتها عزيمةٌ لا تلين من الشعب المصري على وجه العموم وعلماء الدين وطلّابه في الأزهر الشريف على وجه الخصوص. وكذلك المستعمِر الإنجليزي الذي

١. آثر الباحث استخدام مصطلح (علماء الدين) بدلًا من مصطلح (رجال الدين)؛ لأنّ الإسلام ليس به كهنوت ولا إكليروس، وإنّما به علمٌ وعلماء؛ فمصطلح (علماء الدين) يعني أنّ هؤلاء (العلماء) أعلم وأدرى وأفقه من غيرهم بالإطار المعرفي للدين. أمَّا مصطلح (رجال الدين) فيعني احتكار هؤلاء (الرجال) للدين، وأنّهم يمثّلون وساطةً بين الله وعباده، وأنّهم ظلال الله على الأرض، وأنّ كلّ اجتهادٍ يصدر منهم فهو مقدّسٌ ومطلق الصواب، وهذا يتنافى كليًّا مع تعاليم الشريعة الإسلاميّة.

احتلّ مصر لأكثر من سبعين عامًا حتى تم إجلاؤه نهائيًّا عام ١٩٥٦م. على أمل أن نخصّص بحثًا مستقلًّا لتناول جهود علماء الدين الإسلامي في مقاومة المحتلّ الصهيوني الذي وإن كان قد تم دحره وإنهاء احتلاله لجزءٍ من أرض مصر إلاّ أنّه لا يزال يحتلّ أجزاءً غاليةً من بلداننا العربيّة الإسلاميّة.

قُسّم هذا البحث إلى قسمين رئيسين؛ تناول القسم الأول: دور علماء الدين في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ. وتناول القسم الثاني: دور علماء الدين في مواجهة الاستعمار الإنجليزي. واشتمل القسم الأول على أربعة مباحث أساسيّة، هي: ١- سياسة التعايش وموقف علماء الدين منها. ٢- دور علماء الدين في ثورة القاهرة الأولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨م). ٣- دور علماء الدين في ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس ١٨٠٠م) .٤- أبرز العلماء في مواجهة الاستعمار الفرنسي. في حين اشتمل القسم الثاني على ثلاثة مباحث رئيسة، هي: ١- دور علماء الدين في مواجهة العدوان العسكريّ الإنجليزيّ سبتمبر ١٨٨٢م. ٢- دور علماء الدين في ثورة مارس ١٩١٩م. ٣- دور علماء الدين في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

وقد استخدم الباحث في إنجاز بحثه مجموعةً من المناهج البحثيّة، لعلّ أهمّها المنهج التاريخي الذي يتمّ من خلاله سرد الوقائع والأحداث مرتبةً زمنيًّا. والمنهج التحليليّ الذي يعمل على تحليل النصوص وعرض الأفكار ومناقشاتها، وكذلك المنهج الوصفي؛ إذ إنّه الأنسب في وصف دور علماء الدين في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ والإنجليزي.

أولًا: دور علماء الدين في موجهة الاستعمار الفرنسي

أدّى علماء الدين في الأزهر الشريف دورًا كبيرًا على كلّ المستويات النضاليّة في مواجهة الحملة الفرنسيّة، بل تكاد تكون مواقفهم هي المواقف الأبرز في تاريخ مقاومة الاستعمار؛ فقد كانوا في طليعة جموع المصريين لمقاومة المحتلّ الغاشم بحكم مكانتهم الدينيّة والعلميّة، وهو الأمر الذي أدركه نابليون بونابرت مبكّرًا قبل مجيئه إلى مصر؛ لذلك عندما وصلت الحملة الفرنسيّة مصر حاول نابليون أن يتودّد إليهم فأضفى عليهم كثيرًا من مظاهر الاحترام والتبجيل والتقدير، واستبقى لهم امتيازاتهم، وعلى رأسها حصصهم في نظام الالتزام في القرى، وتنظّرهم على الأوقاف.

وأمر بأن يؤدّي رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقرّ القيادة العامّة للجيش الفرنسي في الأزبكيّة التحيّة العسكريّة بالسلاح لعلماء الأزهر، إذا جاءوا لمقرّ القيادة، فإذا دخلوا هذا المقرّ خفَّ لاستقبالهم رجال الياوران والمترجمون يرحبون بهم، ويقودونهم إلى الصالون الرئيس في القصر، وتُقدم لهم المرطبات ثم القهوة، فإذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونابرت ورحّب بهم،

وجلس وسطهم، محاولاً أن يدخل في نفوسهم الطمأنينة والثقة [١]. وكان هذا ضمن خطّةٍ محكمةٍ تتغيّا تأييد علماء الدين للاحتلال الفرنسي فيكون لهذا التأييد أصداء بعيدة في نفوسٍ جماهيرٍ الشعب المصري، فيخلدون إلى السكينة، وعدم المقاومة. لكن هذه الخطّة لم تنجح ووقف منها علماء الدين موقفًا حازمًا تجلّى في عدّة نقاطٍ مهمّةٍ نرصد لها فيما يأتي:

١. سياسة التعايش السلميّ وموقف علماء الدين منها

حاول نابليون أن يمارس سياسةً استعماريّةً مع علماء الدين في الأزهر أطلق عليها بعض المؤرّخين المصريين (سياسة التعايش السلمي)، بينما أطلق عليها المؤرّخون الفرنسيّون (سياسة بونابرت الإسلاميّة Politiqe Musulmanne de Bonaparte)، وانطلاقًا من هذه السياسة تظاهر نابليون باحترامه للدين الإسلامي، وبالحرص على استمرار المسلمين في إقامة الشعائر الدينيّة كالصلاة في المساجد، ثم الاحتفال بالمناسبات الدينيّة الإسلاميّة وغيرها ربطًا للشعب الإسلامي في مصر بالحكم الفرنسي [٢].

ومن ثمَّ حرص نابليون على مهادنة علماء الدين؛ لأنّه كان يدرك المكانة الحقيقيّة لهؤلاء العلماء، فقد نظر إليهم من زاويتين: الأولى، أنّهم الصفوة الممتازة من الطبقة المستنيرة في البلاد، والمتعمّقون في الدراسات الدينيّة واللغويّة أو السوربونيّون.

أمّا الزاوية الثانية، فهي أنّهم زعماء الشعب المصري الذين اعتاد أن يفزع إليهم عندما يشعر بالظلم؛ إذ كان علماء الدين سرعان ما يتدخّلون لدى الحكّام لرفع المظالم عن المظلومين. فكانوا بذلك أكثر عناصر المجتمع المصري نفوذًا وهيبةً، وعلمًا واحترامًا، واستقرارًا ووقارًا [٣].

ولذلك عندما بدأ الأمر يستتب لنابليون في القاهرة، وطاب له المقام ببيت محمد بيك الألفي بالأزبكيّة، استدعى العلماء والمشايخ ليشكّل منهم الدواوين (ديوان القاهرة- دواوين الأقاليم- الديوان العام)، وكان على رأس هؤلاء العلماء:

الشيخ عبد الله الشرقاوي (شيخ الأزهر حينذاك)، والشيخ خليل البكري، والشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ سليمان الفيومي، والشيخ محمد المهدي، والشيخ موسى السرسي، والشيخ مصطفى الدمنهوري، والشيخ أحمد العريشي، والشيخ يوسف الشبرخيتي، والشيخ محمد

١. الشنّاوي، عبد العزيز محمد، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣، ص٢٦-٢٧.

٢. المصدر نفسه، ص٧.

٣. المصدر نفسه، ص٨.

الدواخلي[١]. وعلى إثر ذلك أصدر نابليون بونابرت في ٢٧ يوليو ١٧٩٨- أي في خلال الأسبوع الأول لدخوله القاهرة- قرارًا بتخصيص حصان لكلّ عالمٍ من علماء الأزهر (دكاترة الشريعة كما أطلق عليهم) من أعضاء ديوان القاهرة، وكان هذا القرار يحمل معنى التكريم والتقدير للمشايخ علماء الأزهر بالذات، لكنّ هذا القرار لم يثبت أنّه وضع موضع التنفيذ[٢].

وإمعانًا في توطيد (سياسة التعايش السلمي) التي حرص عليها نابليون أنّه لمَّا امتنع المصريّون عن إقامة احتفالهم السنويّ بالمولد النبويّ الشريف نظرًا للظروف العصيبة التي تمرّ بها البلاد، سأل نابليون عن السبب فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل نابليون بذلك، وقال: (لا بد من ذلك)؛ أي لا بدّ من إقامة الاحتفال بالمولد النبويّ الشريف، وأعطى للشيخ البكري ثلاثمائة ريال فرانسة[٣] معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنسيّون يوم المولد، وملأوا الميادين وضربوا الطبول، ونفخوا في المزامير، وأشعلوا بعضًا من الألعاب الناريّة[٤]. وطلب نابليون المشايخ فلمّا اجتمعوا عنده نهض بونابرت من المجلس، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كلّ طيلسان ثلاثة عروض: أبيض وأحمر وكحلي، فوضع منها واحدًا على كتف الشيخ الشرقاوي فرمى به إلى الأرض، واستعفى وتغيّر مزاجه، وانتقع لونه واحتدّ طبعه، فقال الترجمان: «يا مشايخ، أنتم صرتم أحبابًا لصاري عسكر، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيّه وعلامته، فإنّ تميّزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة في قلوبهم»، فقالوا له:» لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين»، فاغتاظ نابليون من ذلك القول[٥]، وأيقن أنّ خدعة (سياسة التعايش السلمي)، لم تنطل على هؤلاء المشايخ الذين أدركوا أنّ سياسة بونابرت ليست صادرةً عن عقيدةٍ حقيقيّةٍ وإيمانٍ صحيح، وإنّما هي ضربٌ من الخداع يتغيّا تخدير الشعب وتسكينه حتى تتوطد دعائم الحكم الفرنسي في مصر.

٢. دور علماء الدين في ثورة القاهرة الأولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨)

١. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣ تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨، ص ١٦.

٢. عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، ص٢٨.

٣. ريال فرانسة عملة كانت سائدة في القرن الثامن عشر، وكان سعره في ازدياد دائم؛ إذ وصل سعره عام ١٧٩٨م إلى مئة نصف فضة بالعملة المصريّة آنذاك، ثم وصل في أقلّ من عشرين عامًا، أي في عام ١٨١٦م، إلى ٣٦٠ نصف فضة. وكان العامة في مصر يطلقون عليه (ريال فرانسة)، وهو يشبه الدولار الأمريكي واليورو في أيامنا الراهنة.

٤. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص ٢٤-٢٥

٥. المصدر نفسه، ص ٢٦

وبعد اشتداد وطأة الفرنسيّين على المصريّين وعلى أهالي القاهرة خاصّة، إذ فرضوا عليهم الضرائب الباهظة، وصادروا أملاكهم وأموالهم، وأسرفوا في قتل الأهالي، فزادت كراهية المصريّين للفرنسيّين، ووجدت هذه الكراهيّة صداها بين علماء الدين في الجامع الأزهر [١]. وفي صباح يوم الأحد من جمادى الأولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) اندلعت ثورةٌ دينيّةٌ عارمةٌ في القاهرة على الحكم الفرنسي، تنادى إليها الأزهريّون وتزعمها الشيخ محمد السادات، بعد أن كوّنوا مجلسًا لقيادة الثورة، جعل من الجامع الأزهر مقرًّا له، وانطلق المؤذنون من مآذن المساجد في القاهرة يدعون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم بالثورة على الفرنسيّين، فنفر عددٌ كبيرٌ من المصريّين خفافًا وثقالاً حتى امتلأت شوارع القاهرة بالثوّار وهم يصيحون: نصر الله دين الإسلام، نصر الله السلطان [٢].

واجتمع علماء الدين في رحاب الجامع الأزهر، وأخذوا يحثّون الناس على الثورة، ممّا لهم من كلمة مسموعة عند عامّة الناس، وبما ألهبوا حماسهم من خطب دينيّة جعلتهم لا يأبهون بالموت من أجل حماية دار الإسلام من تدنيس الفرنسيين، فكان المصريّون لا يخفون حسرتهم واستياءهم من انتصار غير المؤمنين الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدّسة، ورأوا أنَّه من الخزي والعار أن تسقط مصر في أيدي الفرنسيين؛ لأنّها تقع على الطريق المؤدّي إلى الحجاز مهد الكعبة، وغيرها من الآثار الإسلاميّة المقدّسة. ولم ينخدع المصريّون بمزاعم نابليون ولا سياسة التعايش السلمي، وكانوا يقولون: كلّ هذا خداع ومخاتلة ريثما يتملك، وأمَّا هو فنصراني ابن نصراني» [٣].

وفي تلك الأثناء أعلن السلطان العثماني الحرب على فرنسا في سبتمبر ١٧٩٨م، وأصدر منشورًا يدعو فيه المصريين إلى الجهاد الديني ضدّ الفرنسيين، مؤكّدًا فيه على العاطفة الدينيّة؛ إذ وصف الفرنسيّين بأنّهم قومٌ لا ينكرون وحدانيّة الله فقط ، ولا ينكرون رسالة محمد فحسب، بل ينكرون وجود الله، ويهزؤون بكلّ الأديان، ولا يعتقدون في يوم الحساب، والحياة الآخرة، وأنّهم يحللون ما تحرّمه الأديان، ويعتقدون أنّ الكتب السماويّة ليست إلّا مجموعة من الأكاذيب، أو نوعًا من الأساطير، وأنّ موسى وعيسى ومحمدًا ليسوا إلّا رجالاً عاديين لم يخصّهم الله بالرسالة التي

١. سليمان، عبد الباسط محمد أمين، الأزهر ومساندة الثورات في مصر ومقاومة الاستعمار، المؤتمر العلمي الدولي الثالث- دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربيّة وآدابها والفكر الإسلامي، كليّة اللغة العربيّة بالزقازيق- جامعة الأزهر، مج٣، ٢٠١٢، ص ٣٣٣٤.

٢. الشنّاوي، عبد العزيز محمد، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، ص٣٧.

٣. الترك، نقولا يوسف، مذكرات نقولا الترك، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيت، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٠، ص٦٠.

عهد إلى كلٍّ منهم تبليغها إلى بني الإنسان[١]. كما ساعدت أخبارًا أخرى في شحذ همم المصريّين على الثورة من قبيل: هزيمة الفرنسيّين في موقعة أبي قير البحريّة، وانقطاع الاتّصال بين الحملة وفرنسا، ونقص عدد أفراد الجيش الفرنسي يومًا بعد يوم.

وقد انطلقت الثورة من الأزهر؛ حيث أصبح مركز تجمّع الثوّار الذين تدفقوا من كلّ حدبٍ وصوبٍ يحملون ما استطاعوا أن يتسلّحوا به من بنادق وسيوف ونبابيت، وشرعوا في مهاجمةً أماكن إقامة وتجمّع الفرنسيين في مناطق عديدةٍ من القاهرة، واستطاعوا قتل حاكم القاهرة الفرنسي دوبويDupuy، ومعه سكرتير بونابرت وعدد كبير من جنود الحملة ممّا زاد من حماستهم، فما كان من بونابرت إلّا أن أمر جنوده بمهاجمة الأزهر وقذفه بالمدافع من تلال المقطم، ثم محاصرة الجامع وقطع السُبل المؤدّية إليه، وضربوا الأحياء المجاورة له، في الوقت الذي شرع فيه الثوّار في شنّ هجوم ضارٍ على مقرّ القيادة الفرنسيّة في حي الأزبكيّة، وظلّوا يطلقون بنادقهم حتى قتلوا عددًا كبيرًا من الفرنسيّين[٢]. فما كان من الفرنسيّين سوى أن أطلقوا النيران من مدافعهم صوب القاهرة من أعلى جبل المُقطّم، وكما يقول أحد ضبّاط الحملة:» وإنّ نيران مدفعيتنا تركّزت بشكلٍ أساسيّ على المسجد (الأزهر) الذي ضيّقت دوريتنا الخناق على الثوار به»[٣].

وبعد إخماد الثورة بالغ الفرنسيّون في التنكيل بالمصريين قتلاً وحرقًا ونهبًا ومصادرة للأموال والممتلكات، حتى قال أحد ضباطهم:» وقد كان للاحتياطات التي اتّخذناها لوأد بذور هذا التمرّد والشدّة التي أظهرناها في هذه الظروف والمآسي التي جلبتها هذه المدينة على نفسها أبلغ الأثر في إثارة الرعب في نفوس من راودتهم أنفسهم أو تحمّسوا لكي يحذو حذو أهل القاهرة»[٤].

فلم يكن يُشاهَد في منطقة الأزهر إلّا مبانٍ محترقة، ودورٌ منهارة، وقد دفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض[٥]. فضلاً عن المذبحة الرهيبةً التي ارتكبها الفرنسيّون داخل الأزهر، فقد ربطوا الخيول في قبلة المسجد، وتبوّلوا، وقضوا حوائجهم في شتّى أرجاء الجامع، وألقوا المصاحف على الأرض وداسوها بأحذيتهم، وسرقوا خزائن الطلبة. ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ

١. الشنّاوي، عبد العزيز محمد، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، ص٤٨.

٢. الشلق، أحمد زكريا، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٨٩٨-١٨٠١)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩، ص٩٤.

٣. مواريه، جوزيف ماري، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ص٧٧.

٤. المصدر نفسه، ص٧٧.

٥. عبد العزيز محمد الشنّاوي، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، ص١٠٢.

الجامع الأزهر حينذاك: «إنّ اليهود انتهزوا الفرصة، فدخلوا الأزهر في أثر الجنود، واستولوا على مصاحف نفيسةٍ وكتبٍ قيّمة»[١].

ونتيجة لتزعم علماء الدين في الأزهر الثورة ألقى الجنود الفرنسيّون على خمسةٍ من علماء الأزهر، هم: الشيخ سليمان الجوسقي، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي، وكلّهم من الفقهاء والمحدِّثين من الصف الثاني من علماء الأزهر، واعتقلوهم في دار البكري، ثم صعدوا بهم إلى القلعة، وسجنوهم حتى الصباح، ثم أجلسوهم القرفصاء في فناء القلعة وأطلقوا على كلٍّ منهم عيارًا ناريًا أرداه قليلاً [٢]. ثم ألحقوا بهم ثمانية آخرين من علماء الدين البارزين في الأزهر، ليصل عددهم ثلاثة عشر عالمًا - كما أشار إلى ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوي [٣]- تم قتلهم بوحشيّةٍ وبربريةٍ تتنافى مع أبسط مبادئ الإنسانيّة.

٣. دور علماء الدين في ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس١٨٠٠)

لم تكن نفوس المصريين قد هدأت ممّا حدث في ثورة القاهرة الأولى من أعمال قتلٍ ونهبٍ وتخريبٍ، حتى اشتعلت ثورةٌ أخرى عُرفت بثورة القاهرة الثانية، وانطلقت من حي بولاق في ١٦ شوال سنة ١٢١٤هـ الموافق ٢٠ مارس ١٨٠٠م، وامتدّت إلى جميع أحياء القاهرة على مدى ثلاثة وثلاثين يومًا. وقد اشترك فيها من علماء الدين البارزين الشيخ عمر مكرم والشيخ محمد الجوهري، وكان لهما دورٌ بارزٌ في توجيه الثورة وإلهاب حماس الثوّار لدرجة أنّ كليبر القائد العام للحملة بعد رحيل بونابرت عن مصر، لم يجد حلاًّ لتهدئة الأمور سوى أن يلجأ لكبار علماء الدين في الأزهر؛ فأرسل في طلب نخبةٍ من العلماء البارزين كان على رأسهم الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، والشيخ محمد المهدي، والشيخ السرسي، والشيخ الفيومي، وغيرهم من أعيان علماء الدين في الأزهر وعرض عليهم إنهاء الثورة مقابل أن يعطي أهل القاهرة أمانًا وافيًا، وعبثًا حاول علماء الأزهر تهدئة الأمور لحقن الدماء ووقف عمليات الإحراق والتخريب لكن دون جدوى. وهنا أمر كليبر بالهجوم العام على حي بولاق وضربه بالمدفعيّة حتّى اشتعلت النيران في البيوت والمتاجر والوكائل، فتناثرت جثث القتلى ودُفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض أو احترقت في لهيب النيران حتى دُمر الحي بأكمله، ثم تتابع هجوم الفرنسيّين على سائر أحياء القاهرة مثل باب

١. المصدر نفسه، ص١٠٤.

٢. المصدر نفسه، ص١١٥.

٣. الشرقاوي، عبد الله، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة، تحقيق وتعليق رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦، ص١٢٢.

اللوق، والمدابغ، والفجالة، وكوم أبي الريش، وباب الشعرية، والرويعي، وباب البحر، وحاقت بالثوار الفظائع والأهوال [١]، حتى لم يجد الثوار سبيلاً للنجاة ولا للنصر أمام القوة الغاشمة للمحتلّ الفرنسي فاضطروا لتقبّل الهزيمة مرغمين.

وبعد أن نجحت القوات الفرنسيّة في إخماد الثورة فرض كليبر غرامات باهظةً على بعض من علماء الأزهر المشاركين في الثورة وبعض المصريين، وكان على رأس العلماء الشيخ محمد السادات، والشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ محمد الجوهري، وأخوه الشيخ فتوح الجوهري، الذين تم القبض عليهم وتعذيبهم حتى يدفعوا ما فُرض عليهم، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر حينذاك: «ووكل بجمع ذلك منهم رجلاً من القبط يُقال له يعقوب، ففرض ذلك على طوائف الناس والحرف، وصار يجمع بمشقةٍ عظيمةٍ من ضربٍ وغيره حتى صار بعض الناس يموت من شدّة الضيق والحبس، وطلبوا من شيخ السادات سيديّ محمد أبي الأنوار مالاً عظيمًا نحو خزنة، وحبسوه وباعوا جميع متاعه، فلم يفِ بثلث ما طُلب منه»[٢]، فصاروا يضربونه خمس عشرة عصا في الصباح، ومثلها في الليل، وطلبوا زوجته حتى استدلوا عليها، وأحضروها إلى محبسه، وكانوا يضربونه أمامها زيادةً في الإذلال والتعذيب.

وكانت لهذه القسوة في معاملة رجلٍ من كبار علماء الدين وصاحب مركزٍ ممتازٍ ينتمي إلى الأسرة النبويّة الشريفة أبلغ الأثر في نفوس الشعب بعامّة، وطلّاب الأزهر على وجه الخصوص، حتى خرج أحد طلّاب الأزهر القدامى وهو شاب يُدعى سليمان الحلبي على كليبر فقتله في بستان خلف البيت الذي في الأزبكيّة، وقُبض على هذا الثائر الأزهري الذي كان قد أفضى إلى أربعةٍ من طلّاب الرواق بعزمه على اغتيال كليبر، وتمّت محاكمته، وصدر حكم المحكمة العسكريّة بإعدام القاتل والطلبة الأربعة. وكان الحكم غاية في الوحشيّة والبربريّة، إذ نصّ الحكم على وسائل تنفيذ أحكام الإعدام من الخازوق إلى قطع الرؤوس إلى إحراق بعض الجثث وترك بعضها في العراء تفترسها الجوارح؛ فبالنسبة للمتّهم الأول سليمان الحلبي نصّ الحكم على أن تحرق يده اليمنى التي قتل بها القتيل، ثم يتخوزق؛ أي يعدم على الخازوق، وتترك جثته في العراء تفترسها الجوارح! وأن يُعدم شركاؤه الأربعة بقطع رؤوسهم ثم توضع الرؤوس فوق نبابيت، ثم تحرق بقية جثثهم بعد الإعدام، وأن تنفذ جميع هذه الأحكام علنًا أمام الجنود والأهالي [٣].

١. الشنّاوي، عبد العزيز محمد، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، ص١١٥.

٢. الشرقاوي، عبد الله، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، ص١٢٤.

٣. الشنّاوي، عبد العزيز محمد، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، ص١٦٩.

٤. أبرز العلماء في مقاومة الاستعمار الفرنسي

نلاحظ ممّا سبق كيف تحمل علماء الدين الإسلامي في الأزهر العبء الأكبر في مقاومة المحتل الفرنسي، ويأتي على رأس هؤلاء السيّد عمر مَكْرم الذي يقول عنه المؤرّخ الكبير عبد الرحمن الرافعي:» كان أكبر زعماء الشعب نفسًا، وأكثرهم شجاعة وإقدامًا، وأعظمهم نفوذًا، وأرفعهم كلمةً، فلا غرو أن نعدَّه زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء... أسيوطي المولد والنشأة، ولد في أسيوط ونشأ فيها؛ ولذلك يسميه في بعض المواطن السيد عمر الأسيوطي، وقد تحققنا أنّه من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[١].

كان نقيبًا للأشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسيّة، ممّا أعطاه مكانةً كبيرةً بين الناس، فلما جاء الفرنسيّون ظهرت شخصيّته الكبيرة ونفسيّته القويمة بما دعا الشعب إليه من التطوّع للقتال وما بثّه في نفوس الجماهير من روح المقاومة، وكان له دورٌ كبيرٌ في المقاومة قبل سقوط القاهرة، نادى بالنفير العام وحثّ الناس على الخروج الناس بالمتاريس استعدادًا للمقاومة، وسار في مقدّمة الثوّار من بولاق حتى إمبابة حيث وقعت الواقعة المسماة بواقعة الأهرام، فكان في طليعة المتطوّعين للقتال المدافعين عن القاهرة في وجه الاحتلال الفرنسي، ولمّا وقعت الهزيمة في معركة الأهرام لم يرضَ بالبقاء في القاهرة بعد إن أصبحت تحت رحمة الغزاة، ولم تلن قناته لهم على الرغم من أنّهم اختاروه لعضويّة الديوان الأول، فرفض العضويّة وهاجر إلى سوريا، وآثر الهجرة والنفي وشظف العيش إباء للضيم ونفورًا من الذل، وترك في مصر أمواله وأملاكه عرضة للنهب والمصادرة. أعاده الفرنسيّون مكرّمًا إلى مصر بعد احتلالهم يافا، فاعتزل الفرنسيّون ولو اتّصل بهم لأغدقوا عليه النعم والعطايا، لكنَّه أَبى، ولما كانت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها، ولما أخمد الفرنسيّون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية وعاد إليها بعد جلاء الفرنسيين [٢].

ثم يأتي الشيخ محمد السادات - الذي سبقت الإشارة إليه – في المرتبة نفسها مع السيد عمر مُكْرم؛ إذ إنّه كان سليل بيت السادات العريق في المجد وشرف المحتد، تربى في مهاد العز والنعمة، وتلقّى العلوم الشرعيّة واللغويّة على شيوخ الأزهر، فوصل في العلم والثقافة إلى ما وصل إليه علماء العصر، وجمع بين العلم وشرف النسب. كان جريئًا في الحقّ لا يهاب من بيده سلطة الحكم، جاهد الفرنسيين خير جهاد، اختاروه لعضويّة الديوان فرفض العضويّة، تزعم ثورة القاهرة الأولى وقامت عليه البينات بذلك، ولكن نابليون رأى أنّ محاكمته تجعله شهيدًا في نظر الشعب،

١. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطوّر نظام الحكم في مصر، ج٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢١، ص ٢٦٣-٢٦٤.

٢. المصدر نفسه، ص٢٦٤-٢٦٦.

وأنّ الضرر من قتله أكثر من نفعه، فأبقى عليه. وكان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ممّا جعله ينال من التعذيب والتنكيل والإذلال ما أشرنا إليه سابقًا.

كما يأتي ذكر الشيخ عبد الله الشرقاوي المولود بقرية الطويلة بإقليم الشرقيّة، الذي حفظ القرآن في قريته، وطلب العلم بالأزهر، وانتظم في سلك العلماء المعدودين حتى شغل أرفع المناصب العلميّة والدينيّة وهو منصب شيخ الأزهر سنة ١٢٠٨م، فعظمت منزلته، وأكسبته المشيخة نفوذًا كبيرًا ومكانةً عظمى في كافّة ربوع البلاد؛ لأنّ شيخ الأزهر يُنظر إليه بوصفه كبير علماء العصر. ولما جاء الفرنسيّون إلى مصر تولّى رئاسة الديوان الذي تأسّس في أول عهد الحملة، ثم تولّى رئاسة الديوان العام، ثم تولّى رئاسة الديوان العمومي والديوان الخصوصي اللذين أنشأهما نابليون في ديسمبر سنة ١٧٩٨م، ثم كان رئيسًا للديوان الذي تأسّس في عهد الجنرال مينو، وقد كان الوحيد الذي جمع بين رئاسة الديوان ومشيخة الأزهر، ورغم أنّه لم يكن صداميًّا إلّا أنّه قد كان له مع الفرنسيين شأنٌ طويل، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات؛ الأولى في عهد نابليون حينما رفض أن يرتدي طيلسان الجمهوريّة المثلث الألوان ورمى به إلى الأرض، فغضب عليه نابليون وقال إنّه لا يصلح لرئاسة الديوان. والثانية في عهد الجنرال مينو؛ إذ ارتاب الفرنسيّون في موقفه بعد مقتل كليبر لأنَّ قاتله كان يبيت في الأزهر ويقيم فيه، فأحضره الفرنسيّون رفقة الشيخ أحمد العريشي قاضي مصر وحجزوهما إلى منتصف الليل، وألزموهما البحث عن الأزهريّين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبي في اعترافه، وإحضارهم.

والثالثة كانت في عهد مينو أيضًا إذ تم حبسه مع مجموعةٍ من العلماء في القلعة مئة يوم خوفًا من تحريضهم أهل البلاد على الفرنسيّين الذي داهمهم جنودٌ الحلفاء من الأتراك والإنجليز، وتم الإفراج عنه مع بقية المعتقلين بعد جلاء الفرنسيين عن مصر [١]. كما أنّه شارك السيّد عمر مَكْرم في مجلس الحرب الذي عُقد ببيت القاضي لمناقشة كيفيّة التصدّي لحملة فريزر الإنجليزيّة على مصر عام ١٨٠٧ [٢].

كم كان الشيخ سليمان الفيومي من أصحاب المواقف المشهودة في جهاد الفرنسيّين. وُلِد الشيخ بالفيوم وحضر إلى القاهرة وحفظ القرآن وتلقّى العلوم بالأزهر، واشتهر بقضاء حوائج الناس، فكان الناس يلجؤون إليه لرفع المظالم وقضاء الحاجات فلا يبخل على أحد بجاهه وسعيه، فكان وافر الحرمة شهير الذكر، بعيد الصيت، مرعي الجانب، مقبول القول عند الأكابر والصغائر. ومن مواقفه التي يخلدها له التاريخ أنَّه حينما جاء الفرنسيّون على مصر وطردوا المماليك خرج نساؤهم من

١. المصدر نفسه، ص ٢٧١

٢. دور الأزهر في الحياة المصريّة، ص٢٥٤-٢٥٥.

بيوتهم وذهبن إليه أفواجًا لاجئاتٍ إليه، فامتلأت بهن داره وما حولها من الدور، فحماهن وتصدّى للدفاع عنهن أمام الفرنسيّين [١].

كما ساند ثورة أمير الحج مصطفى بك نائب الوالي التركي القديم بالشرقيّة، الذي دعا إلى الثورة في كافّة أنحاء البلاد، وأخذ الشيخ الفيومي في الطواف مع مصطفى بك كافة أنحاء البلاد لإثارة الفلاحين ضدّ الفرنسيّين الغزاة. كتب عنه الجنرال دوجا في رسالة إلى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة لما له من المكانة بين الناس، وقد رجع إلى القاهرة بعد إخماد ثورة أمير الحج ووُضع تحت المراقبة [٢]. وفي أواخر أيام الحملة الفرنسيّة أُعتقل في القلعة حين وردت أنباء الحملة الإنجليزيّة العثمانيّة، ولم يلبث قليلاً حتى أفرجوا عنه [٣].

كما لا يمكن إغفال دور الشيخ محمد المهدي بوصفه واحدًا من أهمّ العلماء الذين كان لهم دورٌ مشهودٌ في مقاومة المحتلّ الفرنسي، وهو عالمٌ من كبار العلماء، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء، تردّد اسمه كثيرًا في مذكرات نابليون وقُوّاد جيشه في معظم المراجع الفرنسيّة ممّا يعبّر عن دوره البارز في معظم الأحداث التي حدثت في مصر أثناء الحملة الفرنسيّة؛ إذ دافع عن سكّان القاهرة عندما راجت الإشاعات بأنّهم عاملون على إثارة الفتنة، إذ استدعاه الجنرال دوجا وكلَّمه في هذا الصدد فحاجَّه المهدي، ونفى التهمة عن المصريين، وانعقد الديوان في اليوم التالي، وكذّب المهدي أقوال الوشاة، ودافع عن سكّان العاصمة وكفاهم انتقامًا وشيكًا. كما تم اعتقاله بالقلعة ضمن من اعتقلوهم من أعضاء الديوان في أواخر عهد الحملة.

ويشارك الشيخ المهدي المكانة نفسها الشيخ مصطفى الصاوي وهو من كبار العلماء المشار إليهم بالبنان، وكان مرشحًا لمشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ العروسي، وزاحم فيها الشيخ الشرقاوي، فهو إذًا قرين الشيخ الشرقاوي وندّه في العلم والمكانة، كان أحد أعضاء الديوان، ورغم ذلك شارك في ثورة القاهرة الثانية، وكان له فيها دورٌ بارزٌ؛ لذلك اضطهده الفرنسيّون بعد إخماد الثورة، وخصُّوه بجزءٍ من الغرامة التي فرضوها على سكّان القاهرة، واعتقلوه حتى سدد ما فُرض عليه، وكان نصيبه في الغرامة خمسين ألف ريال، واعتقلوه للمرة الثانية في مارس ١٨٠١ بعد وصول الحملة الإنجليزيّة العثمانيّة [٤] حتى لا يؤلّب الجماهير على الثورة ضدّ الفرنسيين.

---

١. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القوميّة وتطوّر نظام الحكم في مصر، ج٢، ص ٢٧٥

٢. المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

٣. المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

٤. المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

وهكذا وقف علماء الدين من الأزهريّين مواقف مشهودةً ضدّ المستعمِر الفرنسي، فلقى بعضهم حتفه، وتحمل بعضهم الآخر كافّة أنواع الأذى من نفيٍ وحبسٍ وتعذيبٍ ومصادرة الأموال والأملاك، لكن ذلك كلّه لم يفت في عضدهم، وصمدوا حتى النهاية، حتى شاهدوا المستعمِر الفرنسي يرحل عن بلادهم مهزومًا مدحورًا عقب مجيئه بثلاث سنواتٍ فقط قضاها في مصر لم يذق فيها طعم الراحة، ولم يحقّق أيًّا من أهدافه التي جاء من أجلها.

ثانيًا: دور علماء الدين في موجهة الاستعمار الإنجليزي

أدّى علماء الدين دورًا كبيرًا في مقاومة المحتل الإنجليزي كما كان شأنهم في مقاومة المحتل الفرنسي، بل إنّهم لعبوا الدور الأبرز في الأحداث الجسام التي قام بها الشعب المصري ضدّ الاحتلال الإنجليزي، وهي: مقاومة دخول المحتلّ الإنجليزيّ لمصر عسكريًا، وفي ثورة ١٩١٩م، وأثناء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. وسوف نعرض فيما يأتي بشيءٍ من التفصيل دور رجال الدين في مقاومة المستعمِر الإنجليزيّ الذي احتلّ البلاد أكثر من سبعين عامًا؛ إذ فطن المستعمِر الإنجليزيّ منذ مجيء الحملة الفرنسيّة إلى مصر إلى أهميّة موقع مصر الجغرافي للمواصلات والتجارة العالميّة، وزادت الأهميّة بعد افتتاح قناة السويس للملاحة العالميّة عام ١٨٦٩م. وبعد وقوع الخديو إسماعيل في فخ الديون التي استدانها من إنجلترا وفرنسا وعجز عن سدادها، والتي كانت سببًا مباشرًا لتدخّل الدولتين السافر في شؤون مصر، الأمر الذي جعل إنجلترا تشتري أسهم مصر في قناة السويس والبالغة نصف الأسهم متذرعةً بعدم قدرة مصر على سداد الديون، ومن ثم بدأت الهيمنة الإنجليزيّة على مصر تدريجيًّا حتى تمّ الاحتلال العسكريّ الرسميّ في سبتمبر ١٨٨٢م.

١. دور علماء الدين في مواجهة العدوان العسكريّ الإنجليزيّ

عندما خرج أحمد عرابي لملاقاة المحتل الإنجليزي أعلن الخديو توفيق الموالي للإنجليز عزل عرابي من منصبه، لكن المجلس العرفي، المكوّن من جميع طوائف الأمة وعلى رأسها علماء الدين، قرر بقاءه، واكتسب عرابي تأييدًا شعبيًّا جارفًا، وأُطلق عليه (حامي حمى الديار المصريّة).

وكان من أشهر هؤلاء العلماء الذين وقفوا هذا الموقف الجريء الشجاع: الشيخ محمد الإنبابي شيخ الجامع الأزهر الذي أفتى بعدم صلاحيّة الخديو توفيق للحكم، بعد أن باع مصر للأجانب، مناصرًا بذلك عُرابي ورفاقه[١]، وكذلك الشيخ حسن العدوي، مفتي المالكيّة، والشيخ عبد الهادي الإبياري، والشيخ محمد الأشموني، والشيخ خليل العزازي، والشيخ عبد القادر الرافعي عضو

١. محمد، أشرف صالح، الأزهر الشريف والسلطة في مصر، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد (٢٨٣) أبريل ٢٠١٤، ص١٠٦.

المحكمة الشرعيّة، والشيخ عبد الله الدرستاني مفتي ضبطية مصر، والشيخ مسعود النابلسي، والشيخ محمد القلماوي، والشيخ زين المرصفي، والشيخ أحمد الخشّاب قاضي مديريّة الجيزة، والشيخ أبو العلا الخلفاوي، والشيخ سليم عمر القلعاوي، والسيد عبد الباقي البكري نقيب الأشراف، والشيخ عثمان مدوخ [١]. ولم يتوقّف العلماء عند ذلك الحدّ، بل عقدوا الاجتماعات، وألقوا الخطب، ونظموا القصائد الحماسيّة التي ألهبت حماس الجماهير لجهاد المحتل الغازي؛ فقال الشيخ محمد أبو الفضل في الخطبة التي ألقاها في جامع الحنفي بالقاهرة:» قد تميّز الغثّ من الثمين، واستبان أنّ الإنجليز جاءوا محاربين يريدون- لا أمكنهم الله- سلب الأموال وهتك الحرم، وقد جاءوا بمكرٍ وخداعٍ يصطادون بشباكهم الأوطان من غير قتالٍ أو دفاع، كما هو ديدنهم القبيح في كلّ إقليم، فيقظ لذلك العقلاء والشجعان وذبوا عن الأعراض والأوطان»، ونظم الشيخ السيد المرصفي قصيدةً كان مطلعها:

يــا صــاح قــمْ واشــكرْ إلهَــكَ واحمــدِ

فالديــن منصــور عــلى يــد أحمــدِ

إلى غير ذلك من خطبٍ وقصائد لا يتّسع المقام لحصرها أو ذكرها [٢]. وقد ذهب الشيخ عليش إلى خطّ النار في كفر الدوار، وقام في طائفةٍ من العلماء ومشايخ الطرق يدعو الله للثوّار بالنصر على الأعداء ويشدّ من أزرهم، وكان من أشهر المشايخ الذين رافقوا الشيخ عليش إلى خطّ النار: الشيخ حسن العدوي، والشيخ أحمد البصري، والشيخ أحمد مروان.

وبعد هزيمة الجيش المصري قي ١٣ سبتمبر ١٨٨٢م لأسبابٍ شتّى، تم إلقاء القبض على أحمد عُرابي قائد الجيش المصري، وحُكم عليه بالإعدام، ثم خُفّف الحكم ليتمّ نفيه هو ورفاقه (علي فهمي وعبد العال حلمي ومحمود سامي البارودي وطلبة عصمت ومحمود فهمي ويعقوب سامي) إلى جزيرة سيلان [٣]. وهنا أسفر الخديو توفيق عن وجهه الخائن بالارتماء في أحضان الغزاة فكان لا بدّ من معاقبة العلماء الذين تعاونوا مع العرابيين؛ فنُفي الشيخ عليش إلى الآستانة، والشيخ محمد الهجرسي إلى مكّة المكرّمة، والشيخ يوسف شرابة إلى غزّة، والشيخ محمد عبده إلى بيروت، ورافقه

١ . علي، سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، القاهرة، كتاب الهلال، دار الهلال، العدد (٤٣١)، صفر ١٤٠٧-نوفمبر ١٩٨٦، ص ١٦٧.

٢. علي، سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، ص ١٦٩.

٣. انظر، سالم، لطيفة محمد، التدخل الأجنبي والثورة الوطنية (١٨٧٩-١٨٨٢)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٩، ص ٣٥٩.

منفيًّا إلى بيروت كلٌّ من: الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتي، والشيخ عبدالقادر، والشيخ محمد عبدالجواد، والشيخ أمين أبو يوسف. كما تم تجريد عددٍ كبيرٍ من المشايخ من ألقابهم [١].

ومع لجوء بعض المشايخ إلى المهادنة مع الخديو خوفًا من سيفه أو طمعًا في ذهبه، فإنّ أكثر المشايخ من العلماء الحقيقيين، ظلّوا على موقفهم المعادي للسلطة العميلة: مثل الشيخ حسن العدوي الذي أعلن أمام لجنة التحقيق أنّه على استعداد (الآن) للتوقيع على فتوى عزل الخديو؛ لأنّه خرج عن الدين والوطن [٢]. كذلك الشيخ محمد خليل الهجرسي الذي كان منفيًا إلى الحجاز ولمّا انتهت مدّة نفيه أرسلت إليه الحكومة إذنًا بالعودة إلى وطنه، فرفض أن يعود «حتى يعود عُرابي، وحتى يموت توفيق، أو يتنحى عن عرشه» [٣].

كما أصدر الشيخ محمد عبده جريدة (العروة الوثقى) بعد خروجه من منفاه ورحيله إلى باريس مع جمال الدين الأفغاني في مارس١٣٠١/١٨٨٤م، وكانت أول صحيفةٍ قاومت الاحتلال مقاومة جمعت بين الروح الثوريّة وبلاغة العبارة، والسخط على السياسة الاستعماريّة البريطانيّة، وكانت تعمل على بعث روح الأمل والجهاد في النفوس، وهي مجلةٌ أسبوعيّة، سُمّيت بالعروة الوثقى باسم الجمعيّة التي كانت تتولى الإنفاق عليها، وقد ظهر العدد الأول منها في٣ مارس١٨٨٤م، وكان غرضها الأساس إنارة الرأي العام؛ لذا أصدر مجلس الوزراء قرارًا بمنع دخولها مصر، وذلك بعد أن انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة، ثم أصدر أمره إلى نظارة الداخليّة المصريّة قاضيًا بأن تشتدّ في منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصريّة، ومن توجد عنده نسخة منها يغرم بمبلغٍ من خمسة جنيهات مصريّة إلى خمسة وعشرين جنيهًا، ذلك أنّ كلّ عددٍ منها كما ذكر السيّد رشيد كسلك الكهرباء الذي إذا اتّصل بالجسد أحدث الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال [٤].

٢. دور علماء الدين في ثورة مارس ١٩١٩م

يعدّ المؤرّخون ثورة ١٩١٩م قمّة الثورات الوطنيّة المصريّة؛ إذ خرجت جميع طوائف الشعب للمشاركة فيها كبارًا وصغارًا، مسلمين ومسيحين، تجارًا وصنّاعًا ومزارعين، سكّان القاهرة مع سكّان الأقاليم، وشاركت المرأة المصريّة بدورٍ بارزٍ في هذه الثورة لأوّل مرة.

---

١. علي، سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، ص ١٧٦.

٢. المصدر نفسه، ص ١٨٢.

٣. علي، سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، ص ١٨٣.

٤. الهدهد، إبراهيم، علماء الأزهر وطلابه في مواجهة الاحتلال البريطاني(١٨٨٢-١٩١٩م)، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، صفر ١٤٣٩ه/ نوفمبر٢٠١٧م، ص٣٠٢.

لكن يبقى دور علماء الدين هو الدور الأبرز؛ فقائد هذه الثورة الزعيم سعد زغلول، وهو أحد علماء الأزهر الذين تعلّموا وتخرجوا فيه، كما «تصدّرت الطبقة المثقّفة النضال وقادته منذ البداية، وانبثّ أفرادها بين العمال في المدن، والفلاحين في القرى، يوقظون الوعي والشعور وينظّمون الصفوف»[١]. وكان الأزهر هو المكان الفسيح - كما يقول عبد الرحمن الرافعي- الذي لم تستطع السلطة العسكريّة اقتحامه ومنع الاجتماعات فيه بسبب مكانته ومنزلته الدينيّة؛ ولهذا أصبح محفلاً عامًّا للخطابة يتبارى فيه الخطباء من كلّ الطبقات، ويقف على منبره القسّ المسيحي إلى جانب العالم المسلم. وظهر خطباء للثورة عرفوا بمواهبهم الخطابيّة التي تسترعي الأسماع من أمثال الأستاذ يوسف الجندي، والدكتور زكي مبارك، والدكتور محجوب ثابت، والشيخ مصطفى القاياتي، والشيخ محمود أبو العيون [٢].

كما يشير الرافعي إلى دور علماء الدين من الأزهريين في ثورة ١٩١٩ فيقول: «كان الأزهريّون في مقدمّة صفوف المتظاهرين، ومن أكثر الطلبة جرأةً وحماسةً وتضحية، ومن أشدّ العاملين على بثّ روح الثورة والاضطراب في طبقات الشعب، وكثيرًا ما كانت المظاهرات تبدأ من الأزهر، هذا إلى أنّ الاجتماعات العامّة كانت تُعقد فيه غاليًا، فكان يموج كلّ مساءٍ بالألوف المؤلّفة لسماع الخطب الناريّة والقصائد الحماسيّة التي تُلقى فيه ضدّ الاحتلال والحماية»[٣]؛ لذلك تمركزت الدوريات الإنجليزيّة أمام أبواب الأزهر، لكي تمنع خروج المظاهرات من داخله، فرابطت أمامه مدججةً بالسلاح والمدافع الرشاشة، ولكن هذه الوسائل لم ترهب طلّابه ومشايخه، وقد حدث أن هجم أحد الطلبة على أحد المدافع الرشاشة واختطفه من أيدي الجنود، وسار به نحو زملائه عند أبواب المسجد، فألهب الحماسة في نفوسهم، ولكن الجند أدركوه واستردوه منه، وقتلوه رميًا بالرصاص، فكان هذا العمل في ذاته جرأةً منقطعة النظير [٤]. كما رفض الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي شيخ الأزهر في ذلك الوقت الاستجابة لطلب الإنجليز بإغلاق الجامع الأزهر [٥].

وفي يوم ١٢ من مارس كان أول تعرّضٍ مسلّحٍ من الجنود البريطانيين لطلبة الأزهر، وكان أوّل

---

١. رمضان، عبد العظيم، تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨-١٩٣٦، ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٩٩٨، ص١٣٠.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٧، ص ٢٣٠.

٣. المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.

٤. المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.

٥. محمد، أشرف صالح، الأزهر الشريف والسلطة في مصر، ص١٠٦.

الشهداء من طلبة الأزهر. وفي يوم ١٣ من مارس ظهر الأزهريّون في قيادة مظاهرة المسجد الحسينيّ بعد صلاة الجمعة التي أطلقت المدرعات البريطانيّة عليها النار، فقتلت منهم ١٢ شخصًا، وكان العلماء وطلبة الأزهر في مطلع المظاهرة الكبرى في ١٧ مارس. وكان علماء الأزهر في مقدمة العناصر التي يستشيرها الوفد في خطواته مثلما حدث قبل تقديم تقرير الوفد إلى المارشال (اللنبي) في ٢٦ من مارس، إذ استشار فيه علماء الأزهر، وبطريرك الأقباط، وبعض الوزراء، والنواب.

وفي أوّل أبريل اشتدت ثورة الأزهر وكثرت اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكريّة في مخاطبة شيخ الأزهر في إغلاقه دفعةً واحدة، أو الاكتفاء بإغلاقه في غير أوقات الصلاة، فأبى. وفي يوم ١٧ من مارس سارت مظاهرةٌ في القاهرة ضمت نحو ١٠ آلاف شخصٍ بقيادة طلبة الأزهر [١]. وهكذا سجّل علماء الدين من رجال الأزهر أروع الأمثلة في المقاومة الباسلة ضدّ المستعمر الإنجليزي في ثورة مارس ١٩١٩.

٣. دور علماء الدين في ثورة يوليو ١٩٥٢م

رغم إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، الذي أعلنت فيه بريطانيا انتهاء الحماية البريطانيّة على مصر، وأنّ مصر أصبحت دولةً مستقلّةً ذات سيادةٍ مع تحفظاتٍ أربعة تضمّن الآتي: الأول، حقّ بريطانيا في تأمين مواصلات الإمبراطوريّة البريطانيّة في مصر؛ وذلك لتبرير وجود جيش احتلالٍ إنجليزيّ في مصر.

والثاني حقّها في الدفاع عن مصر؛ وذلك لتبرير منع تكوين جيشٍ مصريٍّ قويّ. والثالث حقّ بريطانيا في حماية المصالح الأجنبيّة في مصر وحماية الأقليّات؛ وذلك لتبرير تدخّلها في الشئون الداخليّة المصريّة. والرابع، حقّها في التصرّف في السودان [٢].

لذلك كان استقلال ١٩٢٢م استقلالا مبتورًا، فكان لزامًا على الشعب استمرار النضال والكفاح من أجل الاستقلال التام، وكان ذلك يستدعي تثقيف الشعب وتبصيره بما يدور من حوله، وكانت هذه المهمّة تقع على عاتق الشيوخ والمثقّفين، وكان لا بدّ من التدبير والتخطيط لهذا، وفي هذه الثورة أدّى الشيوخ والعلماء دورًا مزدوجًا؛ إذ كانوا همزة الوصل بين الجيش ورجالاتٍ من الشباب المتمرّد على الظلم والأحكام العرفيّة في البلاد وبين الثوّار وبين أفراد الشعب ليقنعهم بكفاءة هؤلاء الضبّاط الأحرار المحبّين لوطنهم الرافضين للذلّ والهوان، فكان التحام الشعب مع الجيش في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م للخلاص من الملك وأعوانه ومن الاحتلال والاستعمار وآثامه وللحصول على

١. عاطف، مصطفى، الأزهر في مقاومة الاحتلال، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، جمادى الآخرة ١٤٣٩ه/ فبراير ٢٠١٨م، ص١٠٧٧.

٢. القوصي، عطية وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، طبعة وزارة التربية والتعليم، ٢٠١٢/٢٠١١، ص١٩٠.

الاستقلال التام[١].

فثورة ٢٣ يوليو هي ثورة على الأوضاع الاستعماريّة وفساد الحكم، هي ثورةٌ تحريريّةٌ قامت لتحقيق الجلاء وتحرير البلاد من ربقة الاستعمار، ولتطهير أداة الحكم من الفساد؛ فالاحتلال والاستعمار، ومساوئ حكم الملك فاروق، كانت البواعث السياسيّة على ثورة يوليو، وأهدافها السياسيّة منذ الساعة الأولى هي التحرّر من الاحتلال والاستعمار، وإسقاط حكم فاروق معًا [٢].

ومن البواعث الأساسيّة لقيام ثورة يوليو ما رآه الضبّاط الأحرار أو طالعوه من ماضي الأمّة في الجهاد، والثورات الشعبيّة التي قامت من قبل ضدّ الاحتلال الأجنبيّ والاستبداد الداخلي، فإنّ صفحات الماضي قد غرست في نفوسهم روح الكفاح الوطني من أجل الحريّة والاستقلال، وانطبعت في أذهانهم ثورات الشعب على الفرنسيّين، ثم ثوراته على المماليك والأتراك، ثم الثورة العُرابيّة، فالثورة الوطنيّة على الاحتلال، فثورة سنة ١٩١٩م، واستمرار روح الثورة، إلى الكفاح في القنال سنة ١٩٥١ [٣]. ومن ثم كان عامل الوعي هو أهمّ العوامل التي عمل على تنميتها علماء الدين في ذلك الوقت والتي آتت أُكلها بشكلٍ رائعٍ في وقتٍ محدود.

فقامت مجموعةٌ من العلماء بإصدار بيانٍ دعوا فيه إلى الجهاد ضدّ إسرائيل بعد صدور قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧م، ومحاربة من يقف وراء إسرائيل. كما قام الشيخ الإمام عبد المجيد سليم شيخ الأزهر في الفترة بين (١٩٥٠-١٩٥٢) بالاعتراض على فساد الملك فاروق الأول قائلاً عبارته الشهيرة (تقتير هنا وإسراف هناك)، في إشارة إلى بذخ الملك فاروق وتبذيره الأموال الكثيرة على ملذاته الشخصيّة وتقتيره على الشعب [٤].

وبعد قيام الثورة ناصرها الشيوخ والعلماء وعلى رأسهم الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر في الفترة ما بين (١٩٥٢-١٩٥٤)، الذي بادر بدعوة الرئيس محمد نجيب لزيارة الأزهر ليشهد مبايعة شيخه وعلمائه وطلّابه في مبايعة خاصّة [٥]، وقام الشيخ محمد الخضر حسين بوصف الثورة بأنّها «أعظم انقلابٍ اجتماعيّ مرّ بمصر منذ قرون» [٦]. وكان محقًّا في ذلك إلى حدٍّ

١. سليمان، عبد الباسط محمد أمين، الأزهر ومساندة الثورات في مصر ومقاومة الاستعمار، ص٣٣٤٤.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٧، ص١٥٨.

٣. م، ن، ص ١٥٩.

٤. محمد، أشرف صالح، الأزهر الشريف والسلطة في مصر، ص١٠٧.

٥. انظر، جريدة الأهرام السنة ٧٩ بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٥٢، ص١٢.

٦. محمد، أشرف صالح، الأزهر الشريف والسلطة في مصر، ص١٠٧.

كبير؛ إذ تحقّق بفضلها جلاء المستعمِر الأجنبيّ عن أرض مصر، وانتهجت الجمهوريّة الجديدة سياسة الحياد وعدم الانحياز في الشؤون الخارجيّة، والبعد عن الأحلاف العسكريّة الاستعماريّة، وعملت على تقوية الجيش وتسليحه، وتأميم قناة السويس، وبعث القوميّة العربيّة، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة بإصدار جملة من القوانين كان أهمّها قانون الإصلاح الزراعي الذي حدّد ملكيّة الفرد بمئتي فدانٍ كحدٍّ أقصى؛ فقضى بذلك على الإقطاع والإقطاعيين، كذلك كان الاهتمام بالتعليم، والصحّة، والصناعة، والزراعة، والاقتصاد الوطني واضحًا بشكلٍ بارزٍ على طاولة الاهتمامات الحكوميّة لرجال الثورة.

كما ألقى الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر عام ١٩٥٤م، خطبة عصماء يحتفي بها بالثورة المصريّة في عيدها، قال فيها: «واليوم نحتفي بثاني العيدين الوطنيين، ولكنّه في الحقيقة أولهما بحسب الترتيب الواقعي، هو عيد الثورة، التي انفجرت بها الوطنيّة المكبوتة والتي هب بها أحرار الشعب من رجال الجيش، بقيادة البطل الماهر، الزعيم الأمين جمال عبد الناصر، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢»[١]. وفرّق الشيخ محمد عرفه عضو جماعة كبار العلماء ومدير مجلة الأزهر حينذاك، بين عهدين: عهد ما قبل الثورة، وعهد الثورة وما بعدها في مقالته (عهدان) بقوله: «أمَّا أحدهما فليل بهيم، وأمَّا ثانيهما فصبح منير»[٢]. ثم أتبعه بمقالٍ آخر بعنوان (بماذا نبدأ؟)، واصل فيه تأييده للثورة وأوضح مهامها في الإصلاح الشامل وما ينبغي عليها أن تبدأ به. ثم كان المقال الشهير للعالم الجليل محبّ الدين الخطيب رئيس تحرير (مجلة الأزهر) تحت عنوان (حقائق)؛ ذهب فيه إلى القول: «تدارك الله كنانته برجال قويت نفوسهم بسلاح الأخلاق، واطمأنت قلوبهم لقواعد الدين، فحملهم ذلك على المغامرة بتجريد سلاح الأمّة لإنقاذها من الغشّ المخزي والرياء المخجل، وحاولوا انتشال هذا الوطن المسكين - المظلوم من فراعنته، المهضوم الحقّ من أقوبائه وأذكيائه - فاجتثوا شجرة الغشّ والرياء وألقوا بها في عرض البحر لتقذف بها أمواجه في بقاعٍ أخرى إلى غير رجعة. وكان ذلك إيذانًا من الله بتحويل دفة السفينة المصريّة وشراعها عن اتجاههما الخاطئ إلى الوجهة السليمة»[٣].

وكتب الشيخ محمد محمد خليفة من علماء الأزهر الشريف مناصرًا للثورة مقاله الأشهر (وانتصرنا على الخوف)، الذي جاء فيه: «لقد صنعت سياسة الاستعمار من بعض الملوك أشباه

١. انظر، تاج، عبد الرحمن، عيد الثورة – ٢٣ يوليو، مجلة الأزهر، المجلد (٢٨)، الجزء (١)، ص٧٤.

٢. انظر، عرفة، الشيخ محمد، عهدان، مجلة الأزهر، المجلد (٢٤)، الجزء (٢)، ص٢٠٢.

٣. انظر، الخطيب، محب الدين، حقائق، مجلة الأزهر، المجلد (٢٥)، الجزء (٦)، غرة جمادى الأخرة ١٣٧٢- ١٥ فبراير ١٩٥٣، ص٦٥٠.

أرباب، وسيقت إليهم نفوس المستذلين قرابين تستحل دماؤها وتستباح أرواحها، ونصبت سياسة الاستعمار حول هؤلاء الملوك سياجًا يستمدّ قوته من سلطان المستعمِر، ويحمي سيادته الجوفاء حديد المستعمِر وناره، وجعلت سياسة الاستعمار تصوّر هؤلاء المَلوك معابد نسجت لها من الرهبة الزائفة قدسيّة، وساقت إليها الشعوب تتمسح بالأعتاب، وطالما تمسح بأعتاب المستعمر صاحب الأعتاب حتى دوى النفير وصاح النذير: لا استعمار، ولا صنيعة بيننا للاستعمار، تحرّرنا من التضليل، وانتصرنا على الخوف»[١].

وكتب الشيخ عبد اللطيف السبكي عضو جماعة كبار العلماء مقالاً يناصر فيها الثورة ويباركها، جاء فيه: «مصر- بطبيعتها، وبتدينها، وبأزهرها، وبأصالة الخلق الديني فيها- ليست مستعدةً للانسلاخ عن مقوماتها، والتي أبرزت شخصيتها منذ القدم بين جاراتها وغير جاراتها من الدول. فكيف وقد تولى قيادتها وأمورها أناسٌ من أبنائها لحمًا ودمًا، ومن أسرها المحافظة الكريمة، ومن نبغائها الذين ادّخرهم القدر لهذه الساعات المرموقة وللحياة المرجوة التي تعثرت مصر في الطريق إليها عثراتٍ مدميات، ثم لم تيأس حتى آلت القوس إلى باريها»[٢].

كذلك يمكننا الإشارة إلى موقف بعض علماء الدين الذين انضووا تحت رايات الحركات الإسلاميّة، وكان أشهرها على الإطلاق في ذلك الوقت، جماعة الإخوان المسلمين، الذين وقفوا موقفًا إيجابيًّا من الثورة في البداية، وإنْ كان قد تغيّر الموقف بعد ذلك إلى صراعٍ مع مجلس قيادة الثورة لرغبة الإخوان في القيام بالوصاية على الثورة. إلّا أنّ موقفهم في البداية كان لصالح الثورة، وهذا ما يؤكّده كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة وأحد نوّاب رئيس الجمهوريّة؛ حيث ذكر الرجل أنّ الإخوان المسلمين كانوا على علمٍ بموعد الثورة قبل قيامها، وأنّه قد اتّصل في ٢٠ يوليو ١٩٥٢ هو وجمال عبد الناصر بالإخوان بمنزل صالح أبو رقيق الموظف بالجامعة العربيّة؛ حيث أطلعوا الإخوان على تفاصيل الحركة، وأنّ الإخوان كان لهم متطوّعون على طريق السويس لاحتمال تحرش قوات الإنجليز بالثورة، وأنّ أعدادًا منهم كانت تقوم على حراسة المنشآت العامّة والمرافق أثناء الثورة [٣].

وهو الأمر الذي أكّده بيان المرشد العام لجماعة الإخوان بوادي النيل والذي نشرته جريدة الأهرام في ٢٨ يوليو ١٩٥٢م في صفحته السادسة، حيث أوردت تحت عنوان: (الإخوان يؤيدون

١. خليفة، محمد محمد، وانتصرنا على الخوف...!، مجلة الأزهر، المجلد (٢٩)، الجزء (٥)، ص ٤٤٥.

٢. السبكي، عبد اللطيف، موقف الثورة من الأزهر، مجلة الأزهر، المجلد (٢٧)، الجزء (٦)، ص ٦٧٦.

٣. انظر، حمروش، أحمد، شهود ثورة ٢٣ يوليو، ج٤، بيروت، ١٩٧٧، ص٣٣٧.

الجيش ويؤازرونه ويدعون إلى حماية نهضته الصادقة)[١]. وقد جاء في مقدمة هذا البيان ما يدلّ دلالةً واضحةً على تأييد الإخوان للثورة، من قول المرشد العام: «في الوقت الذي تستقبل فيه البلاد فيه مرحلةً حاسمةً من تاريخها بفضل هذه الحركة المباركة التي قام بها جيش مصر العظيم، أهيب بالإخوان المسلمين في أنحاء الوادي أن يستشعروا ما يلقى عليهم الوطن من تبعاتٍ كبيرةٍ في إقرار الأمن وإشاعة الطمأنينة وأخذ السبيل على الناكصين ودعاة الفتنة، ووقاية النهضة من أن تمسّ روعتها وجلالها بأقلّ أذى أو تشويه»[٢].

وهكذا وقف علماء مصر ومشايخها مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢؛ لأنّهم رأوا في هذه الثورة خلاص مصر من الاستعمار بصوره كافة؛ خلاصًا من الاستعمار الإنجليزي العسكري الذي بدأ في سبتمبر ١٨٨٢ في عهد الخديو توفيق، وخلاصًا من الاستعمار والغزو الفكري والثقافي، والاحتلال الاقتصادي والاجتماعي، الذي سبق الاحتلال العسكري بنحو عشرين عام؛ حيث تمكّن من أوصال البلاد من خلال (الامتيازات الأجنبية) في عهد الخديو إسماعيل (١٢٣٩-١٨٦٣)، حينما أقنعوه أنّ التقدّم لا يأتي إلّا من ناحية أوروبا، فَحَلِمَ بأن تصبح مصر قطعةً من أوروبا، حتى أغرقوه في الديون، ومات مخلوعًا ذليلًا. وهذا جزاء من يؤمن بأنّه يمكن أن يتعاون الذئب مع الحمل. كما رأى علماء الدين في ثورة ٢٣ يوليو خلاصًا من عملاء الاستعمار وأعوانه ممثلين في الملك وحاشيته وأعوانه ممّن تعاونوا مع المستعمِر الأجنبي.

خاتمة

وهكذا انتهى بحث موضوع (دور علماء الدين في مواجهة الاستعمار الفرنسي والإنجليزي) إلى مجموعةٍ من النتائج المهمّة، كان من أهمّها ما يأتي:

أولًا: إنّ علماء الدين في مصر جاء جُلّهم عبر مؤسسةٍ واحدةٍ هي مؤسّسة الأزهر الشريف الذي كان بمنزلة جامع ومدرسة وجامعة تخرّج فيها علماء الدين في مصر وفي كثيرٍ من البلاد الإسلاميّة. فكان من الطبيعي أن يتشرب علماؤه وطلابه مبادئه التي أرساها ودشّنها مشايخ الأزهر الكبار على مرّ التاريخ، وما اتّسموا به على مرّ العصور من عزة وشموخ وإباء؛ إذ لم يرضوا يومًا بالظلم، ولم يهادنوا ظالمًا أو مستعمرًا، بل كانوا- دائمًا- صوتًا صداحًا بالحقّ لا يخشى في الله لومة لائم. ويتفق هذا الدور الجهادي لعلماء الدين مع قواعد الدين الإسلامي ومبادئه؛ فالإسلام يدعو إلى الجهاد، بل يجعله ذروة سنامه، كما يدعو إلى الحريّة ويقدسها، ويمقت الذين يختارون الضعف والعبوديّة ويستسلمون للذلّ والهوان.

١. انظر، جريدة الأهرام بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٥٢، ص٦.

٢. زهمول، إبراهيم، الإخوان المسلمون- أوراق تاريخية، بدون بيانات نشر، ص٢٠٣.

ثانيًا: إنّ دور علماء الدين في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مرورًا بالقرن العشرين لم يقف عند حدود الإفتاء في أمور الدين وقضاياه الشائكة أو تعليم علوم القرآن والحديث والسيرة والفقه وغيرها من علوم الدين، وهو بلا شكّ شأن عظيم ومهمة جليلة، وإنّما تعدّى ذلك؛ إذ التحموا بهموم الناس ومشاكلهم وقضاياهم، والتي كان على رأسها مناهضة الاستعمار والثورة عليه؛ فحملوا هم الأوطان فوق أكتافهم ودافعوا عنها بكلّ ما أوتوا من قوةٍ، ولم يبخلوا بالنفس والمال والأهل والولد، بل بذلوا كلّ غالٍ ونفيسٍ من أجل تحرير البلاد من الاستعمار وأعوانه، وقد ظهر ذلك جليًّا في مقاومتهم الباسلة ضدّ الاستعمار الفرنسي والإنجليزي على السواء.

ثالثًا: إنّ الاستعمار لم يترك أرضنا إلّا مُرغمًا وأنفه في التراب، بعد إن استنفذ قواه في إخضاع بلادنا، وبعد أن اقترف أبشع الجرائم وأكثر الأفعال انحطاطًا من قتل للأبرياء، ونهب المؤن والمتاع، وسرقة الأموال والكنوز، والآثار والنفائس العلميّة. وإنّه لا يزال حتى يومنا هذا يحوك المؤامرات والمكائد التي ينصبها للشعوب العربيّة والإسلاميّة لسرقة أقواتها وأرزاقها، ونهب أموالها وأرزاقها، والقضاء على مقوماتها وكيانها وهويتها.

رابعًا: لم يكن الغزو الاستعماري الفرنسي أو الإنجليزي مقتصرًا على أساليبه العسكريّة ومظاهره السياسية، كما يلوح لمن ينظر إليه في أوّل وهلة، وإنّما كان غزوًا فكريًّا وثقافيًّا، واحتلالًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا، ثم هو بعد ذلك غزوٌ عسكريٌّ واحتلالٌ سياسيّ، لمواصلة الغزو الفكريّ والاحتلال الاجتماعيّ والاقتصاديّ. فالغزو الفكريّ والثقافيّ، والاحتلال الاجتماعيّ والاقتصاديّ هما الغرض الأول من الاستعمار، والغزو السياسيّ والعسكريّ وسيلةٌ لهما في بعض الظروف، أو نتيجة من نتائجهما في ظروفٍ أخرى، وهو الأمر الذي فطن إليه علماء الدين في مصر وتصدّوا له.

خامسًا: كان أكثر ما فضحه علماء الدين من أمر الاستعمار والمستعمِرين هو اختلاق المستعمِرين لمزاعم لا أساس لها والترويج لها لتبرير الاحتلال والسيطرة الاستعماريّة؛ إذ ادّعى الفرنسيّون أنّهم يحبّون الإسلام، وأنّهم لم يأتوا مستعمِرين، وإنّما جاءوا لتأديب المماليك، وشابههم الإنجليز في ذلك؛ إذ ادَّعوا أنّهم جاءوا لينقذوا مصر من التردّي الاقتصاديّ والحضاري، ونقلها إلى مصاف العالم المتحضر؛ وذلك لتعزيز الشرعيّة المزعومة للسلطة الاستعماريّة. كما تصدّى علماء الدين لمحاولة المستعمِر تشجيع الشعور بالنقص الثقافي والدونيّة لدى السكّان المحليين؛ ممّا يجعلهم أكثر قابليةً للتأثر بالدعاية والتلاعب الإيديولوجي. كما تصدّى علماء الدين بقوة لكلّ محاولات المستعمِر في تحريف وتشويه الثقافات والهويّات المحليّة عبر فرض الثقافة الاستعماريّة وإزاحة الثقافات الإسلاميّة، وهو الأمر الذي لا يزال بحاجةٍ إلى بحثٍ وتقصٍّ ورصدٍ للوقوف على حقيقة دور علماء الدين في جهاد المستعمِرين في تاريخنا الحديث والمعاصر.

المصادر والمراجع

١. الترك، نقولا يوسف، مذكرات نقولا الترك، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيت، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٠.

٢. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣ تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريَّة، ١٩٩٨.

٣. الخطيب، محب الدين، حقائق، مجلة الأزهر، المجلد (٢٥)، الجزء (٦)، غرة جمادى الأخرة ١٣٧٢-١٥ فبراير ١٩٥٣.

٤. الرافعي، عبد الرحمن، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٧.

٥. الرافعي، عبد الرحمن، ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٧.

٦. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢١.

٧. السبكي، عبد اللطيف، موقف الثورة من الأزهر، مجلة الأزهر، المجلد (٢٧)، الجزء (٦).

٨. الشرقاوي، عبد الله، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة، تحقيق وتعليق رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.

٩. الشلق، أحمد زكريا، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٨٩٨-١٨٠١)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩.

١٠. الشناوي، عبد العزيز محمد، الأزهر جامعًا وجامعة، الجزء الثاني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.

١١. القوصي، عطية وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، طبعة وزارة التربية والتعليم، ٢٠١٢/٢٠١١.

١٢. الهدهد، إبراهيم، علماء الأزهر وطلابه في مواجهة الاحتلال البريطاني(١٨٨٢-١٩١٩م)، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، صفر ١٤٣٩ه/ نوفمبر٢٠١٧م.

١٣. تاج، عبد الرحمن، عيد الثورة – ٢٣ يوليو، مجلة الأزهر، المجلد (٢٨)، الجزء (١).

١٤. حمروش، أحمد، شهود ثورة ٢٣ يوليو، ج٤، بيروت، ١٩٧٧.

١٥. خليفة، محمد محمد، وانتصرنا على الخوف...!، مجلة الأزهر، المجلد (٢٩)، الجزء (٥).

١٦. رمضان، عبد العظيم، تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨-١٩٣٦، ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٩٩٨.

١٧. زهمول، إبراهيم، الإخوان المسلمون- أوراق تاريخية، بدون بيانات نشر، ص٢٠٣.

١٨. سالم، لطيفة محمد، التدخل الأجنبي والثورة الوطنية (١٨٧٩-١٨٨٢)، فصل بكتاب: المرجع في

تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٩.

١٩. سليمان، عبد الباسط محمد أمين، الأزهر ومساندة الثورات في مصر ومقاومة الاستعمار، المؤتمر العلمي الدولي الثالث- دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي، كلية اللغة العربية بالزقازيق- جامعة الأزهر، مج٣، ٢٠١٢.

٢٠. عاطف، مصطفى، الأزهر في مقاومة الاحتلال، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، جمادى الآخرة ١٤٣٩ه/ فبراير٢٠١٨م.

٢١. عرفة، الشيخ محمد، عهدان، مجلة الأزهر، المجلد (٢٤)، الجزء (٢).

٢٢. علي، سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، القاهرة، كتاب الهلال، دار الهلال، العدد (٤٣١)، صفر ١٤٠٧-نوفمبر ١٩٨٦.

٢٣. محمد، أشرف صالح، الأزهر الشريف والسلطة في مصر، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد (٢٨٣) أبريل ٢٠١٤.

٢٤. مواريه، جوزيف ماري، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.

هولوكوست الأغواط
الاستعمار الفرنسي والإبادة الجماعيّة في الجزائر

د.شريف الدين بن دوبه[1]

المُلخّص

تعدّ الإبادات الجماعيّة، ومنها (محرقة الأغواط) في الجزائر، تجسيدًا للفكر الاستعماريّ القائم على ادّعاء التفوّق واستعلاء الغرب على البشريّة، حيث تُسخَّر الشعوب والثروات لخدمة المركزيّة الاستعماريّة، بينما تُستعمل الواجهات الثقافيّة لتبييض هذا السلوك العدواني.

تستعرض هذه الورقة جريمة الإبادة التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في مدينة الأغواط، التي راح ضحيّتها ثلثا سكّان المدينة. لم تكن هذه المحرقة عملاً عسكريًّا فحسب، بل خطّة استراتيجيّة للسيطرة على موارد الطاقة الهائلة في المنطقة (مثل حاسي الرمل). استعمل الجيش الفرنسي في هذه المعركة وسائل وحشيّة، شملت غاز (الكلوروفورم) لشلّ حركة المواطنين قبل حرقهم ورميهم في الآبار.

تُصنّف هذه الواقعة جريمةَ حربٍ وإبادةً جماعيّةً مكتملة الأركان، وهو ما اعترفت به فرنسا رمزيًّا عبر تدشين «آن هيدالغو» (عمدة باريس) للوحةٍ تذكاريّةٍ تخلّد الحادثة في (شارع الأغواط) بباريس، لتظلّ شاهدةً على وحشيّة الحقبة الاستعماريّة.

الكلمات المفتاحيّة: هولوكوست الأغواط - الإبادة الجماعيّة – المجتمع الجزائري- الأسلحة الكيماويّة.

---

١. جامعة سعيدة/ الجزائر

تمهيد

من النماذج الاستعماريّة التي طالت الشعوب العربيّة الغزو والاحتلال الفرنسي الذي عرف بخبثه ودنائته في التعامل مع الشعوب التي يستعمرها . وإن كان اصطلاح الاستعمار من حيث الدلالة اللغوية يعني التعمير والبناء، لكن الأساليب التي استعملها الغرب الكولونيالي لا تمت بصلةٍ إلى الإعمار، وما تركه المستعمِر المحتل من بناء وعمران لم يكن بغرض تعمير منطقة الضعيف، بل هو استقرارٌ وتسلّطٌ على الأرض التي استولى عليها.

والتعاطي مع الشعوب بلغة الحرق والتعذيب والتنكيل في تاريخ الغرب لا يمكن تبريره بأيّ وجهٍ حتى ولو اعترف وأقرّ المستعمِر بعد ذلك بجرائمه، فلا يمكن إسقاط مسؤوليته عنها، فإذا افترضنا أنّ الأحفاد تناسوا أو قبلوا بالاعتراف، فكيف يمكن ضمان غفران الضحايا؟!

ولم يتوانَ الاستعمار الفرنسي للجزائر في استعمال أيّة وسيلةٍ تثبت ملكه وسيطرته على المناطق التي استعمرها ، وأخطرها تزوير الحقائق التاريخيّة للجزائر، وتهديد هويتها، فإلى هذه الساعة تعيش الجزائر جدلاً هوياتيًّا تركه المستعمِر ليلعب على أوتاره في تمزيق النسيج الاجتماعيّ للمجتمع الجزائري، وإضافةً إلى الطمس التاريخي واستلاب وسرقة الموروث الفكريّ والعلميّ المتمثّل في سرقة المكتبات والمخطوطات التي كانت تزخر بها الجزائر استعمل الأرض الجزائريّة كحقلٍ لتجاربه الكيماويّة والذريّة حيث كان كثيرٌ من أفراد الشعب الجزائري فئران تجارب ليدرس مفعول وأثر تلك الأسلحة على الأفراد البشريّة.

١. جغرافية الأغواط

الأغواط Laghouat واحةٌ من الواحات في الجنوب الجزائري، تقع في الجزء الشمالي الأوسط من الجزائر، يحدّها من الشمال ولاية تيارت، ومن الغرب ولاية البيض، ومن الجنوب ولاية غرداية، ومن الشرق ولاية الجلفة. وبذلك فهي تتوسّط منطقة الأطلس الصحراوي، وبالتالي منطقة السهوب. تشتهر بالنخيل، وتُعرف بتربية المواشي بحكم طابعها الرعوي والسهلي. كما تشتهر ببساتينها المنتشرة على ضفاف الوادي، حيث اصطلح عليها عند الأوروبيين «بالمدينة الحديقة أو مدينة البساتين»[1].

1. Melia. J : Laghouat ou La Maison entourées Des Jardins, Ed. Plan Nourrit et Cie,

وتعدّ حاليًا من أهمّ ولايات الجزائر المساهمة في اقتصاد البلاد؛ إذ تتخطى صادراتها حاجز الـ ٢٠ مليار دولار سنويًّا، وتسهم في الناتج الإجمالي الخام للجزائر بما يقارب الـ ٥٠ مليار دولار. جل هذا المدخول يأتي من المحروقات الغاز خصوصًا- إلى جانب محطات الكهرباء، وقطاع المواشي الذي يُقدّر بأزيد من ثلاثة ملايين رأسٍ من الأغنام.

والقصد من هذا التقديم بيان الأهميّة الاستراتيجيّة لمدينة الأغواط فهي مصدرٌ رئيسٌ للطاقة (حاسي الرمل)، وللثروة الحيوانيّة، وهي كما يقول بعض الباحثين :»بوابة للصحراء ... و نقطة استراتيجيّة متساوية البعد بين الجزائر والقليعة وورقلة، وقريبة من البيض وأولاد سيدي الشيخ، وتسمح بأخذ جبال العمور من الخلف، وهي أقرب نقطةٍ استراتيجيّةٍ صحراويّة إلى مدينة الجزائر، ومركز تموين الجيوش وإيوائها ومحطّة للمياه. ونقطة مراقبة تجارة الميزاب نحو التلّ، ونقطة ارتكاز وحماية القوافل .. وقاعدة عسكريّة، وموقع جيّد لكلّ التحرّكات. كما أنّ الموقع العسكريّ للأغواط يسمح بملاحظة ومراقبة تحديد تحرّكات السكّان إلى إفريقيا جنوب الصحراء، كما تشكّل مع البيض وبسكرة وبوسعادة حزامًا أمنيًّا لشمال الجزائر...»[١].

كما تتميّز الأغواط بتضاريس متنوّعةٍ تبدو متناقضةً؛ حيث «فرضت تناقضات الموقع الجغرافي حالةٍ فريدةٍ من التكيّف على الإنسان الأغواطي؛ فثمّة الجبل والصحراء والوديان وسهول وواحات وصحراوات، هذه الثنائيّات المتناقضة ولّدت لدى الإنسان الأغواطيّ حافزًا قويًّا للحركة والتفاعل على مدى التاريخ حتى يحافظ على وجوده، وحماية مدخل الصحراء الذي أصبح هدفًا للخطط الفرنسيّة الاستعماريّة. فضلاً عن عروشها الكثيرة المتمركزة على أطرافها بالقرى والمداشر والبدو الرحّل، والذهنيّات المتشدّدة، وتأجّج الثائرين ضدّ أيّ تواجدٍ غريبٍ في المنطقة»[٢].

ونظرًا لهذه الأهميّة الاستراتيجيّة لمدينة الأغواط أرسلت فرنسا حملاتٍ استكشافيّةً للمنطقة بقيادة الجنرال مونج (Marey Monge)، قائد الشعبة العسكريّة للمدينة في شهر مارس ١٨٤٤ م، مع طابورٍ من ألفٍ وخمسمائة جندي، وعند ذلك: «أسرع (أحمد بن سالم) بإرسال أخيه إلى القائد

Paris, 1923, P22

١. عيسى، بوقرين، الهولوكوست الفرنسي في الأغواط ، مجلة قضايا تاريخية، المجلد٥ العدد ١ ، ص ٨٩ .

٢. لياس نايت قاسي، مليكة بلقاضي، قراءة في الاستراتيجية الاستعماريّة الفرنسية لاحتلال الأغواط ١٨٥٢، المجلة التاريخية الجزائريّة، المجلد ٤ العدد٢ ، ص ١٣٠.

الفرنسي ليقدّم له الولاء، ويطلب منه أن يمنحه منصب خليفة على الأغواط ممثّل للسلطة الفرنسيّة بالمنطقة بقصورها الخمس...»[١].

وقد كانت هذه الملاحظة بالنسبة لقائد الحملة اكتشافًا رئيسًا وحسّاسًا تمثّل في وجود فئةٍ في المنطقة تعلن براءتها من الأمير عبد القادر، وتقرّ بالولاء الصريح لفرنسا، وهذه ضربةٌ تقصم ظهر الأمير، وعليه أسرع القائد إلى « إبلاغ رؤسائه، فبادر بإرسال يحيى بن معمّر الى الجزائر العاصمة محملاً بتقريره إلى الوالي العام الماريشال بوجو bugeaud الذي كاتب هو بدوره وزير الحربيّة بباريس الماريشال سولت ذكّره بفوائد الصحراء السياسيّة والاقتصاديّة والاستراتيجية، بوصفها همزة وصلٍ في داخل إفريقيا، ويجب الإسراع ببسط النفوذ الفرنسي عليها، ومزاحمة الأمير عبد القادر فيها لحرمانه من مصادرها[٢].

٢. الأغواط وثقافة المقاومة

عرفت الصحراء العديد من المقاومات الشعبيّة التي جاهد فيها الشعب الجزائري بكلّ ما يملك عن أرضه وعرضه، رغم البنية الهشّة التي كانت تنخر النسيج الاجتماعيّ بسبب الانقسام القبليّ الذي كان طبيعة أوليّة في ثقافة القبيلة، وهو ما استغلّه الاستعمار كثيرًا في مدّ نفوذه وسلطته على الأراضي الجزائريّة. والملاحظ على هذه الثورات كثرة التقاطعات التي تلفها، فحركة الأشخاص أو أبطال المعارك تجدها حاضرةً في كثيرٍ من المعارك التي يصطلح عليها بنسبتها الى الأشخاص، أو بنسبتها الى الأماكن أحيانًا، والى القبيلة في بعض الأحيان. فبطل المقاومة الذي واجه المستعمِر في مدينة الأغواط هو الشريف إبراهيم [٣] الذي بدأ مساره الجهادي من مدينة ورقلة « ففي سنة ١٨٥٠ توفّي الحاج أحمد بن بابيه سلطان ورقلة، وكانت السلطة في يد لا لا الزهرة وولد عبد الله بن خالد، فعرضت السيدة زهرة السلطة في ورقلة على الشريف إبراهيم فقبلها وسمي نفسه سلطان ورقلة ..»[٤] .

وقد كانت تربطه بهم علاقات عائلية فمع أخواله الشعانبة أولاد بن فردية بدأ في تشكيل نواة

١. إبراهيم، مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائريّة ١٨٣٧-١٩٣٤، ص ١٠١.

٢. ينظر: إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص.١٠١

٣. وهو الطيّب بن إبراهيم بن أحمد الشريف، سيد حسني.

٤. عميراوي احميدة، وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ١٨٤٤-١٩١٦ ، ص٤٣.

من الرجال والعتاد ثمّ انضمّ إليه جل سكّان ورقلة من شعانبة ومخادمة وبني ثور وغيرهم، وبايعوه بصفة سلطان ورقلة في شهر أوت (آب) سنة ١٨٥١م، وبعدها مبايعة شعانبة متليلي شهر سبتمبر من السنة نفسها.

وتاريخ الشريف محمد بن عبد الله ينبئ بسيرته الجهاديّة، فقد استقرّ في الصغر بحاضرة تلمسان، واشتغل معلِّمًا للقرآن الكريم بزاوية أولاد سيدي يعقوب، وهذا سنة ١٨٤٠م. وبعد احتلال مدينة تلمسان من طرف الفرنسيين شهر ديسمبر ١٨٤١م، حمل لواء المقاومة ضدّ المستعمِر.

وعندما اكتشفت فرنسا حضوره ودوره في تأليب المقاومة ضدّ فرنسا سنة ١٨٤٤ غادر باتجاه المشرق لتأدية مناسك الحج، وبدأ يتصل بعددٍ من الجزائريين المطرودين والفارين من الضغط الاستعماري الجديد، ومن بينهم محمد بن علي السنوسي الذي طرد من الجزائر عام ١٨٤٩م، واستقرّ بالتراب الليبي حيث أسس الزاوية السنوسيّة. وفيها أنشأ علاقاتٍ دبلوماسيّة مع الملك السنوسي بليبيا، والعثمانيين؛ قصد الإعداد والتنظيم للمقاومة ضدّ الغزو والاحتلال الفرنسي للجزائر.

وعندما تربّع الشريف محمد بن إبراهيم على السلطة في ورقلة شرع في تنظيم القبائل من أجل مقاومة الفرنسيّين، حيث استطاع إقناع أهالي بلدة [تقرت] بالانضمام في خطّ المقاومة، وعلى رأسهم الحاكم سليمان بن جلاب. وهكذا استمر في حشد القوات متّجهًا إلى الغرب نواحي جبل العمور قصد التصدّي لقوات الزحف الفرنسي بعد أن قرّرت سلطاتها إرسال بعثةٍ على مدينة الاغواط منطلقةً من مدينة المدية.

«وفي ظلّ هذه الظروف أعلن شريف ورقلة عن ثورته، وبدأ في مهاجمة المتعاونين مع العدو، وكانت غايته الاستيلاء على تقرت والأغواط»[١]. كما استطاع الشريف أن يثبت سلطته، وافتكاك مدينة الأغواط حيث قطع الطريق أمام الفرنسيّين، وذلك «من خلال تمكّنه من ردّ هجمات ضبّاط المكاتب العربيّة المتتالية نحوها، وهما هجوم كلٍّ من (بان) و(دينو) ...»[٢].

١. المصدر السابق، ص ٤٤.

٢. المصدر السابق، ص ٤٥.

٣. هولوكوست الأغواط

كان على رأس قيادة الحملة العسكريّة المتّجهة لغزو الأغواط الجنرال لادميرونت [Paul de Ladmirault] في شهر ماي ١٨٥١ م. و في يوم ٣ جوان من السنة نفسها دخلت هذه الحملة مدينة الجلفة.

وبعد الاجتماع بقادة القبائل المحليّة، ومن بينهم خليفة الأغواط الآغا شريف بلحرش فكر قائد الحملة الفرنسيّة في تعيين ابن الناصر بن شهرة[١] خليفة على الأغواط خلفًا لأحمد بن سالم. لكن ابن الناصر بن شهرة كان دومًا يرى أنّ الفرنسيين ما هم إلّا غزاة متعطشون، ورفض الانضمام إليهم، وفضّل الالتحاق والانضمام إلى لواء الشريف محمد بن عبد الله ضدّ الاحتلال الفرنسي.

ومن جهته أمر الحاكم العام للجزائر روندون الجنرال لادميرولت بالزحف على الأغواط على رأس حملةٍ قوامها أكثر من ١٥٠٠ عسكري، وهكذا بدأت أولى المناوشات بين هذه القوات الزاحفة، وقوات المقاومة بقيادة الشريف محمد بن عبد الله ورفقائه ابن الناصر بن شهرة، والشريف بوشوشة بن التومي.

عندها أدركت قوّات الاحتلال صلابة المقاومة، وبدأت تخشى ردّ فعلها اضطرّت إلى استدعاء قواتٍ إضافيّةٍ من جيوشها المتمركزة بتيارت تحت قيادة الجنرال دولينيي.

و من جهته وبعد الاطّلاع على خطط وحركات الجنرال لادميرولت تحرّك الشريف محمد بن عبد الله بسرعةٍ فائقةٍ ناحية طاجرونة بالقرب من وادي زرقون، وهذا قصد إعداد العدة الملائمة وتعبئة أكبر عددٍ ممكنٍ من الرجال داخل القبائل المجاورة.

ثم التحق بقوّات بن الناصر بن شهرة. وكانت كلّ هذه القوات المعبّأة لمقاومة الفرنسيّين تتكون من عناصر تابعةٍ لقبائل أولاد سيدي عطا لله، وسعيد عتبة، والمخادمة، والشعانبة من ورقلة شعانبة متليلي، أولاد عامر من تيماسين، وأولاد جلاب وغيرهم من عرب الصحراء.

هذا التجمّع الهائل زرع بعض التخوّف في صفوف الفرنسيّين؛ لذا كلّف الضابط الفرنسي كولنو

---

١. ناصر بن شهرة أو بن ناصر بن شهرة (١٨٠٤م - ١٨٨٤م)، قائد وزعيم ومقاوم الاحتلال الفرنسي للجزائر خلال القرن ١٩م. ينتمي إلى قبيلة المعامرة والحجاج الذين ينتمون بدورهم إلى الأرباع. هو شيخ قبائل الأرباع الهلاليّة بنواحي مدينة الأغواط، ذلك الرجل الذي دام كفاحه ضدّ الاحتلال الفرنسي أكثر من أربع وعشرين سنة (١٢٦٧-١٢٩٢هـ/١٨٥١-١٨٧٥م) يُنظر: يحيى بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر في الجزائر، ص ٢١٨.

بتعبئة الفيالق العسكريّة في انتظار المواجهة، وفي الوقت نفسه لم يكف الشريف محمد بن عبد الله بالتردد على الأغواط بهدف تحشيد وتعبئة السكان.

وبعد الاطلاع واكتشاف حركات ودعوات الشريف محمد بن عبد الله من طرف الجنرال يوسف حاول هذا الأخير إغراء السكّان قصد تصفية الشريف محمد بن عبد الله، بشتّى الوسائل. وقد بعث الجنرال يوسف إلى الجنرال بيليسييه Pillissier في ٢١ نوفمبر ١٨٥٢ رسالةً عكست مدى الخوف الذي كان يعتري الفيلق الفرنسي من تنامي قوّة الشريف محمد بن عبد الله، ونصّ الوثيقة مدرج في الملحق.

بعد فشل هذه المحاولات والدسائس قرّر الحاكم العام للجزائر ضرب الأغواط بقوةٍ لأجل إخضاعها لسيطرة الفرنسيّين؛ لذا عبّأ وجنّد لهذه الحرب خمس تشكيلاتٍ من العساكر تحت قيادة الجنرال بي ليسيي. وهكذا بدأت الحرب على مشارف مدينة الأغواط يوم ٣ ديسمبر ١٨٥٢م، وعلى عدة جبهات.

وبعد وصول بيليسييه منطقة الحويطة في الأوّل من ديسمبر ١٨٥٢ أقرّ خطةً عسكريّةً للهجوم على المدينة حيث «وضع في الشمال الجنرال يوسف، وفي الشمال الغربي العقيد ترومليي، ومن الغرب الجنرال بيليسييه، ومن الجنوب الغربي الجنرال بوسكارين، ومن الشرق الرائد موران»[١].

ورغم القوّة الهائلة التي كانت تحاصر المنطقة لم تضعف المقاومة، ولم تقف عن الكرّ والفرّ في الهجوم على الفيالق العسكريّة الفرنسيّة، وقد اعترف الفرنسيّون أنفسهم بشراسة المقاومة في عدّة مناسبات، وبدأت المعركة النهائيّة في صباح الثالث من ديسمبر ١٨٥٢م، من خلال احتلال التلال المحيطة بالمدينة.

ولكن في اليوم التالي: ٤ ديسمبر ١٨٥٢م، ضاعف بيليسييه من هجومه على المقاومين مستعملاً المدفعيّة، وحاول الجنرال يوسف السيطرة على الضلعة، ولكنه عاد أدراجه لشدّة المقاومة، واستمرت محاولات الفرنسيّين بقيادة بوسكارين في الهجوم، إلى أن أصيب برصاصةٍ كانت سببًا في هلاكه لاحقًا[٢].

---

١. بومدين ، بوكعبوش، الواقع الثقافي في منطقة الأغواط في ظلّ الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، ص ١٦١.

2. Trumelet , l’Algerie legendaire. ed adolphe jordan libraire .Paris (1892) pp561-562

٤. سقوط الأغواط

تمكّنت القوات الفرنسيّة بخرق الأماكن المتقدّمة للمقاومة بعد أن سقط الجنرال الفرنسي بوسكارين أثناء المواجهات، وخلف مكانه العقيد كلير بالتنسيق مع الجنرال يوسف بهدف السطو على المدينة التي كانت تجري فيها معارك شرسة حتّى داخل الأزقة والمنازل، وكلّفت القوات الفرنسيّة خسائر باهظةً، وكانت المدافع تقصف تحصينات هذه المدينة قصد فتح ثغرات تمكّن من دخول أكبر عددٍ من العساكر. ونتيجة عدم تكافؤ القوى تمكّنت القوات الفرنسيّة من احتلال مدينة الأغواط يوم ٤ ديسمبر ١٨٥٢م، بعد ارتكابها مجازر رهيبةً سقط فيها أكثر من ٢٥٠٠ شهيد من صفوف المقاومة، وآلاف الجرحى والمعتقلين.

وقد كان وقع السقوط على الجزائريين صعبًا لدرجةٍ قال فيها سكّان الصحراء: «إنّ فرنسا احتلت أو ربحت جزائر ثانيةً في الجنوب»[١].

يقول يحيى بوعزيز نقلاً عن قارو: «ارتكب الفرنسيّون في الأغواط بعد احتلالها فضائع، فاستحلّوها للجنود ثلاثة أيامٍ يقتلون الناس بالجملة، ويرمون جثثهم في الآبار والحواسي، ولمدة ثمانية أيامٍ وهم يقتلون الناس الذين يستسلمون حتى حفيت السيوف، ومارس الجنود النهب والسلب للحلي النساء، والاعتداء على عفافهن»[٢].

وبالنسبة للمحرقة أو الهولوكوست فتمثّل في استعمال الغازي الفرنسي الأسلحة الكيماويّة لشلّ القدرات العصبيّة عند المواطنين مستخدمًا غاز الكلوروفورم، وحسب بعض الباحثين تعدّ محرقة الأغواط أوّل هولوكوست عرفه تاريخ البشريّة؛ إذ «تمّ في الجزائر على يد القوات الاستعماريّة الفرنسيّة الغازية بعد حصار الجيوش للأغواط٢٢ نوفمبر -٢ ديسمبر ١٨٥٢م، نُفّذ أوّل هولوكوست كيماويّ في التاريخ لإبادة السكّان المدنيين العُزّل»[٣].

وحسب الباحث العبودي فإنّ اصطلاح المحرقة أو الهولوكوست استعمل لأوّل مرةٍ في أدبيات وتقارير قادة وضبّاط الحرب الفرنسيّة الواردة من الجزائر في خمسينيّات القرن التاسع عشر،

1. E.Mangin, Note sur l'histoire de Laghouat, revue Africaine, n°37.1893, p87

٢. بوعزيز، يحيى، ثورات القرن التاسع عشر في الجزائر، ص ٢٢٠.

٣. عبد الكاظم، العبودي، أخلاقيّات البحث العلمي: البيولوجيا وأسلحة الدمار الشامل نموذجين، ص ٤٠٤.

حيث وردت في كتاب مارسيل ميليا Marcel Melia في كتابه الأغواط بيوت محاطة بالجنائن «Jean melia, laghouat ou les maisons entourées de jardins» الذي استعمل فيه مصطلح الهولوكوست إشارةً إلى تقريرٍ عسكريّ كان مرسلاً من القائد الفرنسي بيليسييه إلى ريفي القائد العام للقوات الفرنسيّة في الجزائر يخبره أنّه نفّذ التعليمات الموجّهة له بالإبادة مستخدمًا في تقريره مصطلح هولوكوست .. ونقل عن لسان بيليسييه ما نصّه لو لم أحصل على تلك النتائج بالإبادة لكنت أحرقت البلاد بنخيلها، وهجّرت أهلها إلى مكانٍ لا يوجد فيه حتى الهواء»[١].

ولم يخجل الفرنسي من جرائمه ضدّ المستضعفين من الولدان والنساء بقتلهم وحرقهم، بل نجده يفتخر ويتلذذ بتلك الأحداث التي تعكس همجيّة الغرب وخبثه، والواقع المعاصر يثبت ذلك، فلا نجد الحريّة والتسامح إلّا حذلقة وتشدّق فكري، وموقف الغرب من الهولوكوست في غزّة مؤخّرًا يؤكّد دناءة الغرب ورؤيته الضيقة التي ترى الإنسان ممثّلاً فيهم فقط، أمّا الشعوب الأخرى فليست إلّا بهائم، وهذا الفكر من الموروث التلمودي، ورواسب الحروب الصليبيّة، فالعدو الحقيقي للغرب هو المسلم.

فهناك نصوصٌ فرنسيّةٌ تتحدّث عن «مشاهد للفتيات وهن مطروحات أرضًا في كلّ مكانٍ من المدينة وفي بيوتهن على السلالم وعتبات البيوت.. كما أنّ مشهد هروب الكلاب ولجوئها إلى الجبل الذي أطلق عليه الفرنسيّون جبل الكلاب إشارة واضحة لهروب جميع هذه الحيوانات ذات الحاسة الشميّة العالية هروبًا من الغازات الخانقة التي قُصفت بها المدينة... ويقول أحد الضباط إنّه دفن في بئرٍ واحدةٍ ما يقارب ٢٥٠ جثة»[٢].

ومن النصوص التي تؤكّد استعمال السلاح الكيماوي في محرقة الأغواط ما جاء في دراسة مونجان المعنونة بتقييدات أو ملاحظات حول تاريخ الأغواط: «... استغرق إخلاء المدينة من ضحاياها وقتًا طويلاً جدًا، وكان هذا عملاً كريهًا تناوبت على القيام به عدّة كتائب في اليوم الواحد.. بعد وقوع الهجوم تفقد الجنرال بيليسييه مواقع المجازر فوجد أنّ العمل لا يسير كما يريد؛ فاستدعى الضابط شاربون فوبّخه على البطء الذي يبديه في مسألة التخلّص من الجثث؛ فردّ

١. المصدر السابق، ص ٤٠٤.

٢. المصدر السابق، ص٤٠٥.

عليه قائلاً: مهلاً سيدي الجنرال فنحن لا ندفن الموتى بمثل السرعة التي نقتلوهم بها»[١].

وقد تضمّنت مذكرات بعض المشاركين في الجريمة أو هولوكوست الأغواط تقريرًا يشير إلى استخدام الأسلحة الكيماويّة فيها، وهو ما عرف بتقرير راير جاء فيه[٢]: «يضع السيّد راير على المكتب ملاحظةً مبعوثةً من الجزائر العاصمة من طرف الدكتور أوسينال إلى السيّد المارشال فيالانت Viallant يطلب منه معلوماتٍ دقيقةً حول الظروف المتعلّقة باستعمال الكلوروفرم[٣] في العمليّات العسكريّة في الأغواط، ثم بعث تلك الملاحظة لتحليل اللجنة المكلّفة بالتعرّف على مذكرات السيّد جوبير Jobert ، والسيّد لومبال lamballe، والسيّد بودنز.

والمقاصد التي كان يرنو إليها الاستعمار هي إرهاب الشعب الجزائري، من خلال زرع الخوف والروح الانهزاميّة بين الأوساط الشعبيّة، وعدّ المجرم الفرنسي الحادثة فتحًا عظيمًا، واحتلالاً جديدًا للجزائر يكشف عن مدى اللؤم والخبث الاستعماري.

ورغم ما يحزّ في النفس وفي الذاكرة الجماعيّة من آثارٍ وجراحٍ فإنّ حادثة الأغواط، أو الهلوكوست الكيماوي الأول الذي سجّل تاريخ الفرنسيّين وجبّلتهم المتوحشة يكون جزءًا من الذاكرة الوطنيّة، حيث لا تزال الذاكرة الشعبيّة تذكر (عام الشكاير)، أي الأكياس التي وضع فيها الأعيان والنخبة من أهالي الأغواط، والتي كانت أكياسًا غير نفاذة مشبّعة بأبخرة الكلوروفورم لتشلهم وتخنقهم قبل هلاكهم، كما اصطلح أهل الأغواط على العام بـ(عام الخِلية) بكسر الخاء، أي العام الذي أصبحت فيه الأغواط خاليةً من الأهالي وكانت مدينة أشباحٍ فقط.

---

١. المصدر السابق، ص ٤٠٧.

٢. ينظر :

Melia. J : Laghouat ou La Maison entourées Des Jardins, Ed. Plan Nourrit et Cie, Paris, 1923,

٣. الكلوروفورم مادّةٌ متطايرةٌ سريعة التبخّر في درجات الحرارة العادية، والبخار أو الغاز الناتج عنه يبقى ويدوم انتشاره في الجو والميدان لفتراتٍ طويلةٍ عند توفّره بكمياتٍ كبيرةٍ وتركيزٍ عال، وهو من الموادّ التي يمكن حفظها وتعبئتها في القذائف على شكل سائل، يمكن اطلاقها على شكل سحبٍ من البخار والغازات، أو على شكل رشّاتٍ من الرذاذ يمكن استنشاقها، فهي مادّة لا لون لها، ولا يشعر الضحايا بوجودها.

خاتمة

ينبغي الإشارة – بعد كلّ ما سبق - إلى تباين الرؤى في التعاطي مع هذا الحدث التاريخي، وهذا أمرٌ طبيعيّ لأنّ الحدث التاريخي ماضٍ، والخبر بطبيعته معرّضٌ للكذب كما يقول ابن خلدون، فالتاريخ يكتبه الغالب، ولا يملك في كتابته المغلوب شيئًا؛ ولهذا كانت فرنسا الخصم والدليل في الوقت نفسه، وهذا أمرٌ يدعو إلى الاستغراب؛ فالوثائق المعتمدة في معرفة الحدث هي الوثائق الفرنسّية، ومنها المجلة الإفريقيّة la revue africaine ، وبعض المذكّرات التي وصلت إلينا، التي تصوّر بعض الجزئيّات من الحدث، وما خفي أعظم، فالحدث التاريخي يقتضي من الباحث التدقيق في كلّ ما يصل إليه، ويوظف المقارنة والتحليل لتفكيك خيوط الحدث، وإعادة بنائه.

والغريب في الأمر أنّ البحوث التي قدّمت واشتغلت على هذا الهولوكست تعدّ على الأصابع ، ومنها البحوث التي اعتمدناها في دراستنا تقريبًا، والفضل يعود إلى المرحوم الدكتور عبد الكاظم العبودي الباحث العراقي الجزائري الذي اشتغل على جرائم فرنسا في الجزائر، وبالأخص ما تعلّق بالتجارب النوويّة التي أجرتها في رقان والصحراء الكبرى. وفي الدراسات التي قدّمها سواء كانت في رسالته الثانية التي تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، أو الأولى تقدّم بها في العلوم الطبيعيّة التجريبيّة وهو تخصّصه الأول حيث اجتهد في إثبات المحرقة التي وقعت في الأغواط، وفي الجزائر بشكل عام.

وما نستخلصه من هذه الورقة أنّ الاستعمار استحمارٌ[١] للمجتمع وللنخبة أولاً، واستغلالٌ للثروات، واستدمار[٢] للأرض وللبشر، فالغاية تبرّر الوسيلة مبدأ رئيسٍ في الممارسة السياسيّة عند الغرب.

الملحق

الوثيقة: رسالة الجنرال يوسف إلى الجنرال بيليسيي قبيل الحملة على الأغواط:

«لقد استقبلت اليوم بالقرب من الأغواط وعلى وقع الرصاص رجال الشريف فرسانًا وفنتازيةً وعددًا غفيرًا جدًّا من المواطنين، لقد كسبنا معركةً في غاية الأهميّة حيث تجاوزت الساعة من

١. اصطلاح قدّمه المرحوم علي شريعتي في كتابه النباهة والاستحمار.

٢. اصطلاح تقدّم به المفكّر الجزائري مولود قاسم نايت بلقاسم وزير الشؤون الدينية والأوقاف في عهد الرئيس هواري بومدين.

أجل الدخول على واحات المدينة، وقد تمكّن فرساننا من تحقيق انتصارٍ كبيرٍ، حيث خلف العدو [الجزائريون] أكثر من مائة قتيل [شهيد]، منهم قادة كثيرون تم التعرّف عليهم.

لقد قادت كتائبي المعركة بكثيرٍ من الهدوء والدم البارد، وقد كلّفنا ذلك خمس قتلى واثني عشر جريحًا، كلهم في حالةٍ خطيرةٍ، وقد كان النقيب دوستال de stail أحد قنّاصي جيش إفريقيا من بين الجرحى، حيث أصابته رصاصةٌ كسرت كتفه، هذا إضافةً إلى قتيلين اثنين وثلاثة جرحى من فرساننا.

وقد تمركزت المقاومة وتموقعت في مدينة الأغواط التي تحصّن بها الشريف ورجاله، بينما أرسلت المواشي والنساء نحو الجنوب، وباعتبار أنّ أهل الأغواط من الفنتازية فقد ردّوا على خطاب السلم والأمان بالرغبة في الاستشهاد من أجل ضمان الجنة.

إنّ الوضعية خطيرة، لقد أضحت الأغواط بؤرة المقاومة، وستغدو أكثر صلابةً وشراسةً، ولا أظنّ أنّه من الحكمة مهاجمة المدينة بالقوّة التي هي تحت تصرّفي حاليًا، لست متخوّفًا من الهزيمة، وإنّما سيكلّفنا ذلك الكثير من الخسائر البشرية، وسيكون الانتصار ربما غير مكتمل، ولا تنسَ سيّدي حضرة الجنرال باسم سعادتكم استدعاء النفر لتجنّب زعاطشة جديدة، عليك بالتعجيل ولا تترك الوقت للعدو لينظّم إمكاناته القويّة جدًّا. دعني أقول لك إنّ العدو في مرحلة الحشد التي يقوم بها السيّد سي النعيمي. كما أنّ مسألة التموين بالشعير لا تقلق حاليًا إذ هي كافية لمدّة عشرة أيامٍ قادمة.

إنّني على بعد ١٨٠٠م من مقرّ مدينة رافد العيون، حيث يخيم الهدوء وعدم القتال ليلاً، ولا أظنّ أنّ رجال الشريف سيحاولون التقدّم نحو الجبال، وإنّما لا بد أن ندفعهم الى مقاومةٍ داخل المدينة، لا بد أن تعلم فيالق الرائد بان Pein أنّ مدينة الأغواط هي هدفنا، ونحن أمام فرصةٍ متاحةٍ، وإذا تمّ لنا ذلك فلن يبقى لنا سوى خطوةٍ واحدةٍ للتمكّن من الجنوب.

إنّي أنتظر تجاوبكم الفعّال مع هذه المستجدات، والأحسن أن تأتي شخصيًّا لقيادة تلك العمليات. وتقبّلوا مني سيدي حضرة الجنرال خالص تحياتي». الأرشيف الوطني لما وراء البحار بآكس اون بروفونس مرسيليا-فرنسا-/ الرصيد: الحكومة العامة بالجزائر (GGA)العلبة: ٨X٤١٧[١]

١. مصطفى عبيد، ومحمد يعيش، الحملة على الأغواط من خلال رسالة الجنرال يوسف إلى الجنرال بيليسيه، المجلة التاريخيّة الجزائريّة، المجلد: الأول العدد: الأول، السنة ٢٠١٧ ص.ص : ٧٢-٧٣-٧٤.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائريّة ١٨٣٧-١٩٣٤ دار هومة الجزائر ٢٠٠٩.

٢. بن عتو بلبراوات، الاحتلال الفرنسي لاغواط في ١٨٥٢ وجرائمه، مجلة عصور الجديدة، وهران العدد السادس ٢٠١٢.

٣. بومدين، بوكعبوش، الواقع الثقافي في منطقة الأغواط في ظلّ الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر ، جامعة الجزائر، ٢٠١٩.

٤. عبد الكاظم، العبودي، أخلاقيات البحث العلمي: البيولوجيا واسلحة الدمار الشامل نموذجين، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران.٢٠١١.

٥. عميراوي احميدة، وآخرون، السياسة الفرنسيّة في الصحراء الجزائريّة: ١٨٤٤-١٩١٦، دار الهدى عين مليلة، الجزائر٢٠٠٩.

٦. عيسى، بوقرين، الهولوكوست الفرنسي في الأغواط، مجلة قضايا تاريخيّة، المجلد:٠٥ العدد:٠١، سنة ٢٠٢٠.

٧. لياس نايت قاسي، مليكة بلقاضي، قراءة في الاستراتيجيّة الاستعماريّة الفرنسيّة لاحتلال الأغواط ١٨٥٢، المجلة التاريخيّة الجزائريّة، المجلد :٤ العدد٢ ٢٠٢٠ .

٨. مصطفى عبيد، ومحمد يعيش، الحملة على الأغواط من خلال رسالة الجنرال يوسف الى الجنرال بيليسيه، المجلة التاريخيّة الجزائريّة، المجلد: الأول العدد: الأول، السنة ٢٠١٧.

٩. يحيى بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر في الجزائر، دار البصائر، الجزائر ٢٠٠٩.

10. Trumelet , l'Algerie legendaire. ed adolphe jordan libraire .Paris (1892).

11. E.Mangin, Note sur l'histoire de Laghouat, revue Africaine, n°37.1893.

12. Melia. J : Laghouat ou La Maison entourées Des Jardins, Ed. Plan Nourrit et Cie, Paris, 1923.

قراءات علميّة

يتناول هذا الباب قراءات علمية في مشاريع او كتب او اعلام مناهضة للاستعمار او مدافعة عنه بغية إعطاء صورة واضحة للقارئ عن المشهد الاستعماري.

قراءةٌ في كتاب (معضلة التنمية الاستعماريّة نظراتٌ في دعاوى إيجابيّات الاستعمار)

م.م مصطفى الشمري

قراءةٌ في السيرة الجهاديّة للسيّد عبد الرزّاق الحلو (قدس سره)

السيّد خالد الحلو

قراءةٌ في كتاب (معضلة التنمية الاستعماريّة نظراتٌ في دعاوى إيجابيّات الاستعمار)

م.م مصطفى الشمري[1]

المُلخّص

يقدّم المؤلّفُ قراءةً نقديّةً لخطابٍ يبرّرُ الاستعمار أو يحنُّ إلى عودته، عبر تحليلِ الأطروحاتِ التي تُبرز «منجزاته» التنمويّة، وتُغفلُ مخاطرَهُ الاستراتيجيّة. كما يبيّنُ أنّ الدوائرَ الاستعماريّةَ عملت تاريخيًّا على وفقِ مخططاتٍ بعيدةِ الأمد تخدمُ مصالحَها، مستفيدةً أحيانًا من نُخبٍ محلّيّةٍ سوّغت ذلك بدعوى اللحاقِ بالتقدّم العلميّ والتقني. وفي مقابلِ خطاب الضحايا الذي يركّزُ على آثارِ الدمارِ والتخلّف، يبرزُ تيّارٌ يُحمّلُ الدولةَ الوطنيّةَ مسؤوليّةَ الفشلِ والأزمات، متجاهلاً أنّ هذه الدولةَ نشأت أصلاً كبديلٍ للاستعمارِ ضمن ظروفٍ موضوعيّةٍ حدّت من استمراره المباشر، وأنّ بنيتَها الداخليّةَ أسهمتْ في إعادةِ إنتاجِ منطقِ «دولة التجزئة» بصيغٍ قوميّةٍ أو دينيّةٍ متعدّدة. ويَخْلصُ المؤلّفُ إلى أنّ الدعوة إلى تبييضِ صفحةِ الاستعمار تتجاهلُ تحوّلَه إلى «استعمارٍ جديدٍ» يقوم على الهيمنةِ غير المباشرةِ عبر وكلاء محلّيّين. فالاستعمار في جوهرِه يسعى إلى المنفعةِ الذاتيّة، وقد يُنتج منافعَ عرضيّةً للآخرين، لكنّه لا يتخلّى عن منطقِ الاحتكارِ والهيمنة.

الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار، التنمية الاستعماريّة، إيجابيّات الاستعمار، الدولة العثمانيّة، الولايات المتّحدة.

---

١. ماجستير التفسير وعلوم القرآن.

اسم الكتاب: معضلة التنمية الاستعماريّة نظراتٌ في دعاوى إيجابيّات الاستعمار

المؤلّف: محمد شعبان صوان

الباب الأول: (التطوير الاستعماري بين الإفادة والإبادة)

يبدأ المؤلّفُ من موقفٍ نقديّ يتعارض مع القناعة الشائعة بأنّ الاستعمار كان مصدرًا للتنمية أو مُحركًا للحداثة في العالم غير الغربي. فالتاريخ الاستعماري، وفق هذا المنظور، لا يُفهم من خلال إحصاءات البنية التحتيّة أو معدلات التعليم أو ظهور مؤسّساتٍ حكوميّة، بل من خلال هيكل القوّة الذي فرضته القوى الاستعماريّة. وعليه فإنّ ما يُسمّى (إيجابيات الاستعمار) لا ينبغي أن يُقرأ بوصفه نتاجًا مستقلاً أو مكاسب تاريخيّة، بل كآثارٍ جانبيّةٍ لطبيعة مشروعٍ سياسيّ واقتصاديّ قائمٍ على السيطرة والنهب، وفي سياق منطقٍ تنافسيّ دوليّ لا يعترف إلّا بسلطة المركز.

يرفض المؤلّفُ الاختزالَ المزدوج بنوعَيه: الأول: اختزال الاستعمار إلى الاستفادة الماديّة وحدها، والثاني، اختزاله إلى الشر المطلق دون الاعتراف بأنّ بعض مظاهره قد تُقرأ في ظاهرها على أنّها تحديث. وفي مواجهة هذا الاختزال المزدوج، يقدم الكاتب قراءةً موضوعيّةً فهو لا ينكر وجود تغييراتٍ ماديّة، لكنّه يصرّ على أنّ هذه التغييرات كانت خاضعةً لغاية الاستغلال، وأنّ التحديث لم يكن هدفًا بقدر ما كان وسيلةً لضبط المستعمَرات وتسهيل استخراج فائضها. وهكذا تصبح البنية التحتيّة التي تُبنى في المستعمَرات ليست شبكة تنمية، بل شبكة إخضاع: سكك حديد تُبنى لتسريع نقل المحاصيل والموارد إلى الموانئ، وطرق تُمدّ لتسهيل وصول القوات، وموانئ تُفتتح لتخدم تجارة المركز، لا احتياجات المجتمع المحلّي. وهذا ما يجعل من المنفعة التي تُنسب للاستعمار منفعةً مشروطة ومُسقَطة من جوهرها؛ لأنّها لا تدمج المجتمعَ في عملية تطويرٍ ذاتي، بل تُدمجه في منظومة إنتاج تستنزف مواردَه.

وفي موضعٍ آخر يُقدّم المؤلّف نقدًا صريحًا لفكرة (الرسالة الحضارية)، التي تُستعمل كغطاءٍ أخلاقيّ للاستعمار. فالاستعمار ـ كما يراه ـ لم يكن مجرد مشروعٍ سياسيّ واقتصادي، بل مشروع معرفي - أيديولوجي يهدف إلى إعادة تشكيل وعي الشعوب المستعمَرة، بحيث يُصبح القمع والهيمنة خدمةً وتقدمًا وتحضيرًا للحداثة.

وتتجلّى في هذا الباب أيضًا فكرةٌ مركزيةٌ تتعلّق بالإبادة كصفةٍ بنيويّةٍ للاستعمار، وليس كاستثناء.

فالإبادة هنا لا تعني فقط القتلَ الجماعي أو الحروبَ المباشرة، بل تشمل تفكيك النظم الاجتماعيّة، وتدمير الاقتصاد المحلّي، وإلغاء أنماط الإنتاج التقليديّة، وتفريغ المجتمعات من قدراتها على التماسك الذاتي. ومن هذا المنظور، يصبح الاستعمار بمنزلة عملية إعادة إنتاج للتخلّف؛ لأنّ المجتمع الذي تُسلب منه إرادته الاقتصاديّة والسياسيّة لا يمكن أن يحقّق تنميةً ذاتيّةً، حتى في المدى الطويل. فالتخلّف الذي يعاني منه العالم غير الغربي ليس نتيجةً طبيعيّةً لعدم وجود حضارة أو كفاءة، وإنّما هو نتيجة هيكليّة لسيطرة استمرّت قرونًا، تُفرَض فيها قواعد السوق العالميّة لصالح المركز.

وفي محاولةٍ منه لصياغة كيفيّة إعادة توجيه الاقتصاد لصالح المركز، بما يُصطَلح عليه (وهم التنمية)، يُقدّم المؤلّف ضمن هذا الإطار مقارنةً ضمنيةً مع نماذج تاريخيّة مثل اليابان وتركيا. فاليابان التي لم تُستعمر، استطاعت أن تفرض مسارًا تنمويًّا مستقلًّا بعد فترةٍ من التحديث الذاتي، بينما لم تُعرف تجارب مماثلة في العالم المستعمَر؛ لأنّ هذه التجارب كانت تُعطّلها آليات التحكّم والسيطرة التي تمنع المجتمعات من بناء اقتصادٍ وطنيّ مستقلّ. أمّا تركيا التي عاشت تجربة تداخلٍ مع الاستعمار عبر الانهيار العثماني وصعود الدولة القوميّة، فهي نموذجٌ يوضّح أنّ التحديث ليس نتاجًا للاستعمار، بل يمكن أن يكون ردَّ فعلٍ داخليًّا على ضغط الهيمنة الخارجيّة. وفي كلتا الحالتين، يتّضح أنّ (التقدم) لا يُقاس بوجود مؤسّساتٍ حديثةٍ فحسب، بل بمدى سيطرة المجتمع على مسار تطوّره، وهو ما يجعل الفرق بين النموذجين وبين التجارب الاستعماريّة واضحًا؛ ففي اليابان وتركيا ـ بصورةٍ نسبيّة ـ كان التحديث مرتبطًا بإعادة بناء الدولة وفق رؤيةٍ داخليّة، أمّا في المستعمَرات كان التحديث أداةً لتثبيت تبعيّة الدولة المستعمَرة.

ويذهب المؤلّف إلى أنّ أيّ محاولةٍ لتقديم الاستعمار على أنّه بذرة التنمية تُغفل أنّ التنمية نفسها كانت قد بدأت في العديد من المجتمعات قبل الاستعمار، وأنّ الاستعمار، بدلاً من أن يُسرّع التنمية، قد عرقلها عبر إعادة ترتيب الأولويّات الاقتصاديّة لصالح المركز. فالتنمية لا تُختزل في أثر، بل هي عمليّةٌ تاريخيّةٌ طويلة تتطلب الاستقلال في اتّخاذ القرار. ولهذا، فإنّ قراءة الاستعمار على أنّه سببٌ للتنمية تمثّل تشويهًا منهجيًا؛ كونها تتجاهل أنّ الاستعمار هو حالةٌ من انقطاع المسار الطبيعي للتطوّر، وأنّ ما حدث بعده من تغييراتٍ لم يكن إلّا إعادة توجيه لموارد المجتمع نحو خدمة اقتصاد المركز.

وبهذا يرسّخ المؤلّفُ الإطارَ النظري للكتاب، مؤكّدًا أنّ الاستعمار لا يمكن فهمه بوصفه

مشروعًا تحديثيًّا، بل بوصفه بُنيةً استغلاليّةً، تأسّست على إعادة توجيه موارد المجتمعات الخاضعة لخدمة المركز المهيمن. أمّا ما يُسوَّق من إيجابياتٍ مزعومة، فإما أن يكون آثارًا جانبيّةً غير مقصودةٍ لمنظومة الهيمنة، وإمّا قراءات انتقائيّة تُغفل السياقَ الذي نشأت فيه تلك الظواهر؛ ذلك أنّ التحديث ـ في معناه التاريخي والمعياري ـ يفترض استقلالَ الإرادة الجمعيّة، وامتلاك المجتمع القدرة على تحديد أولوياته وصياغة مسارات تطوّره، وهي شروط تنتفي في ظلّ السيطرة الاستعماريّة. وعليه، تغدو فكرة المنفعة الاستعماريّة جزءًا من خطابٍ تبريريّ يُشرعِن الهيمنةَ، في حين يكشف التحليل التاريخي أنّ الاستعمار كان، في جوهره، مشروعًا لتقويض الفاعليّة الذاتيّة للمجتمعات المستعمَرة، وإدماجها قسرًا في نظامٍ عالمي، يعزّز ازدهار المركز على حساب تهميش الأطراف.

الباب الثاني: أضرار الاستعمار

يستعرض المؤلّف في هذا الباب ـ الذي يُعدّ جوهر البحث النقدي للموضوع ـ أضرارَ الاستعمار، إذ ينتقل المؤلّف من تفنيد الخطاب التبريري للاستعمار إلى تشريح آثاره البنيويّة العميقة، أي تلك الآثار والأضرار التي لم تكن عابرةً أو ظرفيّة، بل أعادت تشكيل مسارات المجتمعات المستعمَرة على نحوٍ طويل الأمد. فالفكرة المركزيّة التي تحكم هذا الباب هي أنّ الاستعمار لم يكن مجرد قوة سياسيّة غازية، بل كان مشروعًا لإعادة هندسة التاريخ والاقتصاد والمجتمع بما يخدم مصالح الخارج، حتى لو بدا في ظاهره حاملاً لبعض مظاهر (التحديث).

ينطلق المؤلّف أولاً من نقد أطروحةٍ شائعةٍ في الأدبيات الاستعماريّة، مفادها أنّ الاستعمار أسهم في إدخال المجتمعات المتأخّرة إلى مسار الحداثة والتنمية. ويردّ على هذه الأطروحة بتأكيد أنّ التنمية ليست مجرد إدخال أدواتٍ أو مؤسّساتٍ جاهزة، بل هي عمليّةٌ تاريخيّةٌ داخليّةٌ تنمو من رحم المجتمع، وتتراكم عبر تفاعلٍ طويلٍ بين الثقافة والاقتصاد والسياسة. ومن هنا يبرز مفهوم قطع طرق التطوّر الطبيعي، بوصفه أحدَ أخطر أضرار الاستعمار. فالاستعمار ـ وفق هذا التحليل ـ لم يدخل إلى فراغٍ حضاريّ أو تأريخيّ، بل اقتحم مجتمعاتٍ كانت تمتلك أنماطها الخاصّة في التنظيم الاقتصاديّ والاجتماعيّ، حتى وإن لم تكن مطابقةً للنموذج الأوروبي. ما فعله الاستعمار هو إيقاف هذا المسار، لا تطويره؛ إذ فكّك البنى المحليّة القائمة، وحطّم آليات التراكم الداخلي، واستبدلها ببنى هجينةٍ لا تخدم إلّا حاجاته.

هذا القطع لم يكن مجرد تعطيلٍ مؤقّت، بل كان إعادة توجيهٍ قسريّةً لمسار التاريخ. فبدلاً من

أن تتطوّر الزراعة أو الحِرف أو التجارة وفق حاجات المجتمع المحلّي، جرى ربطها بالاقتصاد العالمي في موقع التابع، بحيث أصبحت وظيفة المستعمَرة تزويد المركز الاستعماري بالموادّ الخام، واستيعاب منتجاته المصنّعة. هنا تتجلّى الفكرة العميقة التي يريد المؤلِّف إيصالها ومفادها: الاستعمار لا يجمّد التطوّر فقط، بل يعيد تشكيله على نحوٍ مختلّ، بحيث يبدو كأنّه تقدّمٌ وتحديثٌ، بينما هو في الحقيقة تطوّرٌ زائفٌ لا يملك شروط الاستمرار الذاتي.

ومن هذا المدخل ينتقل الكاتب إلى تفكيك ما يسميه نشر (رذائل الحضارة)، وهو تعبيرٌ بالغ الدلالة؛ لأنّه يعاكس الخطاب الاستعماري الذي يتحدّث دائمًا عن (فضائل) الحضارة الغربيّة. فالمقصود هنا أنّ الاستعمار لم ينقل القيم الإنتاجيّة أو العقلانيّة أو المؤسسيّة التي قامت عليها نهضة أوروبا، بل نقل أسوأ ما في التجربة الرأسماليّة الحديثة، عندما تُفصَل عن سياقها الاجتماعي والتأريخي. لقد جلب أنماطًا اقتصاديّةً قائمةً على الاستهلاك لا الإنتاج، وعلى الربح السريع، لا التراكم الطويل، وعلى التبعية لا الاستقلال.

في هذا السياق، يبيّن المؤلِّف أنّ الاستعمار أدخل علاقات سوقٍ مشوّهة، دمّرت الاقتصادات المحليّة، دون أن تبني بديلًا حقيقيًّا. فالحِرف التقليديّة تلاشت أمام السلع المستوردة، والزراعة تحوّلت من زراعةٍ معيشيّةٍ متوازنةٍ إلى زراعةٍ تصديريّةٍ أحاديّة المحصول، والمدينة الاستعماريّة نشأت كملحقٍ إداريّ وتجاريّ يخدم مصالح الأجنبيّ، لا كمركز حضريّ وطني. وهكذا نشأت مجتمعاتٌ مزدوجةٌ: أقليّةٌ مرتبطةٌ بالاقتصاد الاستعماريّ وتستفيد منه، وأكثريّةٌ مهمّشةٌ تعيش خارج أيّ مشروعٍ تنمويّ حقيقي. وهذه الازدواجيّة كما يوضح المؤلّف، ليست عرَضًا جانبيًا بل بِنيّة مقصودة؛ لأنّها تضمن استمرار السيطرة عبر خلق نُخبٍ محليّةٍ مرتبطةٍ بالمستعمِر اقتصاديًّا وثقافيًّا.

أما أخطر ما في هذه (الرذائل) فهو أنّها تخلق تبعيّةً دائمة. فحتى بعد خروج المستعمِر عسكريًّا، تبقى البنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة على حالها، عاجزةً عن إنتاج تنميةٍ مستقلّة؛ لأنّها لم تُصمَّم أصلاً لهذا الغرض. وبذلك يفكك المؤلِّف الوهمَ القائل إنّ الاستعمار كان مرحلةً ضروريّةً للتحديث، مؤكّدًا أنّ ما خلّفه هو بُنية مأزومة تجعل أيّ محاولةٍ لاحقةٍ للتنمية شديدة الكلفة ومعرّضةً للفشل.

ويبلغ التحليل ذروته عند تناول تضارب المصالح، بوصفه دليلاً عمليًّا على زيف الادّعاءات الاستعماريّة. فالاستعمار، كما يبيّن المؤلّف، لم يكن يعارض التنمية من حيث المبدأ، بل كان يعارض أيّ تنميةٍ لا تقع تحت سيطرته المباشرة. ويستدلّ بمثال الاستثمارات في السكك الحديديّة

العثمانية ليكشف هذه الحقيقة بوضوح. فالسكك الحديديّة، من حيث هي مشروع بُنية تحتيّة، يمكن أن تكون أداةً لتكاملٍ اقتصاديّ داخليّ وتعزيز السيادة، لكن القوى الاستعماريّة لم تكن معنيةً بذلك. إذ كانت تدعم فقط تلك المشاريع التي تخدم خطوطها التجاريّة والعسكريّة، وتعارض أو تعرقل أيّ مشروعٍ مستقلّ، حتى لو كان ذا جدوى اقتصاديّةٍ عالية للبلاد.

هذا المثال لا يُطرح بوصفه حالةً استثنائيّة، بل كنموذجٍ عامٍّ لسلوك استعماريّ ممنهج: تشجيع التنمية المشروطة، ومحاربة التنمية السياديّة. ومن هنا يتّضح أنّ المشكلة لم تكن في تخلّف المجتمعات المستعمَرة عن استيعاب الحداثة، بل في أنّ الحداثة نفسها قُدّمت لهذه المجتمعات في صورةٍ مشوّهةٍ ومقيّدة، تُبقيها دائمًا في موقع الحاجة والارتهان.

في المحصلة، يفكّك الباب الثاني الأساسَ الفكري لدعاوى (إيجابيات الاستعمار (عبر إظهار أنّ أضراره لم تكن سطحيّةً أو مؤقّتة، بل بنيوية وعميقة، أصابت منطق التطوّر نفسه، وأعادت صياغة المجتمعات المستعمَرة بوصفها كياناتٍ ناقصة النمو، عاجزةً عن الاكتفاء الذاتي. وهذه القراءة لا تكتفي بإدانة الاستعمار أخلاقيًّا، بل تقدّم فهمًا تأريخيًّا نقديًّا يفسّر لماذا ما تزال معضلة التنمية قائمةً حتى اليوم، ولماذا لا يمكن تجاوزها، دون تفكيك الإرث الاستعماري في بنيته العميقة، لا في مظاهره فقط.

الباب الثالث: الحياة في ظلّ الاستعمار

يُعدّ الباب الثالث من أكثر أبواب الكتاب كثافةً من حيث الشواهد التاريخيّة وأشدّها تأثيرًا من حيث الحِجاج، إذ ينتقل المؤلف فيه من مستوى التنظير العام حول علاقة الاستعمار بالتنمية إلى مستوى التجربة المُعاشة، من خلال عرض نماذج متفرقةٍ جغرافيًّا ومتنوعةٍ سياسيًّا، ليبرهن على أنّ الحياة في ظلّ الاستعمار لم تكن حياة تحديثٍ متوازن، بل حياة مُعادة التشكيل، وفق مقتضيات السيطرة.

واللافت أنّ المؤلّف لا يكتفي بإدانةٍ أخلاقيّة، بل يسعى إلى تفكيك البنية التي جعلت كلّ تجربةٍ استعماريّةٍ ـ مهما اختلفت أدواتها ـ تدور في فلك مصلحة المركز على حساب قابلية المجتمع المستعمَر للنمو الذاتي .في حديثه عن الجزائر، يستحضر تجربة الاحتلال الفرنسي، بوصفها المثال الصارخ على زيف أطروحة (الاندماج الحضاري). فالخطاب الفرنسي الذي روّج لفكرة الإدماج والمساواة داخل الجمهوريّة انتهى عمليًّا إلى تكريس تمييزٍ بنيويّ طويل الأمد، حيث ظلّ

الجزائريون في مرتبةٍ قانونيّةٍ أدنى، رغم عقود من الادّعاء بأنّهم جزءٌ من المجال الفرنسي.

ويقود المؤلّفُ القارئَ إلى استنتاج مفاده أنّ المطالبة بالمساواة داخل البنية الاستعماريّة ليست إلّا اعترافًا ضمنيًا بشرعية تلك البنية، وأنّ مآلها في الحالة الجزائريّة كان صِدامًا دمويًّا، بلغ ذروته في حرب التحرير ضد فرنسا، وهي حرب ارتبطت في الوعي الجمعي الجزائري برقم (مليون ونصف المليون شهيد) بوصفه رمزًا لحجم الفجوة بين خطاب التمدين وممارسة الإقصاء. فالاستعمار هنا لم يفشل فقط في تحقيق تنميةٍ عادلة، بل فشل في إقناع السكان بشرعيّة بقائه.

ولدى الانتقال إلى تونس، يختار المؤلّف مقاربةً أكثر تعقيدًا، إذ يُشار غالبًا إلى التجربة التونسيّة بوصفها نموذجًا (أقلّ عنفًا)، وأكثر انفتاحًا على الإصلاح الإداري والتعليمي تحت الحماية الفرنسيّة. غير أنّ المؤلّف يُنبّهنا إلى أنّ هذا (النجاح) كان نجاحًا وظيفيًّا، يخدم إعادة تنظيم الاقتصاد والمجتمع بما يتوافق مع المصالح الاستعماريّة.

ويكتسب هذا التحليل دلالته اللاحقة حين يستحضر لحظة انفجارٍ اجتماعي، قادها حدثٌ فرديٌّ تمثّل في إحراق محمد البوعزيزي نفسه في تونس، ليؤكّد أنّ التحديث الشكلي الذي لا يؤسّس لعدالةٍ اجتماعيّةٍ عميقةٍ يظلّ هشًّا وقابلاً للانكشاف. فالنموذج الذي عُدّ يومًا (ناجحًا) لم يمنع تراكم اختلالاتٍ بنيويةٍ في توزيع الثروة والفرص، ما يعني أنّ أثر الاستعمار – حتى إن بدا أقلّ قسوة – قد يرسّخ اختلالاً طويل الأمد.

أمّا فلسطين، فهي لدى المؤلّف النموذج الحي للاستعمار الاستيطاني الذي لا يكتفي بالهيمنة، بل يسعى إلى الاحتلال. وهنا تتخذ الحياة في ظلّ الاستعمار طابعًا وجوديًّا؛ إذ لا يتعلّق الأمر بإدارة موارد أو إعادة تشكيل اقتصادٍ فحسب، بل بإعادة تعريف الأرض والسكّان والشرعيّة التاريخيّة. من خلال هذا المثال، يوسّع المؤلّف مفهوم الاستعمار ليشمل أبعاده الديموغرافيّة والقانونيّة والثقافيّة، ويُظهر أنّ التنمية المزعومة في مثل هذا السياق ليست سوى إعادة توزيع للموارد لمصلحة المشروع الاستيطاني، بينما يعيش الشعب الأصلي حالة اقتلاعٍ مستمر.

وفي الحالة المصريّة، يقدّم المؤلّف قراءةً لحقبة الاحتلال البريطاني، تركّز على فكرة (التنمية من أجل الاستغلال). فالسكك الحديديّة وشبكات الري التي أُنشئت في ظلّ السيطرة البريطانيّة لم تُبنَ لتحقيق استقلالٍ اقتصادي، بل لتكريس دور مصر كمصدر للموادّ الخام، خصوصًا القطن، ضمن منظومة الاقتصاد الإمبراطوريّ المرتبط بالمملكة المتّحدة. هنا يوضّح المؤلّف أنّ البنية التحتية

ليست معيارًا كافيًا للحكم على الطابع التنموي لأيّ مشروع؛ إذ قد تكون أداةً لتعميق التخصص الأحادي وربط الاقتصاد المحلّي بسوق خارجيّة تُملي شروطها.

ويقترب التحليل من الحالة العراقيّة ليبيّن أنّ مراعاة المصالح الاستعماريّة لم تتوقف عند لحظة (الاستقلال) الشكلي، بل استمرت عبر ترتيباتٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ ضمنت استمرار النفوذ. فالعراق، في قراءة المؤلّف، مثالٌ على الكيفيّة التي يمكن بها إعادة إنتاج التبعيّة، عبر اتفاقياتٍ وتحالفاتٍ، بحيث تبدو الدولة مستقلةً بينما تبقى خياراتها الاستراتيجيّة مقيّدة. وهنا يتعمّق المؤلّف في فكرة أنّ الاستعمار قد يتحوّل من احتلالٍ مباشرٍ إلى هيمنةٍ غير مباشرة، دون أن تتغير البنية الجوهريّة للعلاقة.

أمّا في الحالة الكويتيّة، يناقش المؤلّف ما يسميه (الثمن الغربي للمعجزة الأسطوريّة)، في إشارةٍ إلى الطفرة النفطيّة التي وضعت البلاد في مصاف الدول ذات الدخل المرتفع. غير أنّ هذه الطفرة ـ في تحليله ـ لم تكن منفصلةً عن شبكة الحماية والترتيبات الدوليّة التي ربطت أمن الدولة الصغير بمصالح القوى الغربيّة. فالمعجزة الاقتصاديّة لم تكن نقيضًا للارتباط بالمركز العالمي، بل كانت نتاجًا لعلاقةٍ مركّبةٍ تجمع بين الحماية الخارجيّة والمصلحة المحليّة، بما يطرح سؤالاً حول حدود الاستقلال الحقيقي في ظلّ نظامٍ دوليّ غير متكافئ.

ويتّخذ هذا الباب بُعدًا مقارنًا أوسع حين ينتقل إلى تجربة الولايات المتّحدة في تعاملها مع السكّان الأصليين، إذ يرى المؤلّف أنّ خطاب (التمدين) استُخدم لتبرير الإزاحة والإبادة. فالتوسّع غربًا جرى تحت شعاراتٍ حضاريّة، بينما كان في جوهره صراعًا على الأرض والثروة. ويستحضر مثال كاليفورنيا بوصفه جانبًا من المجزرة الأمريكيّة ضدّ الهنود الحمر، ليؤكد أنّ الطمع حين يُغلَّف بشروط تمدّنٍ مستحيلةٍ يجعل الضحية مسؤولةً عن عجزها عن الارتقاء إلى معايير يضعها المستعمِر ذاته. وبهذا يتبين أنّ الاستعمار ليس ظاهرةً أوروبيّةً فحسب، بل منطق قوةٍ يمكن أن يتكرّر في سياقاتٍ مختلفة.

أمّا الكونغو، فيقدّمها المؤلّف بوصفها الحالة التي أحرجت المستعمِرين أنفسهم بسبب حجم الوحشيّة المرتكبة باسم الحريّة والتحضّر، في إشارةٍ إلى حقبة الاستغلال البلجيكي، التي ارتبطت بجرائم واسعة النطاق تحت حكم (ليوبولد الثاني) . هذه الحالة تكشف ـ في نظر المؤلّف ـ أنّ الخطاب الإنساني قد يتحوّل إلى قناعٍ لنهبٍ منظّم، وأنّ الفضيحة الأخلاقيّة لم تمنع استمرار أنماط الهيمنة بأشكالٍ أخرى.

بعد ذلك يطرح المؤلّف مفهوم (استعمار الاستعمار)، في إشارةٍ إلى التراتبية داخل النظام الدولي، إذ قد تخضع دولٌ ناميةٌ لهيمنة دولٍ كانت بدورها خاضعةً لنفوذ قوى أكبر، كما فعلت بريطانيا بالبرتغال، فيتضاعف منطق التبعيّة ويتعقد. هذا المفهوم يوسّع النقاش من ثنائيّة مستعمِر- مستعمَر إلى شبكة علاقاتٍ غير متكافئة عالميًا، بحيث يصبح الاستعمار بُنيةً ممتدة، لا حدثًا تاريخيًا منقطعًا.

وهكذا يختم المؤلّف هذا الباب بفكرة (الإفادة من الاستعمار دون استعمار)، ليشير إلى إمكانيّة الاستفادة من منجزات الحداثة الغربيّة - عِلمًا ومؤسّسات وتقنيّات - من دون الخضوع لمنطق السيطرة. هنا تتبلور الرسالة النهائيّة للباب التي مفادها: أنّ المشكلة ليست في الأخذ بأسباب التقدّم، بل في ربطها بعلاقة هيمنةٍ تُفرِغها من مضمونها التحرّري. فالتنمية ـ كما يستخلص المؤلّف ـ لا تتحقّق بالارتهان لبُنيةٍ استعماريّة، بل ببناء قدرةٍ ذاتيّةٍ على الاختيار والتكييف.

بهذا العرض المتدرّج والمتعدّد الأمثلة، ينجح المؤلّف في تحويل النقاش من جدلٍ نظريٍّ حول (إيجابيّات الاستعمار) إلى قراءةٍ ملموسةٍ للحياة اليوميّة والسياسيّة والاقتصاديّة تحت السيطرة. وهو لا يدّعي تماثل التجارب، إنّما يؤكّد أنّ القاسم المشترك بينها هو غياب السيادة الكاملة، وأنّ أيّ إنجازٍ تحقّق في ظلّ الاستعمار ظلّ مشروطًا بإرادة الخارج. ومن ثم فإنّ الحُكم على الاستعمار من زاويةٍ بعض مظاهره العمرانيّة أو الإداريّة يظلّ حكمًا مبتورًا، بعد ذلك، ما لم يُنظر إلى البنية العميقة التي حكمت تلك الحياة وحدّدت سقفها وإمكاناتها.

الباب الرابع

في هذا الباب يطرح المؤلّف جملة تساؤلاتٍ مهمةٍ نابعةٍ من رحم الموضوع وتداعياته

أوّلاً: هل تعلَّم الاستعمار من أخطائه؟

هنا يبتدئ المؤلّف بالإشارة إلى أنّه ما دامت الدوافع مغروسةً في النفس البشريّة دون ضوابط، فيجب أن لا نتوقع التغيير في الأساليب الإجراميّة حسب سهولتها وعوائدها وكفاءتها، ولكنّنا لا يمكن أن نضع هالةً أخلاقيّةً غير موجودةٍ حول الدروس القاسية التي تعلم أصحابها عدم تكرار أخطاء مكلفة؛ لأنّ المجرم قد يتعلّم الابتعاد عن أحد حقول الإجرام بسبب صعوبة ارتياده وكلفته الباهظة، أو يفضّل ممارسة لونٍ إجراميّ آخر أكثر سهولةً وكفاءةً وربحًا من غيره، ولا سيّما مع التقدّم التقني الذي يوفّر الجهد في هذه المجالات القتل بضغطة زرٍ تطلق قنبلةً ذريّةً نظيفةً، بدل معمعة

السكاكين والسواطير الخطرة والقذرة ـ على حدّ قوله ـ كذلك النهب الإلكتروني بدل تسلّق جدران البيوت والبنك الدولي، بدل الجيوش الجرّارة. وبهذه الحالة لا يمكننا أن نقول إنّ المجرم أصبح ذا خلقٍ بسبب إقلاعه عن الجريمة السابقة. إنّما نستطيع الجزم أنّ هذا المجرم استفاد من تجارب لنفسه وليس لصالح الآخرين لتحسين الاستغلال، وليس لسيادة الأخلاق. نعم تعلّم الاستعمار من أخطائه، ولكن ليُحسّن أداءه في الاستغلال، وليس ليحسّن أحوال ضحاياه.

وهكذا ينتهي المؤلّف إلى التنبيه إلى فكرة مفادها: أنّه على دعاة فكرة تصحيح الغرب أخطائه ذاتيًّا أن يحدّدوا لنا الوجهة التي يتم تصحيح الأخطاء اليها: هل هي في صالح الأكثريّة المستغِلة، أم في صالح الأقليّة المستغَلة.

ثانيًا: هل انتهت أضراره؟

هنا يرى المؤلّف أنّ الدروس الأخلاقيّة تتطلب ثمنًا باهضًا. وعلى هذا الأساس فإنّ المبادئ الأخلاقيّة تقتضي إدانة الغرب لماضيه الاستعماري الذي قامت عليه شرعيّة الحاضر، وهذا ما يرفضه المستعمِر لسببين:

الأوّل: أنّ أدانته تعني إدانة الماضي الذي شرّع الحاضر (الديمقراطي العقلاني المتطوّر) الذي يتباهى به.

الثاني: أنّ إدانته لسلوك الماضي تعني وجوب تغيير السلوك السابق (أي التخلّي عن الديمقراطيّة العقلانيّة التي سببت مآسي الآخرين).

وهكذا ينتهي المؤلّف في هذا المقام إلى أنّ كِلا الأمرين مُكلِفان على الصعيدين النفعي المادّي والنفس المعنوي، ممّا يعني أنّ المستعمِر غير مستعدٍ لدفع هذا الثمن.

وبناءً على رفضِ المستعمِر إدانةَ سلوكه الماضي، يرى أنّ الولايات المتّحدة تضطهد السكّان الأصليين، وتستبعدهم من منظومة رفاهيتها، في الوقت الذي نراها مستعدّةً لاستقبال الملايين من المهاجرين واستيعابهم، لكنّها غير مستعدةٍ لاستيعاب عددٍ قليلٍ من الهنود الحمر الذين تبقوا من حروب الإبادة والسلب والتهجير؛ لأنّ تصحيح السلوك تجاه الهنود المعاصرين يقتضي إدانة الرموز التي أسبغت عليها الصفات الإلهيّة في التاريخ الأمريكي ـ على حدّ قوله ـ كحرب الاستقلال، والدستور ووثيقة الحقوق، والآباء الحجاج، والآباء المؤسّسين، والمصير الجلي، والتوسّع الإقليمي، والحرب الأهليّة، وجميعها كانت رموزًا سلبيةً للهندي الأصلي، وإيجابيّة للمستوطن

الأوروبي؛ لأنّها أفسحت له مجال البقاء على هذه الأرض على حساب صاحبها الذي تضرّر على حدّ قول المؤلّف.

ثالثًا: ما هو دور آلية التصحيح الذاتي في الحضارة الغربيّة؟ وما هو دور الاستعمار الجديد؟

للإجابة على ذلك يرى المؤلّف أنّ المجتمع الأمريكي ما زال قادرًا على التعاطي مع كثيرٍ من مشاكله، أكثر من التعاطي مع تبعات اضطهاد السكّان الأصليين في القرن التاسع عشر، رغم بعد الزمن وتعاقب الأيام.

ولعلّ هذا هو السرّ ـ كما يقول ـ في انبثاق الوعي بنكبة السكّان الأصليين الذي لم يؤدِ إلى تغير السياسة الرسميّة تجاه محمياتهم البائسة في الولايات المتّحدة. وينطبق ذلك على معارضة الأغلبيّة الديمقراطيّة الأستراليّة في إنصاف السكّان الأصليين أيضًا.

هنا يشير المؤلّف إلى نقطةٍ مهمةٍ مفادها: أنّ رفض دفع هذا الثمن (أي إدانة الماضي اللازمة لتصحيح الحاضر) غير مقصورٍ على القرشي زمن بزوغ الدعوة الإسلاميّة، بل يشمل الأمريكي وآلهته التي قتلَتنا، والفرنسي وثورته التي سحقَتنا، والبريطاني واستعماره الذي استغلنا.

أمّا بالنسبة لاعتذار الغربيين لليهود فيرى المؤلّف أنّ هذا الاعتذار هو اعتذارٌ داخليّ ضمن مكونات حضارةٍ يرونها واحدة، أصبحت قائمةً على تراثٍ يهودي مسيحي مشتركٍ، كمن يعتذر لنفسه عن أخطاء يرى أنّها أضرّته في الماضي، ليس لسببٍ أخلاقيّ، بل لسببٍ نفعي!

وهكذا ينتهي المؤلّف في هذا المقام إلى أنّ الغربيين لو كانوا جادّين في اعتذارهم عن محرقة اليهود، فلماذا يصاب هذا الغرب بالرعب والهستيريا، عندما طالبه الرئيس الإيراني السابق أحمدي نجاد باستيعاب اليهود داخل البلاد الغربيّة التي تدّعي محبّة اليهود والهيام به؟!

وفي محطّةٍ من محطات هذا الباب يحطّ المؤلّف رحاله في أخطر موضعٍ وموضوع ألا وهو التنمية العربيّة والإسلاميّة على الطريقة الأمريكيّة في ظلّ الاستعمار الجديد. ففي ثنايا هذا الموضوع ينبّه المؤلّف إلى مسألةٍ سياسيّةٍ دأب الغرب السياسي على إنتاجها في خطابه للأنظمة العربيّة والإسلاميّة المعاصرة، ألا وهي مطالبات هذا الغرب لهذه الأنظمة بالإصلاح والتنمية!

ففي تفاصيل هذه العلاقات بين الأنظمة العربيّة والإسلاميّة المعاصرة والولايات المتّحدة، نلمس كثرة المطالبات الأمريكيّة لهذه الأنظمة بتحقيق الإصلاح، والسير على طريق التنمية. لكن

سياسة الغرب عامة وقفت ضد صعود قوى محلّية، منذ زمنٍ طويل. هذه السياسة أكّدها (هنري كيسينجر)، وزير الخارجيّة الأمريكي بقوله: حدّدت السياسةُ الأمريكيّة في الشرق الأوسط عدّةَ أهدافٍ أمنيّة، منها: مَنْع أيّة قوةٍ في المنطقة من الظهور والهيمنة، ضمان تدفّق موارد الطاقة التي ما زالت ضروريةً لتشغيل الاقتصاد العالمي، ومحاولة القيام بدور الوسيط بين إسرائيل وجيرانها من أجل قيام سلامٍ دائم.

ولو تأمّلنا في دوافع هذه المطالبات المستمرّة بالتنمية والإصلاح لوجدنا اشتراك الدول الغربيّة مع أمريكا فيها، إذ تعود هذه المطالبات بجذورها إلى أيام الهيمنة البريطانيّة بعد حصول دول المنطقة على الاستقلال وبقائها في الفلك البريطاني. هذه التنمية ـ كما يراها المؤلّف ـ هي جزء من محاولات الغرب الحثيثة لتحقيق الاستقرار بما يحقّق مصالحه الإستراتيجيّة، مع السعي لتحقيق مستوى بسيطٍ من المعيشة والرفاهية، كما يُبعد شبحَ المدّ الشيوعي المتربص بالمنطقة.

لكن هذه التنمية كانت مقيدةً بالنظام الإقليمي والدولي السائد وهو المحافظة على الأنظمة والحدود والموروثة من عهد الاستعمار، كما كانت مشروطةً بعدم الوصول إلى حدّ الخروج عن بيت الطاعة الغربي، وإلّا سيتم تحجيمها وإعادتها إلى سابق عهدها، أي لم يكن مسموحًا لنا بتحقيق النهوض (بوحدة) تتجاوز هذه القيود، والوصول إلى درجة تحدّي النظام العالمي الظالم الذي فُرض علينا باسم الشرعيّة الدوليّة.

ويرى المؤلّف أنّ الصورة المثلى التي يريدها الغرب لهذه التنمية، تتمثّل في أنّ الاستقرار المطلوب غربيًّا والتنمية اللازمة له والإصلاح السياسي الذي ينادون به نظريًّا لا تتعدّى صورته المثلى في أحسن الأحوال بقائنا (شراذم متفرقة) من الدول الصغيرة، بما يضمن النظامُ العالمي الغربي وجودَها واستمرارها، دولًا ضعيفة، تتعاقب عليها حكوماتٌ بظاهرٍ ديمقراطي، يتضمّن الطقوس الديمقراطيّة، دون تمثيلٍ حقيقيّ لإرادة شعوبنا التي تتعارض جذريًّا مع إرادة المهيمنين عليها بطبيعة الحال. وتكون هذه الحكومات قادرةً على توفير مستوى من المعيشة يبعد شبح الثورة التي لا يطيق الغربُ احتمالَها؛ لإمكان خروجها عن السيطرة.

إذًا فالإصلاح والتنمية ليسا على رأس أولويّات الغرب ـ كما يرى المؤلّف ـ مما يعني أنّ هذا الغرب إذا وجد نظامًا يحقّق له مصالحه، ولكنه ينتهك حقوق شعبه، فإنّ الغرب يقدّم المصالح العاجلة على الآجلة، فيدعمه بلا تحفّظ، ويلغي أهميّة الإصلاح السياسي من جداوله ومن أمثلة ذلك:

١. نظام شاه إيران السابق الذي أرشده الغرب في جزئيّات انتهاك حقوق الإنسان، وساعده الأمريكيّون والصهاينة على إنشاء استخباراتٍ رهيبةٍ، وكالوا له قوافيَ الثناء والمديح بلا حساب.

٢. نظام الرئيس المصري السابق أنور السادات الذي دعمه الأمريكيّون وقدّموا له المساعدات الوفيرة؛ لأنّها تحقّق مصالحهم المادّية الآنية، رغم ما شاب معاملاته مع شعب مصر من عيوبٍ كبرى هددت الاستقرار، وكذا الأمر مع خليفته حسني مبارك الذي تخلّت أمريكا عنه لحظة الانفجار الشعبي الكبير. إذ تبرّأت منه ورأت في الثورة مناسبةً للبكاء والعويل على الديمقراطيّة المهدورة أيام مبارك.

والآن لنرى ما مصير طاعة أوامر الإصلاح؟ بالتأكيد لقد حازت هذه الأنظمة العربيّة والإسلاميّة على الإعجاب الغربي؛ كونها أكثر طاعةً واتّباعًا لإصلاحاته في المجال الاقتصادي، من خلال تقديمها طلبات المعونات والقروض من المؤسّسات الدوليّة التي هيمنت بل فرضت وصايتها الماديّة على سياسات هذه الأنظمة العربيّة والإسلاميّة، الأمر الذي أدّى إلى جملة تداعيات أهمّها:

١. إصابة عددٍ ليس بالقليل من الدول العربيّة بالإرهاق والتعب من الالتزام بتنفيذ توصيات صندوق النقد الدولي، وهو ما ظهرت نتائجه السلبيّة على الشعوب العربيّة والإسلاميّة. وليس ببعيد ما جرى في الأردن عام ١٩٩٦م، عندما قامت الحكومة بإلغاء الدعم عن القمح، في إطار ما يُسمّى ببرنامج الإصلاح الاقتصادي الذي قامت به تحت رعاية صندوق النقد الدولي؛ ممّا أدّى إلى تضاعف سعر رغيف الخبز ثلاثة أضعاف، كان من نتائجها موجة الغضب والاضطرابات في جنوب الأردن.

٢. والحال ذاته حين شهدت اليمن أحداثًا مماثلةً عام ٢٠٠٥ م، عندما نفّذت حكومة اليمن آنذاك مشروع صندوق النقد الدولي بإلغاء الدعم عن الوقود جزئيًّا؛ ممّا أدّى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا شديدًا، أعقب ذلك أحداث شغبٍ واضطرابات نتج عنها بعض الوفيات.

ومثلما وعد الغرب وأمريكا مصر واليمن بمستقبلٍ زاهر، ثم تبيّن زيف ذلك ـ كما تقدّم ـ يتكرّر المشهد في ظاهرة اتّفاق أوسلو عام ١٩٩٣م، حينما شاع الحديث عن مستقبلٍ زاهرٍ ينتظر أراضي سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، وما قدّمه لها الأمريكان من وعود بأنّ قطاع غزة سيتحول إلى سنغافورة الشرق الأوسط، لتدور الأيام وتظهر حقيقة السياسة الأمريكيّة تجاه زعامة الرئيس عرفات، لتحقيق مزيدٍ من التنازلات للمصالح الصهيونيّة، ويكتشف الناس الذين حلّقوا بأحلامهم في السماء أنّ فيها طائرات ستقصفهم بالفسفور الأبيض وليس بالعسل الأبيض ـ كما يقول المؤلّف ـ بحيث

مرّت على غزة أيّامٌ عجاف، دمّرت ما حصدته الأيام السِّمان من مطار وميناء ومؤسّسات، ما جعلها تكفر بكلّ وعود الثواب الأمريكي والجنة الغربيّة، بعدما فقدت أبسط مقوّمات الحياة.

وكان من نتائج بيت الطاعة الغربي توجيه صفعةٍ لدعاة الخضوع العربي للإملاءات الأمريكيّة والغربيّة. هؤلاء الذين سمّاهم المؤلّف (دعاة الواقعيّة التغريبيّة) الذين كان بعضهم يقبض راتبًا جزاء استسلامه. فمن مصاديق هذه الصفعة لهم:

أوّلًا: أنّ بلادنا لم تجنِ من طاعتها وإذعانها على مدى عشرات السنين سوى زيادة التبعيّة والتخلّف والانقسام والفقر وسلب الحقوق، وذلك لسببٍ بسيطٍ هو إدراك الغربي أنّ أيّ طريقٍ نسلكه أو يسلكه معنا سيؤدّي إلى قيام عملاق في بلادنا يزاحمه السيادة عليها، وهو ما لا تسمح به المنفعة التي يسير على هداها.

ثانيًا: ما نقله المؤلّف عن الاقتصادي الشهير الحائز على جائزة نوبل (جوزيف اي ستيغليتز) في شهادته عن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي قوله: «لقد أمست هاتان المؤسّستان اليوم فاعلتين مهمتين في الاقتصاد العالمي. والبلدان التي تطلب مساعدتها.... عليها أن تتبع أوامرهما الاقتصادية». هذه الأوامر التي تعكس أيديولوجيتها بشأن السوق الحرّة. والنتيجة بالنسبة إلى كثيرٍ من الناس كانت الفقر.

كما أنّ من مصاديق تداعيات الرضوخ للإملاءات الأمريكيّة ومباركة الداعين لها، هو الشرط الأمريكي الرئيس لتطبيق برامج تنمويّة للفلسطينيين، وهو تخلّيهم عن وطنهم وقبولهم بالأوطان البديلة ليتمكّنوا من الحصول على حياة البحبوحة الأمريكيّة التي صُورت لهم في مشاريع تسوية عديدة مثل:

أ. مشروع جونستون عام ١٩٥٣م: القاضي بإمكانيّة توطين اللاجئين في بعض البلدان العربيّة (العراق والأردن).

ب. مشروع ألفا عام ١٩٥٤م: وهو مشروعٌ أمريكيّ بريطانيّ مشتركٌ نصّ على عودة بعض اللاجئين وتوطين غالبيتهم في الدول العربيّة المجاورة، مع إغراء هذه الدول بمليارات الدولارات، فضلاً عن الضمانات الأمنيّة لها.

ج. مشروع دالاس عام ١٩٥٥م: القاضي بإعادة توطين اللاجئين في البلدان العربيّة التي لجأوا

إليها ومساعدتهم على ذلك بمنحهم تعويضات من أمريكا وإيجاد فرص عملٍ وبناء مساكن، وغير ذلك من الوعود.

ومثلما استخدمت الولايات المتّحدة وعودَ التنمية للاجئين الفلسطينيين لقاء تنازلهم عن ديارهم، استخدمت الوعود نفسها مع البلاد العربيّة لتتنازل هذه البلدان عن همومها الحقيقيّة، وتتبنى همومَ الغرب ومصالحه في ديارها. وقد عبرت عن ذلك رسميًّا في مبدأ (أيزنهاور)، وهو المشروع الذي طرحه الرئيس الأمريكي عام ١٩٥٧م، بهدف ملء الفراغ الذي تركته القوى الاستعماريّة الغربيّة في مواجهة احتمالات الغزو الشيوعي المباشر أو غير المباشر لمنطقة الشرق العربي الإسلامي، رغم اعترافه بوجود مشكلاتٍ أخرى في المنطقة مثل مشكلة فلسطين، مشكلة اللاجئين، علاقة الكيان الصهيوني مع الدول العربيّة، مستقبل قناة السويس، فإنّه حاول حرف الرؤية لتتركز على خطرٍ شيوعيّ موهومٍ ليحشد الجيوش ضدّه.

حينما يتحدّث المؤلّف عن الوضع العراقي وموقف الولايات المتّحدة والغرب منه، لم يكن المؤلّف موضوعيّا فيما تعرّض له أبناء هذا الشعب من جرائم الاضطهاد والإرهاب والإعدام والملاحقات من قبل النظام العراقي السابق قبل ٢٠٠٣م، حيث يقول في معرض حديثه عن جريمة اغتيال العلماء العراقيين بعد عام ٢٠٠٣ م: «هذا الحدث أصبح من الحديث المتواتر، وخرج عن نطاق التداول داخل دوائر خاصّة؛ ممّا ينفي الادّعاءات المعلنة عن دكتاتوريّة النظام بصفتها سببًا لشنّ الحرب عليه»!

وكان الأجدر بهذا الكاتب المرموق أن ينطق بكلمة الضمير الحرّ، وتنبهه إلى ضرورة أن يصدح بالحقّ في كلّ الظروف ولكن!!

هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر فيما يخصّ الوضع العراقي عمومًا أيام الحصار الجائر بين ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٣م، كان المؤلّف موضوعيّا فيما عرض من معاناةٍ للشعب العراقي زمن الحصار الجائر، مشيرًا إلى ارتكاب أبشع الجرائم من قبل الدول الغربيّة وأمريكا بحقّ العراقيين، إلى الحدّ الذي تفتخر به وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة مادلين أولبرايت بقتل نصف مليون طفلٍ عراقيّ من أجل المصالح الأمريكيّة! هذا مع وعودهم الكاذبة أثناء زحفهم بإعادة إعمار العراق، وجعله نموذجًا يحتذى به، ولكن عدوانهم ـ على حدّ قول المؤلّف ـ أثبت جدواه في شيءٍ واحد، هو جعل العراق نموذجًا للدمار والخراب وانتهاك الحقوق.

وهكذا ينتهي المؤلّف في هذا الباب إلى استحالة أن تكون التنمية الغربية نموذجًا بنّاءً. إنّما هو نموذجٌ مدمّرٌ لأسبابٍ عديدةٍ أهمّها:

أ. لأنّه نخبويٌّ يشبع الأقليّة الثرية، ويغوي، ثم يُحبط الأكثريّة المحرومة.

ب. لأنّ هذا النموذج عدوانيٌّ؛ إذ بنى الغرب الأوروبي نموّه على إبادة سكّان ثلاث قاراتٍ هي أمريكا الشماليّة وأمريكا الجنوبيّة وأستراليا، واستعباد القارّة الرابعة (أفريقيا)، واستعمار الخامسة (آسيا).

ج. لأنّ هذا النموذج ملوِّثٌ؛ كونه ألحق الضرر بالبيئة والحياة من خلال ما أُطلق عليه الثورة الصناعيّة التي أسهمت بارتفاع درجة حرارة الأرض وإحداث تغيراتٍ مناخيةٍ إضافيّة من جفافٍ وأمطارٍ جارفةٍ وذوبان جليدٍ، وغير ذلك.

د. لأنّ هذا النموذج (مفكِّك) فالغرب إذا كان قابلاً بالتكاليف الاجتماعيّة السلبيّة الناتجة عن نموذج نموه كالبطالة والإدمان على الكحول والمخدِّرات وتفكّك الأسرة وشيوع العنف وارتفاع معدلات الجريمة الإباحيّة، فهذا ما يصطدم مع ثوابت الشعوب الأرض الأخرى على الصعيد الاجتماعيّ والعقديّ والاخلاقي.

الباب الخامس

في هذا الباب يطرح المؤلّف جملة تساؤلاتٍ مهمّة، لها صلة في بعض جوانبها بجهةٍ استعمرت البلاد العربيّة ردحًا من الزمن، ألَا وهي الدولة العثمانيّة.

ولأجل إجراء مقارنةٍ بين الاستعمار الغربي والدولة العثمانيّة، يطرح المؤلّف هذا التساؤل: هل كانت الدولة العثمانيّة استعمارًا؟ ولمن كانت إنجازاتها؟ وما هو حجم هذه الإنجازات؟ هنا يستعرض المؤلّف محاولة بعض الدوائر الاستعماريّة الغربيّة على لسان المستشرق برنارد لويس تبرير أفعالها وتزيين أهدافها، من خلال الإشارة إلى عدم وجود فرقٍ بين الجانبين ـ الغربي والعثماني ـ فكلاهما لصوص - على حدّ قول برنارد لويس - ومع ذلك فنحن الأفضل كما يقول!

إلّا أنّ المؤلّف يدحض مقارنة لويس هذه؛ ذلك أنّ الفرق شاسعٌ جدًّا ــ كما يقول ــ بين الفتوح الاستعماريّة وما يسميه بالفتح الإسلامي فالفتوح الاستعماريّة قامت على طرد أو إبادة السكّان الأصليين والحلول محلّهم في حين أنّ الفتح الإسلامي في الأندلس أو بقية البلاد لم يفعل شيئًا من هذا، كما يقول المؤلّف. فالفاتحون المسلمون لم يطردوا أحدًا من أرضه مشيرًا إلى أنّ هدف

الفتوحات هو ضمّ الآخرين إلى عالَمهم، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولهذا لا نرى تفاوتًا بين الأمم الإسلاميّة في التطوّر حسب قوله. فضلاً عن عدم وجود فرقٍ بين الأناضول وبقية البلاد العثمانية.

والواقع أنّ المؤلّف لم يكن موضوعيًّا في عدم عرضه لانتهاكات الدولة العثمانيّة في بعض البلاد الإسلاميّة كالعراق مثلاً إذ وضعت إستراتيجيّة طائفيّة في تعاملها مع أتباع أهل البيت، تعبّر عن مدى الجهل وعدم القدرة على استيعاب الآخر في الدين الواحد، ومن يتصفح المصادر التاريخيّة التي كتبت عن انتهاكات العثمانيين وسلاطينهم في النجف وكربلاء سيجد ما فيه الدليل الكافي لإدانتهم بمجازر موثّقة.

والغريب أنّ المؤلّف ـ في هذا المقام ـ يستشهد بكلمات المؤرّخ (مجيد خدوري) عندما صرّح بأنّ: «الإسلام لم يفرض نفسه على أتباع الديانات الأخرى، بل كانت الأقليّات الدينيّة تتمتع بحريّةٍ واسعةٍ في ممارسة حقوقها». والغريب في الأمر أنّهم يمنحون الأقليّات الدينيّة كامل حقوقها ويمنعون أهل القبلة الواحدة من أتباع أهل البيت من ممارسة طقوسهم! بل إنّ الدولة العثمانيّة هذه قد ارتكبت مجزرةً مروعةً في كربلاء عام (١٨٤٢م)، راح ضحيتها (٩٠٠٠ ضحية)، كما قصفت المدفعيّة العثمانيّة قبة الإمام الحسين (عليه السلام).

وفي مقام بيان الفرق بين مشاريع التنمية العثمانيّة المتمثّلة (بسكّة حديد الحجاز)، ومشاريع التغريب الاستعماريّة المتمثّلة بـ (قناة السويس)، يشير المؤلّف إلى:

أوّلًا: إلى أنّ الدولة العثمانيّة تقدّم أبناءها الأتراك لإنشاء مشروعٍ حيويّ في أرض العرب لإفادة كلّ المسلمين، في الوقت الذي يستعمل الغرب مليونًا من أبناء العرب لإنشاء مشروع لأجل مواصلاته البحريّة؛ خدمةً للإمبراطوريّة، فمات منهم (١٢٥ ألف) في سبيل المصالح الاستعماريّة التي أضرّت بالعرب أنفسهم.

ثانيًا: استيلاء البريطانيين على قناة السويس، بعد إفلاس الخديوي المبهور بأوروبا، واحتلال مصر، واستنزاف ثرواتها على مدى (٧٠ سنة)، ثم قيامهم بشنّ حربٍ عليها سنة ١٩٥٦م، باستخدامهم القناة هذه القناة التي ما زالت تعمل على خدمة الدول الكبر، وتعْبر خلالها سفنُهم الحربيّة كلّما أرادوا العدوان على بلداننا العربيّة والإسلاميّة، ولا نستطيع الاعتراض.

أمّا منهجيّة التغني بمشاريع التغريب الاحتلاليّة وطمس مشاريع العثمانيين ـ على حدّ تعبير

المؤلّف ـ فإنّ التغريب ما زال يحيي ذكرى لحظة تأسيس مشروعه النهضوي بجلب المطبعة على يد الحملة الفرنسيّة التي أذاقت مصر الأَمَرّين مع أنّ الفرنسيين أخذوها معهم أثناء انسحابهم من مصر في الوقت الذي يتناسى المؤيّدون للغرب كلّ جرائم الاحتلال الفرنسي ومجازره.

وهكذا يختتم المؤلّف هذه الدراسة بالقول إنّ الاستعمار لو ترَكنا وشأننا لكان أفضل لنا، ولكن ليس له، ومنفعته الذاتيّة هي معياره في النهاية.

قراءةٌ في السيرة الجهاديّة للسيّد عبد الرزّاق الحلو (قدس سره)

السيّد خالد الحلو

المُلخّص

يُعد آية الله العظمى السيّد عبد الرزّاق الحلو (١٢٧٥ - ١٣٣٧هـ) نموذجًا فريدًا للعالم المجاهد الذي جمع بين الفقاهة والقيادة الميدانيّة. نشأ في النجف الأشرف وتتلمذ على كبار علمائها كالمامقاني والرشتي، حتى نال درجة الاجتهاد المطلق.

لم تقتصر مرجعيّته على الجانب العلمي، بل كان أوّل المجتهدين وصولاً إلى جبهات القتال في البصرة عام ١٣٣٢هـ لمواجهة الاحتلال البريطاني. تميّز دوره باستنهاض عشائر الجنوب عبر رسائل وفتاوى حماسيّة، وقيادة العمليّات الجهاديّة ميدانيًّا من مقرّه في (العردة) بالقرنة، وصولاً إلى جبهة الكوت، ومشاركته في (نهضة العلماء الثانية). رفض السيّد الحلو المساعدات العثمانية كافة، معتمدًا على إمكانات المجاهدين الخاصّة، مؤكّدًا أنّ جهاده ينطلق من تكليفٍ شرعيّ لحفظ (بيضة الإسلام)، واستقلال الوطن، ليرسم بذلك صورةً مشرقةً للمرجعيّة الدينيّة الملتحمة مع قضايا أمّتها.

الكلمات المفتاحيّة: الجهاد الكفائي، الاحتلال البريطاني، عشائر الجنوب، المرجعية الدينيّة، تاريخ العراق المعاصر.

سيرة آية الله العظمى السيّد عبد الرزاق الحلو الجزائري

النسب والنشأة

هو السيّد عبد الرزّاق بن السيّد علي بن السيّد حسن بن السيّد سلمان، وصولاً إلى جدّه الأعلى السيّد فرج الله الحلو الجزائري. ولد في النجف الأشرف في حدود عام ١٢٧٥هـ، ونشأ في أحضان والده آية الله السيّد علي الحلو (قدس سره). وذكر صاحب كتاب (مشهد الإمام) أنّ السيّد كان منذ صباه مَعْقد الآمال ومفخرة الرجال، ذا همّةٍ عاليةٍ، ويحكي بشممه وإبائه أجداده العظام[١].

الرحلة العلميّة وأبرز الأساتذة

تلقى السيّد مقدّمات العلوم على والده وعمّه السيّد محمد الحلو، ثم اتّصل بالفقيهين السيّد مهدي القزويني (ت ١٣٠٠هـ)، والسيّد حسين آل بحر العلوم (ت ١٣٠٦هـ)[٢].

ومن أبرز الأعلام الذين حضر عندهم:

- الشيخ محمّد حسين الكاظمي (ت ١٣٠٨هـ): حضر بحثه الفقهي في كتاب (الهداية)، الذي وصفه الشيخ حرز الدين في (كتاب معارف الرجال) بأنّه كان يحضر درسه عشرات المجتهدين[٣].
- المولى حسين قلي الهمداني (ت ١٣١١هـ): أستاذ الأخلاق والعرفان، وتذكر المصادر مثل (أعيان الشيعة) عظمة مكانته العلميّة والروحيّة[٤].
- الميرزا حبيب الله الرشتي (ت ١٣١٢هـ): حضر عنده في السطوح العليا، ويصفه صاحب (نقباء البشر) بأنّه عالمٌ مؤسّسٌ ومحقّقٌ مدقّق[٥].
- الشيخ محمد حسن المامقاني (ت ١٣٢٣هـ): وهو أستاذه الأبرز الذي لازمه طويلًا، وأجيز منه بإجازة اجتهادٍ مطلقة، كما وثّق ذلك ابنه الشيخ عبد الله المامقاني في كتاب (مخزن المعاني)[٦].

---

١. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام، ص ٥٧٣.

٢. آغا بزرك الطهراني، آغا بزرك الطهراني، نقباء البشر، ق٣، ص ١١١١.

٣. محمد حرز الدين، معارف الرجال، ج٢، ص ٢٥٠

٤. حسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة، ج٦، ص ١٣٦

٥. آغا بزرك الطهراني، نقباء البشر، ق١، ص ٣٧١.

٦. عبد الله المامقاني، مخزن المعاني في ترجمة المامقاني، ص ٣٥٢.

المرجعيّة والدور الاجتماعي

بعد وفاة أستاذه المامقاني عام ١٣٢٣هـ، رجع إليه في التقليد أهالي مناطق الجزائر، والقرنة، وسوق الشيوخ، وبني أسد، وأقام صلاة الجماعة في الصحن الحيدري الشريف[١]. وقد تميّزت حياته بمواقف مشرّفة في الدفاع عن بلاد المسلمين ضدّ الجيش البريطاني عام ١٣٣٢هـ[٢].

النتاج العلمي والمؤلّفات

ترك السيّد آثارًا فقهيّةً استدلاليّةً مهمّةً وثّقها الشيخ آغا بزرك الطهراني في موسوعته (الذريعة)، منها:

١. جامع الأحكام: موسوعة فقهيّة من ٢٠ مجلدًا، فرغ منها عام ١٣٣٢هـ[٣].

٢. الرسالة الرضاعيّة: ألّفها استجابةً لطلّاب العلم عام ١٣٢٥هـ.

٣. كتاب الطهارة: فقه استدلاليّ في ٧ مجلدات[٤].

٤. منية العاملين وبغية الراغبين: رسالته العمليّة التي طُبعت في مطبعة (حبل المتين) عام ١٣٢٩هـ[٥].

٥. رسالةٌ في تذكية السمك: توجد نسختها في مكتبة الإمام الحكيم العامة[٦].

تلامذته والراوون عنه

تخرّج على يديه ثلةٌ من الأعلام، منهم:

- السيّد يونس الأردبيلي: الذي صرح بأنّ السيّد عبد الرزاق كان مدرّسه[٧].
- الشيخ محمد رضا الغرّاوي: الذي وصف أستاذه السيّد الحلو بالتواضع والعلم الجم في كتابه[٨].

---

١. جعفر باقر محبوبه، ماضي النجف وحاضرها، ج٣، ص ٣٨.

٢. حسين الأمين، مستدركات أعيان الشيعة، ج٥، ص ٢٦٩.

٣. آغا بزك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج١١، ص ١٩١.

٤. المصدر نفسه، ج١٥، ص ١٨٥.

٥. آغا بزك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج٢٣، ص ٢٠.

٦. آغا بزك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ص ٢٩٣

٧. جعفر السبحاني، موسوعة طبقات الفقهاء، ج١٤، ص ٩٠٥

٨. محمد رضا الغرّاوي، أصدق المقال في الدراية والرجال، ص ١٩٩.

• السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي: الذي نال منه إجازة روايةٍ شفهيّة في الحرم العلوي الشريف[١].

جهاده

أمّا من حيث الجهاد فقد روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال: «للجنة بابٌ يقال له: باب المجاهدين، يمضون إليه فإذا هو مفتوح، وهم متقلّدون بسيوفهم، والجمع في الموقف والملائكة ترحّب بهم، ثم قال: فمن ترك الجهاد ألبسه الله (عزّ وجلّ) ذلاًّ وفقرًا في معيشته، ومحقًا في دينه، إنّ الله (عزَّ وجلَّ) أغنى أمّتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها»[٢]. وعن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) أنّه قال: «أما بعد فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصّة أوليائه، وسوّغهم كرامةً منه لهم، ونعمة ذخرها، والجهاد هو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء..»[٣].

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال النبيّ (صلّى الله عليه وآله): «اغزوا؛ تورثوا أبناءكم مجدًا»[٤].

وسيّدنا المترجَم (قدس سره) ــ إضافةً إلى تاريخه العلميّ الحافل بالعطاء ــ قد سجلّه التاريخ مجاهدًا ثائرًا، وقائدًا من القادة المبرّزين في حركة الجهاد؛ ففي أوائل آب ١٩١٤م/١٣٣٢هـ، أوقدت الحرب العالميّة نيرانها، وقد سارعت تركيا إلى إعلان حيادها، غير أنّ هذا الموقف خضع لضغوطٍ عديدةٍ من أجل زجّها في الحرب، ولا سيّما أنّ الدوافع الحقيقية كانت تتطلّب فرض الحرب عليها لتنفيذ المشروع الاستعماري في تقاسم أقاليمها، وقد التقت تلك الدوافع مع الرغبة الجامحة للزعماء الاتّحاديين في دخول الحرب إلى جانب ألمانيا، وتصوّرت حكومة الاتّحاديين أنّ هذا لو تم، ودخلت تركيا الحرب فإنّها ستعيد أمجادها، وستخرج من الحرب منتصرةً قوية[٥].

أمّا ألمانيا فإنّها لم ترغب في البداية بإشراك الدولة العثمانيّة معها في الحرب؛ لأنّها كانت ترى أنّ نهاية الحرب لصالحها؛ فلا مبرر لأن يشاركها العثمانيّون في مكاسب النصر.

وفي أواخر تشرين الأول ١٩١٤م، أعلنت كلٌّ من روسيا وفرنسا وبريطانيا الحرب على

١. عبد الله الجزائري، الإجازة الكبيرة، ص ٧٩.

٢. محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، الحديث (٢).

٣. المصدر السابق، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، الحديث (١٢).

٤. المصدر السابق، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، الحديث (٦).

٥. محمد طاهر العمري، مقدرات العراق السياسية، ج١، ص٦٨

الدولة العثمانيّة[١]، وبذلك بدأت مرحلة الحسم الاستعماري في السيطرة على البلاد الإسلاميّة[٢]، لكن المشكلة التي واجهتها بريطانيا هي موقف علماء الشيعة من احتلال العراق، حيث كانت بريطانيا تدرك أنّ علماء الشيعة لا يمكن أن يتقبّلوا الاحتلال، وذلك من خلال المواقف التي تبنّوها إزاء الاحتلال الاستعماري للأقاليم الإسلاميّة، وتصدّيهم لأيّ محاولةٍ استعماريّةٍ تستهدف كيان المسلمين السياسي [٣].

وقبل أن تعلن بريطانيا الحرب على الدولة العثمانيّة صدرت الأوامر إلى القوات البريطانيّة في بومباي بالتحرّك نحو المياه الخليجيّة بمعيّة القوّات المرابطة في البحرين، وبعد إعلان الحرب تقدمت القوّات نحو العراق في ١٤ تشرين الثاني١٩١٤م/ ٢٥ ذي الحجة ١٣٣٢هـ، فاحتلّت الفاو، وبعد دخول القوات الغازية إلى البصرة استغاث أهلها بالعلماء، يطلبون منهم النهوض وإعلان الجهاد المقدّس، وبعثوا لهم ببرقياتٍ، ورد في بعضها: «ثغر البصرة، الكفّار محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى على باقي بلادِ الإسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع» [٤].

وعلى خلفيّة تلك الأحداث عُقد اجتماعٌ في مسجد الهندي، حضره السيّد عبد الرزاق الحلو، والسيّد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جعفر آل راضي، وكثيرٌ من العلماء، وعُقدت اجتماعاتٌ أخرى مماثلة، وأصدر العلماء فتاواهم بوجوب الجهاد ضدّ الإنجليز، وكان المرحوم السيّد الحبوبي (قدس سره) يردّد:

نحــن بنــو العــرب ليــوث الوغــى
ديــن الهــدى فينــا قــويٌّ عزيــزْ
لا بــدّ أن نزحــف في جــحفلٍ
نبيــــد فيــه جــحفل الإنكليــزْ

سبب جهاد العلماء إلى جانب العثمانيين

من روائع المؤسّسة الدينيّة الشيعيّة أنّها لا ترتبط بالسلطات الحاكمة على مر العصور؛ فلم يكن

١. عبّاس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٢٥٤.

٢. أنعام السلمان، حكم الشيخ خزعل في الأحواز، ص٧٧.

٣. يُنظر: كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص٧.

٤. أحمد الحسيني، الإمام الثائر مهدي الحيدري، ص٢٩.

فقهاؤها وعّاظ سلاطين، ولم يتقرّبوا إليهم، وهذا ديدن أئمّتنا (عليهم السلام)؛ ولذلك تعرّض الشيعة خلال الحكم العثماني إلى الاضطهاد المذهبيّ؛ من ذلك اعتراف الدولة العثمانيّة بالمذهب الجعفري، وكانت المؤامرات تحاك ضدّهم من قبل العثمانيين بالاتفاق مع الحركة الوهابيّة، ولكنّهم حينما تعرّض الإسلام للخطر من قبل جيوش الكفر حملوا أرواحهم على أكفهم، وبذلوا الغالي والنفيس للدفاع عن بيضة الإسلام، ولم يكتفِ العلماء (رضوان الله عليهم) بالفتيا، بل قرّروا أن يخوضوا الحرب بأنفسهم؛ لأنّهم يرون أنّ تكليفهم الشرعي هو قتال الكفّار، من باب خوفهم من استيلاء الكفّار على البلاد الإسلاميّة، يقول السيّد محمد سعيد الحكيم (دام ظله): «حينما غزت الجيوش البريطانيّة العراق في حربها مع العثمانيين الذين رأى الشيعة وعلماؤهم منهم الأمرّين ظلمًا وعسفًا وتجاهلاً واستهوانًا، حتى إنّهم لم يعترفوا بالمذهب الجعفري، وكانوا يفرضون عليهم في القضاء وغيره فقه المذهب الحنفي الذي تبنّته دولتهم وفرضته بقواتها، وكان أهل العلم من الشيعة لا يعفون من الخدمة العسكريّة – مهما بلغوا من العلم والمعرفة – حتى يؤدّوا الامتحان على طبق مناهجهم المبنية على الفقه الحنفي، ومع كلّ ذلك تناسى علماؤنا الأعلام (رفع الله درجاتهم) ذلك كلّه، واندفعوا للقيام بواجبهم في حفظ بيضة الإسلام، والدفاع عنه...» [١].

فالعلماء(رضوان الله عليهم) كانوا يرون أنفسهم أمام غزوٍ كافرٍ، يقول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في مذكراته: «... وهاجت الحمية الدينيّة بعلماء الإماميّة والمراجع الدينيّة؛ فخرجوا بأنفسهم إلى الجهاد، وفي الجهات المختلفة التي ساق العدو قواه إليها، وكانت الزعامة الروحانيّة قد انحصرت بعد وفاة الأستاذ الخراساني بالسيّد الأستاذ الطباطبائي [اليزدي] وحيث رأى أنّ القضيّة قضيّة هجوم الكفر على الإسلام، لم يتوقّف من أعلان الفتوى بوجوب النفير العام على كلّ متمكنٍ من الدفاع، وكانت بواخر الإنجليز الحربيّة دخلت الفاو، وبعد بضع أيامٍ سقطت البصرة، فكانت قوّتها فيها هي القلب [القرنة] والشعيبة الجناح الأيمن، والحويزة الجناح الأيسر» [٢].

وحدّثنا المرحوم العلاّمة السيّد محمد علي الحلو (طيّب الله ثراه) قال: «على ما يبدو أنّ العلماء لم ينتصروا إلى الحكم التركي بقدر ما انتصروا إلى مبادئ وفكر ووطن؛ ولذلك نجد أنّ من ترجم للثورة العراقيّة ذكر أنّ علماء النجف وحتّى الكاظميّة وكربلاء حينما خرجوا للجهاد وعرض عليهم

١. محمد سعيد الحكيم، المرجعية الدينية وقضايا أخرى، ص١٨٦.

٢. محمد حسين كاشف الغطاء، عقود حياتي، ص١٠٠-١٠١.

الحاكم التركي (سليمان بك) المساعدات أبوا، وقالوا: نحن لا نحتاج إلى ذلك. مع أنّهم كانوا بأشدّ الحاجة، وهذه نقطةٌ مضيئةٌ في تاريخ الشيعة؛ على أنّهم لم يستعينوا بالحكم التركي مع أنّهم أرادوا القضاء على الاحتلال الإنجليزي»[١].

ويتّضح من هذا كلّه أنّ خوض الشيعة للحرب إلى جانب العثمانيين ليس اعتقادًا منهم أنّ العثمانيين على حقّ، وإنّما كان تكليفًا شرعيًّا لحفظ بيضة الإسلام، ودفاعًا وطنيًا ضدّ أشكال النفوذ والتغلغل الأجنبي؛ لذا كان العلماء الذين خرجوا للجهاد كانوا (رضوان الله عليهم) يعتمدون على إمكاناتهم الخاصّة في تغطية نفقات الجهاد، ورفضوا المساعدات الماليّة من الحكومة العثمانيّة.

فتوى السيّد (قدس سره) بوجوب الجهاد

بعد إعلان الحرب وتقدّم القوات الغازية نحو العراق في ٢٥ ذي الحجة ١٣٣٢ هـ الموافق ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤م، واحتلال الفاو، استنجد الناس بالعلماء، وقدّموا استفتاءاتٍ كثيرةً إلى علماء النجف الأشرف، وكربلاء، والكاظميّة؛ فكان السيّد عبد الرزاق الحلو (قدس سره) في طليعة العلماء الذين أصدروا فتاواهم بوجوب الدفاع عن دار الإسلام، وإليك نموذجًا لأحد تلك الاستفتاءات:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو قول علماء الإسلام ناشروا الأحكام في تكليف المسلمين في هذا اليوم الذي هجم فيه الكفّار على البلاد الإسلاميّة العثمانية، وهم: دولة الروس، والإنجليز، والفرنسيين، واليابان، والصرب، والبلجيك، والجبل الأسود، واجتازوا بلاد الإسلام برًّا وبحرًا، وجعلوا ينهبون أموال المسلمين، ويقتلون رجالهم، ويذبحون نساءهم؛ فهل يجب على علماء المسلمين في هذا اليوم الدفاع عن الإسلام والمقاتلة معهم بالنفس والنفيس وبالرجال والمال، أم لا يجب ذلك؟ وهل يجب على المسلمين الذين هم في بلاد الكفار معاونة الإسلام بكلّ ما يتمكّنون منه أم لا؟ وهل يجوز للمتمكّن من الدفاع بدنًا ومالاً القعود عن ذلك أم لا؟ أفتونا عمّا جاز، وما لم يجز في الاستفتاء الشريف المذكور.

فكان جواب السيّد عبد الرزاق الحلو (قدس سره) هو:

---

١. الندوة التي أقيمت في مكتبة الإمام الحسن (عليه السلام) في النجف الأشرف، وكانت بعنوان (السيّد عبد الرزاق الحلو مجاهدًا وفقيهًا).

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم يجب على كافّة المسلمين دفع الكفّار، وطردهم من بلاد المسلمين وقراهم وأراضيهم، وإخراج الكفّار عنها؛ فمن يتمكّن من الدفاع، وكان عنده جاهٌ أو تدبيرٌ، أو حيلةٌ في دفعهم وإخراجهم فليبذلها، والله عالم بالأحكام.

خادم الشريعة عبد الرزّاق الحلو الحسينيّ.

ومن العلماء الذين أجابوا عن هذا الاستفتاء: السيّد محمد كاظم اليزدي، والميرزا محمد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصفهاني، والسيّد مصطفى الكاشاني، والسيّد علي التبريزي، والشيخ علي رفيش، والشيخ علي كاشف الغطاء (قُدّس الله أسرارهم).

خطبته في الصحن الشريف العلوي

بعد إصداره لفتوى وجوب الجهاد، أعلن (قدس سره) أنّه خارجٌ إلى ساحة الحرب بنفسه، وكانت له خطاباتٌ هيّج فيها مشاعر الناس، واستنهض هممهم، وكان (قدس سره) أوّل من رقى منبر الصحن العلوي الشريف معلنًا فتواه بالجهاد.

يقول السيّد شهاب الدين المرعشي (قدس سره): «كان [السيّد عبد الرزاق الحلو] رحمه الله ممّن خرج إلى دفع الجيش البريطاني عند دخوله العراق ومحاربته مع الدولة العثمانيّة، وكأنّي به (قُدّس سره) في الصحن الشريف العلوي المملوء بالناس من شيوخ العشائر والعلماء والتجّار والأمراء وسائر الطبقات على اختلاف أصنافهم، وهو على المنبر يهيّج الناس إلى الدفاع، وكان في تلك الأيام القائد العام (محمد جاجان الداغستاني) من أعاظم أمراء الدولة العثمانية جالسًا في المجلس، وكان رجلاً ذا سكينةٍ ووقارٍ وأبّهة، وكان السيّد (رحمه الله) مسدلاً ذاوية عمامته، قائمًا على عريشة المنبر، آخذًا بيده الراية المعروفة بالخيبريّة، وهي لواء يقال إنّ عودها هي العودة التي كانت بيد الأمير (عليه السلام) يوم فتح خيبر، وكان السيّد ينادي بأعلى صوته: "يا معاشر المسلمين هذا عَلَم أمير المؤمنين، اعلموا أنّ الإسلام أصبح غريبًا، وقد هجم على بلاد الإسلام جيش الكفر، فادفعوا عنها، فيها مشاهد يذكر فيها اسمه ويتلى ذكره. فعلت الأصوات بالبكاء والعويل فترى الناس بين صارخ ومنادي وا إسلاماه وا ديناه وا محمداه، وبالجملة كان ذلك اليوم مشهودًا، ورقى بعده العلامة الأستاذ الأديب آية الله السيّد محمد سعيد الحبوبي، وبعدهما عدة من العلماء والخطباء»[1].

١. عبد الله الجزائري، الإجازة الكبيرة، ص٧٨.

رسائل السيّد (قدس سره) إلى العشائر وشيوخها

بعث السيّد عبد الرزّاق الحلو (قدس سره) برسائل عديدةٍ إلى عشائر القرنة والمدينة وبني منصور والشرش وبني أسد والجبايش، يأمرهم فيها بمجاهدة الكفّار وطردهم عن بلاد المسلمين، نذكر منها:

رسالة إلى أخيه السيّد عبد المحسن الحلو (قُدّس سرّه)، وكان عليه اعتماده؛ فهو رفيقه وعضده في الجهاد، والواسطة بينه وبين عشائر القرنة والشرش والمدينة وسوق الشيوخ وبني أسد وغيرها، وكان السيّد عبد المحسن الحلو (يرحمه الله) مقيمًا في (المدينة) للتبليغ والإرشاد، وقت دخول القوات الغازية إلى البصرة، وإليك نصّ الرسالة:

«القرنة / جناب السيّد عبد المحسن الحلو وعموم المسلمين والسادات والمؤمنين.

البصرة ثغرٌ شريفٌ من ثغور المسلمين، وقد هجم المشركون اليوم على هذا الثغر الإسلامي، ويلزم على عامة المسلمين ويجب أن يدافعوا عنها، ويطردوا الكفّار، وتخاذلهم وتهاونهم حرام. أبلغوا هذا الحكم إلى عامّة المسلمين، والله مولانا ومعيننا إنْ شاء الله. وأخبرونا بنتيجة العمل.

السيّد عبد الرزاق الحلو »[١]

ورسالة إلى عشائر القرنة، جاء فيها:

«القرنة السادة المحترمون: كباشي السعد وعموم آل السعد وبني منصور وأهالي الشرش. البصرة من أهمّ ثغور المسلمين، وهذا اليوم ضيّق المشركون عليها بحملتهم، يجب عليكم جميعًا أن تتأهّبوا في هذا الثغر، وتبذلوا المال والنفس، وتعلموا العشائر بهذا الحكم الإلهي.

السيّد عبد الرزاق الحلو» [٢]

ورسالة إلى أمير قبيلة بني أسد الشيخ سالم الخيون، [٣] جاء فيها:

---

١. المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦.

٢. المصدر نفسه، ج ١، ص٤٦.

٣. هو سالم بن حسن بن خيون بن جناح الأسدي، أمير الجبايش، ولد فيها سنة ١٨٨٣م، وكان على رأس عشيرته وأحلافه في مقدمة المقاومين، ولما انهزم الأتراك أسرته القوات البريطانيّة ونفته إلى الهند.

«حمّار / جناب الأكرم الأفخم سالم آل خيون وعموم عشائر بني أسد:

معلومٌ لديكم أنّ البصرة ثغرٌ شريفٌ من ثغور المسلمين، وقد هجم الكفّار والمشركون على هذا الثغر، ويجب فعلاً عليكم وعلى سائر المسلمين أن تجتمعوا في هذا الثغر، وأن تحفظوا الأراضي الإسلاميّة من شرّهم، واعلموا أنّ غرض هؤلاء الأعداء هو محو كلمة لا إله إلاّ الله، إذن التخلّف عن هذا الدفاع حرام، ومخالفٌ للشريعة الإسلامية، الله الله في كلمة لا إله إلاّ الله.

السيّد عبد الرزاق الحلو»[١]

معركة كوت الزين

تلبيةً لفتاوى الجهاد ورسائل العلماء، ومنها الرسائل التي بعثها السيّد عبد الرزاق الحلو (قُدّس سرّه) اشتبكت العشائر في معارك مع القوّات البريطانيّة، كان أبرزها معركة (كوت الزين)[٢]، وهي معركة غير متكافئة؛ إذ استعمل البريطانيّون لأوّل مرةٍ أسلحةً غير مألوفة، اصطلح عليها العشائر اسم (مطر ليوز)، أي (رشاشات فيكرس)، وأعطت عشيرة الإمارة كثيرًا من رجالها شهداء، ومنهم (نصر) الابن الأكبر للشيخ حمود المير جابر [شيخ عشيرة الإمارة وعشائر المدينة] [٣]، واستشهد من قادة المعركة الشيخ (شلّال الفضل) الذي كان على رأس عشائر (الشرش) [٤] .

وبعد تقدّم الإنجليز واحتلال القرنة، أقام الأتراك خطًّا دفاعيًّا شمالها على ضفّتي دجلة، وبالوقت نفسه تقدّم الإنجليز صعودًا في نهر الفرات[٥].

بعث السيّد عبد الرزاق الحلو (قدس سره) رسالةً إلى شيوخ المدينة يحثّهم على الجهاد، وركن الخلافات جانبًا، جاء فيها:

---

١. كامل سلمان الجبوري، وثائق الثورة العراقية الكبرى، ج ١، ص ٤٥.

٢. كوت الزين: قرية تقع على الجانب الأيمن من شط العرب مقابل (المحمرة) تقريبًا، وعرفت هذه المعركة أيضًا بمعركة (الساحل). المصدر: علي الوردي، لمحات اجتماعيّة، ج٤، ص١٣٥-١٣٦

٣. يُنظر:عامر حسك الإمارة، على الدرب، ص ٣٥

٤. يُنظر المدينة (جزائر البصرة)، ص١٣٤.

٥. المصدر السابق، ص٣٦

«حضرات المحترمين: حمود آل جابر وحسج آل مبارك وعموم الإمارة وعموم عشائر الجزائر:

البصرة مـن أكـبر الثغور الإسلاميّة واليـوم ابتليت بمهاجمة الكفّار والمشركين، يجـب عـليكم أن تحضروا وتجتمعوا لحماية المسلمين وأراضي الإسلام، ولا يجوز التخلّف والتهاون عـن هـذه الفريضة الشرعيّة، ويلزم عليكم أن تلقوا جانبًا كلّ عداوةٍ وكدورةٍ ما بينكم، وكلّكم بيدٍ واحدةٍ تطردون الكفّار مـن بـلاد المسلمين «إنّ الله مـع الذين اتقّوا والذين هـم محسنون». وإذا اقتضت مهاجرتنا إلى تلك الأطراف فأطلعونا نأتي.

السيّد عبد الرزاق الحلو» .

أوّل المجتهدين وصولاً إلى البصرة

على خلفيّة الأحداث التي ذكرناها قرّر السيّد عبد الرزاق الحلو (قدس سره) الخروج إلى البصرة؛ فكان (قُدّس سرّه) أوّل المجتهدين وصولاً إلى ساحة الحرب، وذكرت المصادر أنّه في يوم ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٢هـ خرج السيّد عبد الرزاق الحلو من النجف مع بعض أهله داعيًا إلى الدفاع فشيّعه الناس، وكانت نيته الجزائر[١] .

قال عبد العزيز القصّاب في مذكراته – وكان آنذاك قائمقام السماوة-: «إنّ السيّد عبد الرزاق الحلو كان أوّل المجتهدين الذين وصلوا السماوة في طريقه إلى ساحة الحرب [البصرة]، وكان معه تسعةٌ من أتباعه [ومنهم: ولداه السيّد عبد علي والسيّد ميرعلي، وولدا أخيه السيّد عبد المحسن، وهما: السيّد محمود والسيّد محمد، وابن أخته وصهره السيّد عبد الحسين الحلو، وقدّم أمامه أخاه السيّد عبد المحسن، وابن عمّه السيّد محمد رضا الحلو][٢] . فنصب خيامه على الشاطئ الشرقي مـن النهـر، وبعد يومين من وصوله وردته برقيّةٌ من الوالي جاويد باشا [القائد العام للجيش العثماني] الذي كان في البصرة يقول ما نصّه: "أتوسل إليك برسول الله وآل البيت وفاطمة الزهراء أن تسرعوا في المجيء إليّ حيث إنّ البصرة مهدّدةٌ، ونحن في ضيقٍ شديد". فلما قرأ السيّد البرقية هتف قائلاً: «الله أكبر الله أكبر سمعنا وأطعنا»، ونادى أصحابه فأمرهم بتقويض الخيام ووضعها في السفن حالاً. يقول القصّاب: رجوته التريث لرداءة الجوّ وتجنّب الرياح الشرقيّة العاتية والانتظار حتى تخفّ حدّتها، غير أنّ السيّد أصرّ على الرحيل، وقال: «يا ولدي لقد وجبت علَيَّ الحركة بناءً

١. كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص١٦.

٢. ما بين المعقوفين هو ممّا تناقلته الأسرة.

على الخطاب الوارد لي، وأنّ تأخّري يعدّ عصيانا». ثم قال لرفاقه: «أسرعوا يا أولادي»، وبدأوا يفكّون خيامهم ويحملونها على السفينة، وتحرّكت بهم، فتحوّلت الرياح بعد خمس عشرة دقيقة إلى شماليّةٍ غربيّةٍ شديدةٍ ساعدت السفينة على وصولها إلى (الغرفة) بسرعةٍ فائقة، وتسلّمت برقية منه مساء ذلك اليوم يخبرني بوصوله سالمًا إلى البصرة.

ويذكر أنّه بعد مغادرة السيّد عبد الرزاق السماوة بعشرة أيامٍ أخذت تتوافد إلى البلدة قوافل المجاهدين من الشاميّة وأبي صخير والنجف[١]. قال الجبوري: وكان السيّد عبد الرزاق الحلو ممّن بكّر في الخروج إلى الدفاع، وأقام مدةً في جملة المدافعين حول القرنة إلى أن ظهر عليهم الإنجليز[٢].

أقول: كان وصوله إلى البصرة مبكّرًا، وذلك في غرّة شهر محرم ١٣٣٣هـ؛ لأنّ له فيها مركزًا عظيمًا، وأتباعًا كثيرين من أبناء العشائر المقلّدين له في مناطقها الشماليّة كعشيرة الإمارة، وغيرها من عشائر القرنة، والشرش، وهور (الحَمّار)، وسوق الشيوخ وبني أسد؛ فقاعدته الجماهيريّة كانت على أتمّ الاستعداد، ولم يحتج إلى أن يقيم في الطريق ليدعو العشائر، أضف إلى ذلك أنّه قبل خروجه من النجف كان يراسل أخاه العلاّمة السيّد عبد المحسن الحلو (قدس سره) لاستنهاض عشائر الجزائر، وتبليغهم بوجوب الجهاد، ممّا ساعد في وصوله مبكّرًا.

بينما نجد أنّ السيّد الحبّوبي (قُدّس سرّه) قد استغرق وقتًا في دعوة العشائر إلى الجهاد، يقول الشبيبي في مذكراته: «أقام السيّد محمد سعيد الحبوبي في السماوة إلى ٢٣ محرم ١٣٣٣هـ داعيًا أهلها وعشائرها إلى الجهاد، وهم يطلبون مطالب جمّة، طورًا يتّفقون، وتارةً يختلفون، ولم تصلح عزيمة أحد على السفر منهم إلاّ ٥٠٠ مجاهد، وفي يوم ٢١ محرّم لحق به السيّد هادي مقوطر الشهر، وكان يدعو عشائر الأبيض (الرميثة). وفي يوم ٢٣ محرّم غادر السيّد الحبوبي السماوة مع العدّة الماضية من المجاهدين إلى الناصرية، وكانت عشائر المجرّة والغراف وعجمي بك بانتظاره»[٣].

ويذكر الشبيبي أنّ السيّد الحبوبي ورد الناصرية في ٢٨ صفر ١٣٣٣هـ، ومعه لفيفٌ من مجاهدي السماوة والشنافية والنجف ونحوهم[٤].

---

١. عبد العزيز القصّاب، من ذكرياتي، ص١٠٨.

٢. كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص٢٢٧.

٣. كامل سلمان الجبوري، مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي، ص٤٦.

٤. كامل سلمان الجبوري، مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي، ص٥٤.

أمّا السيّد مهدي الحيدري فقد خرج يوم ١١ محرم ١٣٣٣هـ[١]، وعند وصوله إلى منطقة (العزير) برفقة الشيخ مهدي الخالصي، وفي أثناء طريقه إلى البصرة صادف اندحار الجيش العثماني؛ فأشار بعضهم عليه بالرجوع إلى العمارة؛ لأنّها مركز القوّة وموطن العشائر؛ فوافق على ذلك، وعاد إلى العمارة، وبعد أن أعدّ العدّة أبرق إلى السيّد علي التبريزي والسيّد مصطفى الكاشاني وشيخ الشريعة وطلب منهم التوجّه إلى العمارة مع أصحابهم المجاهدين[٢]، فتمّ تشييعهم من بغداد في عصر ٢١ محرّم ١٣٣٣هـ، وجرت بهم الباخرة إلى العمارة ومنها إلى العزير فالقرنة[٣]. وكان ذلك بعد عشرة أيامٍ من قدومه العمارة.

وصول السيّد (قدس سره) إلى القرنة

قبل وصوله إلى القرنة بعث السيّد عبد الرزاق الحلو (قدس سره) أخاه السيّد عبد المحسن الحلو، وابن عمه السيّد محمد رضا الحلو، وعليهما كان اعتماده حيث قدّمهما بين يديه لاستنهاض أتباعه ومريديه من أهالي الجزائر، وعند وصوله (قدس سره) إلى ناحية (المْدَيْنة) وجد الإنجليز قد احتلّوها، ورفعوا عليها علمهم، وكان نزوله في ديوان ابن أخيه السيّد (عبود السيّد حسن الحلو)[٤]؛ فاجتمع هناك بأخوته وأبناء عمومته من السادة (آل الحلو) ومنهم السيّد عبد المحسن، والسيّد محمد رضا، والسيّد عبود السيّد حسن والسيّد حبيب، والسيّد شريف، والسيّد عمران السيّد محسن وأخوته السيّد سلمان والسيّد حسن والسيّد علي (يرحمهم الله)، وكان يرافقه ولداه السيّد عبد علي والسيّد ميرعلي، وترك ولده الأصغر السيّد حيدر في النجف لصغر سنّه، وهناك سُئل (قُدّس سرُّه): (أين حيدر)؟ فقال: «تركته عند جدّه حيدر»، فكانت أهزوجة المجاهدين يومذاك (حيدر عد حيدر خليته)[٥]. ثم استقبلته هناك جموع العشائر بحماسٍ شديد، وعلى رأسهم الشيخ حسك آل

---

١. كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص ١٨٠.

٢. ينظر: حسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة، ج٢، ص ٣٣٤

٣. للتوسّع تُنظر مذكرات الشبيبي والنجف الأشرف وحركة الجهاد.

٤. هو: السيّد عبود بن السيّد حسن بن السيّد علي بن السيّد حسن بن السيّد سلمان بن السيّد سعد بن السيّد فرج الله الحلو الجزائري، وديوانه في (المدينة) ما يزال قائمًا إلى الآن، يديره أحفاده، وهو ديوانٌ حافلٌ بذكريات الجهاد، منذ دخول الإنجليز سنة م١٩١٤ إلى سنة ١٩٩١م، حيث كان مجاهدو انتفاضة ١٩٩١م، من آل الحلو وغيرهم يجتمعون فيه آنذاك، حتى إنّه تعرّض لهجوم النظام العفلقي؛ فتم ضربه بخمسة صواريخ دبابة حربيّة، وقد زرته أكثر من مرة، وآثار ذلك الهجوم موجودةٌ إلى الآن كشاهدٍ حيّ على جرائم البعث المقبور. تُنظر الملاحق (ديوان السيّد عبود السيّد حسن الحلو).

٥. ممّا تناقلته الأسرة.

مبارك، وبعد أن وعظهم وأعلمهم بوجوب الجهاد أمر بعلم الإنجليز فأنزل وكسّر، ورفع مكانه علم المسلمين[١]، ثم انحاز من الناحية المذكورة إلى قرية (العـردة)، وسط الهور شمال القرنة، واتّخذها مقرًّا له [٢]، وتبعه جمعٌ كبيرٌ من أهالي الجزائر، وأمرائهم يقدمهم الأمير (حسك آل مبارك) وجميع أهل بيته وأقربائه.

قال المرحوم عامر حسك الإمارة: وجاء إلى منطقة (المدينة) العـالـم المجتهد السيّد عبد الرزاق الحلو؛ فاستجاب إلى دعوته عددٌ غير قليلٍ من العشائر ومن عشيرة الإمارة على الأخص، وعلى رأسهم والدي الشيخ حسك المبارك، وقد اتّخذت قرية (العـردة) شمال القرنة مقرًّا للسيّد عبد الرزاق الحلو، فاضطررنا ــ الأطفال والنساء ــ أن ننتقل إلى أصلان؛ لنكون بعيدين عـن مـدى مدفعيّة البواخر الإنجليزيّة، واستجابةً لدعوة الجهاد أيضًا فقد تجمعت جميع عشائر العمارة وتحشّدت غرب نهر دجلة إلى اليسار مـن خطوط الأتراك الدفاعيّة، كما أنّه قـد جـاءت عشائر الكوت، وفي مقدّمتهم عشيرة ربيعة برئاسة الشيخ محمد الحبيب الأمير[٣].

وأوّل عملٍ قام به السيّد (قُدّس سرُّه) هو تنظيم صفوف المجاهدين من عشائر الجزائر، من خلال التنسيق مع الجيش النظامي الموجود في القرنة.

قال القصاب: وعند وصول السيّد عبد الرزاق الحلو إلى القرنة كانت البصرة على وشك السقوط فأخذ يجمع المجاهدين من أفراد عشائر الجزائر (المدينة) المقلّدين له في أنحاء القرنة ويقدّمهم إلى القائد للمدافعة[٤].

مواجهة القوات البريطانيّة

بدأ السيّد (قدس سره) وأتباعه يغيرون ليلاً على خطوط دفاعات الإنجليز في القرنة، ويزعجونها بإطلاق النار على معسكراتها وخنادقها، وقد أكّد ذلك الفريق الإنجليزي طاوزند بقوله: «وأمّا العرب القاطنون في البطائح فأخذوا يضايقون جنودنا في القرنة بإطلاق النار عليهم» [٥].

---

١. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام، ص٥٧٧.

٢. عامر حسك الإمارة، على الدرب، ص ٣٩.

٣. المصدر السابق، ص٣٨.

٤. عبد العزيز القصّاب، من ذكرياتي، ص١٠٨.

٥. يُنظر: حامد أحمد الورد، مذكّرات الفريق طاوزند، ص٦.

لذا عمد الإنجليز إلى أن يضربوا العشائر؛ فسيّروا مركبًا مسلّحًا في نهر (الهوير)[١]، باتجاه العردة - مقرّ السيّد عبد الرزاق الحلو- قال عامر حسك الإمارة: «ولما كان أول هدف لتقدم هذا المركب هو قرية (العـردة) التي هي مقرّ العـالـم المجتهد السيّد عبد الرزاق الحلو وحيث إنّ جماعتنا [عشيرة الإمارة] يعتبرون جنوده المخلصين والمدافعين عنه؛ فقد تصدّوا لهذا المركب، ودخلوا وأيّاه في معركةٍ ضاريةٍ مستفيدين من كثافة البردي وتحديد الرؤية؛ فاضطر المركب إلى الانسحاب حتى وصل قرية الهويرِ على ضفة نهر الفرات، حيث تدخّلت السفن الحربيّة المتواجدة في نهر الفرات بإطلاق مدافعها البعيدة المدى؛ لتخليص المركب المنسحب من تضييق العشائر، وقتل في هذه المعركة رجلان من رجالنا، وهما: سالم بن حميدي الطلال ولجلاج من المير عثمان، وجُرح عددٌ غير قليل، وكان أخطرهم جرحًا عبد الكريم الحميدي المنصور، كما أنّ طرّادة والدي (مشحوفه) ضُربت بقنبلة مدفعٍ من العيار الصغير»[٢].

وقال الأستاذ محمد علي التميمي واصفًا تلك الحادثة: «ولما استفحل أمره [السيّد عبد الرزاق الحلو]، ورأى الإنجليز أنّ وجوده في هـذا المكان خطرٌ عظيمٌ عليهم هاجموه في مركزه على حين غفلةٍ، على ظهر باخرةٍ حربيّةٍ مسلّحة؛ فلم يشعر السيّد وأتباعه إلّا وباخرة الانجليز قد قاربتهم فثارت فيه النخوة الهاشميّة والحميّة الدينيّة، وحرّض أتباعه على مواجهتها والهجوم عليها قبل أن تصل فيكون ما لا تحمد عقباه، وأراد أن يتقدّمهم بنفسه؛ فقام إليه الأمير (حسك آل مبارك) رئيس الإمارة، ونهاه عن الركوب بنفسه، وقال له: (سوف نكفي شرها بإذن الله). ثم شمّر الأمير عن ساعديه، واستنهض عشيرته وأتباعه، وركبوا الزوارق النهرية واستقبلوا الباخرة الانجليزية بحماسهم الديني ونخوتهم العربيّة، فكان لهم في ذلك اليوم عملٌ مشكورٌ سجّله لهم التاريخ بفخرٍ وإعجابٍ، فقد ضيّقوا عليها الخناق، وقطعوا عليها خطّ الرجعة، وكانوا يلقون أنفسهم في أحضان الموت، ولم ترهبهم مدافع الإنجليز الثقيلة، ولا رشاشاته المزعجة، فكادت الباخرة أن تستسلم لهم لولا أن تخف لنجدتها بارجةٌ حربيةٌ كبيرةٌ مسلّحةٌ يطلقون عليها في ذلك الوقت اسم (أبو سلة)، فاستنقذتها من أيديهم بعد اللُتيّا والتي، فرجعوا وقد أسكرتهم نشوة النصر، ولم يبالوا بمن استشهد منهم في ذلك اليوم، فقد قتل منهم شباب هم زهرة الوقت ومثال الشجاعة والشهامة، فاستقبلهم السيّد (قدس سره) مهنئًا لهم بالظفر، معجبًا بشجاعتهم وحميتهم الدينية، مبينًا لهم ما ادّخره الله لهم من

١. الهوير: قرية تقع في منتصف المسافة تقريبًا بين القرنة والمُدَيْنة.

٢. عامر حسك الإمارة، على الدرب، ص٣٩-٤٠.

الثواب الجزيل والأجر العظيم»[١].

وقد وصف الشيخ الشبيبي تلك الحوادث بقوله:

«وقعت في محرم سنة ١٣٣٣هـ عدّة حروبٍ في القرنة، بعضها هائلة جدًا»[٢]. وشهد السيّد (قدس سره) معظم تلك الحروب.

وضع خطّةٍ للهجوم

قرّر الأتراك أن يهاجموا مواقع الإنجليز في القرنة، وكانت خطّة الهجوم هي أن تتقدّم القوات التركيّة على ضفّتي نهر دجلة، وتقسم المنطقة بين دجلة والفرات على العشائر المتواجدة هناك، وحدّدت ساعة الهجوم ببزوغ الفجر، وكان موقع أتباع السيّد عبد الرزاق الحلو محصنًا حيث إنّهم حفروًا خنادقًا، إضافةً إلى وجود بساتين النخيل الكثيفة، وتقدّمت العشائر كلٌّ حسب موقعه، وهم ينتظرون ساعة الهجوم حتى الصباح إلّا أنّ القوات التركيّة لم تتقدّم، وتخاذلت عن الهجوم، وما أن بزغت الشمس إلّا ومواقع الرصد الإنجليزيّة قد شاهدت التجمعات العشائريّة التي تحيط بهم، وهي بالعراء وغير متسترة؛ فصبّت عليهم نار مدفعيّة بواخرها الحربيّة، وما كان من العشائر إلّا أن تنسحب تاركةً قتلاها وجرحاها. أمّا أتباع السيّد (قدس سره) فقد ساعدتهم الخنادق التي تحصّنوا بها وكثافة النخيل، ممّا يسّر لهم الانسحاب دون التعرّض لخسائر ماديّةٍ أو معنويّة[٣].

رهينتان مقابل مدفع

قال المرحوم عامر حسك: لمنع تكرار دخول الزوارق الحربيّة الإنجليزيّة من نهر الهوير وضربها لجناح القوات التركيّة الأيمن والحشود العشائريّة المتواجدة في هذا الجناح، التي أصبحت ذات تأثيرٍ ومصدر قلقٍ للقوات الإنجليزيّة في القرنة؛ لذا طلب والدي [الشيخ حسك الإمارة] مدفعًا لوضعه في القناصية[٤] ليستطيع منع البواخر الإنجليزيّة التي تتسلل من نهر الهوير، وافق الأتراك على ذلك على أن يكون لديهم شابّان رهينتان من أبنائه أو أقربائه للحفاظ على المدفع المذكور، وبالفعل أعطاهم الشابّين، وهما غانم الوادي وخليفة الجبير.

---

١. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام، ص٥٧٧.

٢. كامل سلمان الجبوري، مذكرات الشبيبي، ص٥١.

٣. يُنظر: عامر حسك الإمارة، على الدرب، ص٤١-٤٢؛ عشيرة الإمارة وعشائر قضاء المدينة، ص١٦٨.

٤. القناصية: إحدى قرى الأهوار، إلى الشمال الغربي لمدينة القرنة. م: عبد الزهرة الإمارة، عشيرة الإمارة، ص١٦٩.

سقوط القرنة والنزوح إلى أهوار العمارة

في ٣١ آيـار ١٩١٥م، هجـم الإنجليز عـلى معسكر الأتراك الهجوم الحاسم، حيث تحرّكت الزوارق والمراكب نحوه، وأخذت تصبّ عليه النيران بشكلٍ غير مسبوق، وحلّقت في سماء المعركة ثلاث طائراتٍ جاءت مـن البصرة، وفي صباح اليوم التالي أخذ الأتراك ينسحبون مـن مواقعهم[١]. وأعقب ذلك انسحاب السيّد عبد الرزاق الحلو وأتباعه من القرنة باتجاه أهوار العمارة؛ لأنّ بقاءهم في المنطقة أصبح يشكّل خطرًا عليهم.

قال المرحوم عامر حسك الإمارة: «أصبح بقاؤنا في أصلان غير مجدٍ؛ لأنّنا معرّضون لهجوم القوات الإنجليزيّة في كلّ لحظة، لاسيّما وأنّنا نُعدّ من أشدّ أعوان الـعـالـم السيّد عبد الرزاق الحلو وحراسه، وهو لا يزال بيننا ويدعو إلى الجهاد ومواصلته أيضًا، فاضطررنا أن نرحل وننزل في منطقة (الجفـر) على حافة هضبة سيّد أحمد الرفاعي الشرقيّة، إلى تحت نفوذ الشيخ شواي الفهد[٢] رئيس عشائر الأزيرج في لواء العمارة؛ وذلك لبعدها عن متناول القوات الإنجليزيّة، وللتمكّن مـن الاتصال بالقوات التركيّة التي أعادت تنظيم خطوط دفاعاتها في منطقة كوت الإمارة. وبعد أن استقرّ بنا المقام في (الجفر) ذهب والدي بصحبة العالم المجتهد السيّد عبد الرزاق الحلو إلى الكوت للاتصال بالأتراك»[٣].

السيّد (قُدّس سرُّه) في جبهة الكوت

بعد سقوط البصرة والعمارة ورجوع بعض المجاهدين من العلماء والعشائر إلى أوطانهم قرّر السيّد عبد الرزاق الحلو (قدس سره) الالتحاق بجبهة الكوت، واتّصل هناك بالسيّد مهدي الحيدري والشيخ مهدي الخالصي، وتم استقباله استقبالاً رسميًّا من قبل القائد العام للأتراك (نور الدين باشا).

قال التميمي: «جمع السيّد (قدس سره) أهـل بيته وأتباعه وأخبرهم بأنّه قد وطّد العزم على مواصلة الجهاد والالتحاق بمعسكر العثمانيين في كوت الإمارة، فمن أحبّ الرّواح معه فإنّ أجره على الله تعالى، ومن أحبّ الالتحاق بأهله فهو في حلٍّ منه؛ فرجع بعض مـن كـان معه من أهالي (المْدَيْنة) وغيرهم، أمّا الأمير المجاهد (حسك آل مبارك) فقد وطّد العزم هو وأتباعه على المسير

---

١. يُنظر: علي الوردي، لمحات اجتماعيّة، ج٤، ص ١٩٠.

٢. شواي الفهد (١٨٦٠-١٩٤٣) ولد في المجر الصغير في العمارة، وتولّى زعامة عشيرته (آل ازيرج) بعد وفاة والده فهد بن مدحور، شارك مع عشيرته في مواجهة الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٤ تلبيةً لنداء الجهاد.

٣. عامر حسك الإمارة، على الدرب، ص٤٤-٤٥.

مع السيّد ومواصلة الجهاد معه إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ثم سار السيّد (قدس سره) ومن معه إلى أن وصلوا إلى الكوت فاستُقبلوا استقبالاً رسميًّا بأمر قائد الأتراك العام نور الدين باشا»[١].

ورابط السيّد (قدس سره) في الكوت مدّة أربعة أشهر، وكان معه من العلماء السيّد مهدي الحيدري والشيخ مهدي الخالصي. قال حسن الأمين: «وأمّا السيّد مهدي فقد لبث في الكوت مرابطًا مدّة أربعة أشهرٍ كاملة، مع أولاده، وجمع من العلماء والمجاهدين. وقد أصابه هناك مرضٌ شديد. ورابط في الكوت معه أيضًا من العلماء الشيخ مهدي الخالصي والسيّد عبد الرزاق الحلو، وكان مركز الجيش العثماني الذي جمعه القائد العام (نور الدين بك) في شرق الكوت في منطقتي (الفلاحيّة)، و(السنّ) وهما استحكامات طبيعيّة في طرفي دجلة. وكان العدو قد أعدّ العدّة للهجوم على هذه القوة العسكريّة الكبيرة، وفي أوائل [ذي القعدة] [٢]، هجم بقوّةٍ هائلةٍ على مراكز الجيش العثماني، فاضطرّه إلى الانسحاب ليلاً من الكوت بعد مقاومةٍ عنيفة. فأرسل السيّد مهدي إلى الشيخ الخالصي والسيّد الحلو، وأشار عليهما بلزوم الانسحاب قبل مداهمة العدو، وأن يكون الخروج عن طريق البر في نفس الليلة التي يخرج فيها الجيش. وبدأوا فعلاً بالانسحاب في الساعة السابعة غروبيّة من الليل، وعبروا إلى الجانب الآخر حتى لا يدركهم العدو، وفي تلك الليلة أصاب السيّد مهدي رمدٌ شديدٌ في عينه، فاضطرّ إلى البقاء ليلتين عند قبيلة ربيعة، وفي اليوم الثاني مرّت عليهم بواخر العدو قاصدةً مدينة (النعمانيّة)، وهي تبعد عن الكوت بمقدار ستة فراسخ تقريبًا، فاضطرّ السيّد مهدي وأصحابه إلى السفر عن طريق (عفك والدغارة)، وقد أحضرت له ولأصحابه الخيول، وهنالك كان لا بدّ من أن يقطع - على شيخوخته وضعفه ومرضه - جزيرة عفك الطويلة راكبًا على فرس وهو مشدود العينين[٣].

رجوعه (قُدّس سرُّه) إلى النجف الأشرف

وفي عصر يوم ٢٧ ذي القعدة ١٣٣٣هـ، وصل السيّد عبد الرزاق الحلو (قُدّس سرُّه) إلى النجف الأشرف، فاستقبله العلماء والأعيان.

قال الشيخ الشبيبي: «عصر يوم ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٣٣هـ، وصل إلى النجف السيّد عبد الرزاق الحلو من مشايخ معسكر الكوت، وقد تخلّص هو وجماعة من أمثاله إلى (عفك)

١. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام، ص٥٧٧.

٢. في الأصل (ذي الحجّة) وهو غير صحيح؛ لأنّه سيأتي أنّ السيّد وصل إلى النجف عصر يوم ٢٧ ذي القعدة.

٣. حسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة، ج٢، ٣٣٦.

منهم: السيّد مهدي السيّد حيدر الكاظمي، عـاد إلى الكاظميّة، والشيخ مهدي الخالصي، تأخّر في الدغارة، وكان السيّد عبد الرزاق الحلو ممّـن بكّر في الخروج إلى الدفاع، وذلك في محرم سنة١٣٣٣هـ؛ فمرّ مـن الفرات إلى البطائح فأجابه جماعة، وأقام مـدّةً في جملة المدافعين حول القرنة إلى أن ظهر عليهم الإنجليز؛ فتأدّى بعد حينٍ إلى الكوت وأقام فيه إلى أن استولي عليه[١].

ودامت رحلته الجهاديّة أحد عشر شهرًا بتمامها [٢]، وكـان يـوم دخوله إلى النجف مشهودًا، استقبله العلماء والأشراف ووجوه النجفيين، ولما دخل الصحن الشريف قصد حرم جدّه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأدّى مراسيم الزيارة، ثم خرج وقصد مقبرة المجاهد آية الله السيّد محمّد سعيد الحبّوبي (قدس سره)، وتلا على روحه الفاتحة، وابنه بكلماتٍ رقيقةٍ، ثم تلا ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾[٣]. [٤]

نهضة العلماء الثانية

عند وصوله إلى النجف الأشرف لم يتوقّف (قُدّس سرُّه) عـن الجهـاد، بل كانت لـه مشاركةٌ أيضًا في نهضة العلماء الثانية (معركة سلمان باك)، التي انتهت بدحـر القـوات البريطانيّة وإرجاعها إلى وسط الفرات؛ فبعد شهرٍ وبضعة أيامٍ من وصوله إلى النجف أذيعت حركة العلماء والطلاب؛ فكان (قُدّس سرُّه) في طليعة العلماء الذين خرجوا حاملين العلم الحيدري متوجّهين إلى أرض المعركة.

قال الشبيبي في مذكراته[٥]: «في يوم الجمعة ١١ محرم سنة١٣٣٤هـ، أذيعت في النجف حركة العلماء والطلّاب ومن معهم مـن النجفيين، وقد انسلَّ الناس مـن الساعة السابعة إلى المشهد العلوي، وجلس المتصرّف محمد حمزة بك والمستخدمون في الصفة، ثم توارد عليه العلماء والأعيان وأبناء المجتهدين والطلّاب، ثم جاءت جموع أحياء البلد الأربعة [الحويش والعمارة والبراق والمشراق] شَاكِي السلاحِ ناثِرِي الألويّة، ومرّوا يهزجون وينشدون الأناشيد مدّةً، ثم تقدّم

١. الأحزاب (٢٣)

٢. خروجه من النجف يوم ٢٧ذي الحجّة سنة ١٣٣٢هـ، ورجوعه ووصوله إليها يوم ٢٧ذي القعدة سنة ١٣٣٣هـ.

٣. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام، ص٥٧٨.

٤. كامل سلمان الجبوري، مذكرات الشبيبي، ص ١٠١.

٥. ومن الذين ذكروا مشاركة السيّد عبد الرزاق الحلو في نهضة العلماء الثانية: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في (مذكرات الجهاد)، والشيخ هادي كاشف الغطاء في مذكراته، ونشر الخبر أيضًا في جريدة (صدى الأسلام) العدد (١٠٧) الصادر في ٢٠ محرم ١٣٣٤هـ وفي أعدادها : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤، ١١٥، ١٢٠ ، ١٢٧، على سلسلةٍ بعنوان (صرخة في النجف الأشرف)، أو (نهضة حجج الأسلام) فراجع.

العلماء والطلّاب بسكينةٍ ووقارٍ إلى داخل المشهد حيث الضريح المقدّس ومعهم المستخدمون، فكان اللواء العلوي الخاصّ منشورًا على الضريح، وقد تناوله أحد السدنة العلويين، وقد تناوله خازن المشهد (السيّد محمد حسن) [الرفيعي]، وحفّ بـه العلمـاء وأبناء المجتهدين في شكل دائرةٍ تقريبًا ممّا يلي الرأس، وفي جانبي اللواء قام السيّد عبّاس نجل خازن المشهد، والسيّد داود نائب الخازن يحملان مصحفين غشيا بالقصب... ثم مرّوا بالعلم يحمله الخازن حافةً به السدنة، من السوق الكبير إلى الخارج بين تهليل المهللين وأناشيد النجفيين، ودوي الرصاص وصفيره في الفضاء، وقد أعدت شركة الخطّ الحديدي للقوم عدّة مركّبات فركبوا إلى الكوفة، وهم من العلماء:

١. السيّد علي التبريزي

٢. شيخ الشريعة الأصفهاني

٣. السيّد مصطفى الكاشاني

٤. الشيخ الباقر القمّي

٥. الشيخ محمّد حسين القمشي

٦. السيّد عبد الرزاق الحلو

ومن الأعلام وأولاد المجتهدين: الشيخ جواد آل صاحب الجواهر، والسيّد محمد علي الطباطبائي، والميرزا مهدي نجل الآخوند الخراساني، والشيخ إسحاق نجل الميرزا حبيب الله الجيلاني، ... وقد باتوا ليلة السبت في الكوفة»[١].

قال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: «وكان بياتنا ليلة السبت وليلة الأحد في شريعة الكوفة، وقبل الظهر ركبنا في بنات الماء [٢]، وكان مبيتنا ليلة الاثنين قبالة ذي الكفل عند الخان المعروف بخان السيّد نور [السيّد عزيز الياسري]، ومع طلوع الشمس توجّهنا مغرّبين حتى أتينا قبل أن تجب إلى (طويريج)، وأقمنا فيه ليلة الثلاثاء وليلة الأربعاء... دخلنا المسيب بعد الظهر بساعة من نهار الخميس ١٧محرم، بهيئةٍ حسنة، والعدّة المسلّحة مـن أهـالي النجف خلفنا يلهجون بأناشيدهم الحماسيّة، واستقبلنا أهالي المسيب وأعيانها وحكومتها بمثل ذلك... وصباح الثلاثاء [٢٢محرم] ركبنا العجلات متوجّهين إلى بغداد، فوصلنا وشـيك الزوال... ثـم طـال المكث والمقام بنـا في

١. كامل سلمان الجبوري، مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي، ص١٢٤-١٢٥.

٢. بنات الماء: المراكب النهرية.

الكاظميّة، ولـم يـبـق إلاّ وجـوه العلمـاء وأعيـان الأفاضل، وكانت الجمعيّة تنيف على المائتين فما مضت عليها الأيام إلاّ ولم يبقَ منها سوى الثلاثين»[١].

أقول وكانت للسيّد عبد الرزّاق الحلو (قدس سره) ومـن معـه مـن العلمـاء مراسلاتٌ مـع القائـد (نـور الـدين بـك) حـول تحضيرات المعركة، وتنظيم صفوف المجاهدين، وإليك إحدى تلك الرسائل: [٢]

«إلى الأفاضل الكرام والمجتهدين الفخام حضرات:

شيخ الشريعة الأصفهاني، والسيّد مصطفى الكاشاني، والسيّد عبد الرزاق الحلو، وهبة الدين الشهرستاني

أخذنا كتابكم الشريف المؤرّخ في ١١ صفر ١٣٣٤، وفهمنا فحواه، ونحن نشكر خدماتكم الدينيّة والوطنيّة بلسان الحمد والشكران، وعرفنا انتظار المجاهدين إلى حضرة والي بغداد وقائد فيلق العراق نور الدين بك، ومنتظرين الجواب حينما ..... أمره في هذا الباب، وسارعوا إلى تبليغه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

باسم والي بغداد

معاون

١١صفر ١٣٣٤»[٣]

وفي منتصف ربيع الأول تم فصل (نور الدين)، وعيّن مكانه (خليل بك) قائدًا للجيوش العراقيّة، وبعد أن تمكّن في مقرّه من ساحة الحرب، أصدر إشعاره إلى ولاية بغداد أن يتوجّه العلم الحيدري والعلماء إلى موضع المعسكر[٤].

يقول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: «وبعد موادعة الإمامين (عليهما السلام) ظهرًا جلسنا

١. كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص ٣٧١-٣٧٧، تحت عنوان (رحلة الجهاد).

٢. ينظر ملاحق الكتاب.

٣. محمد باقر البهادلي، السيّد هبة الدين الحسيني، آثاره الفكريّة ومواقفه السياسيّة، ص٢٣٤.

٤. كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف وحركة الجهاد، ص٣٧٧.

في الصحن الشريف حتى تكتمل الهيئة، ثم أخرج العلم الشريف الحيدري من الحرم الكاظمي (سلام الله عليه)، فتقدّم يحمله السيّد النجيب السيّد علي خلف المرحوم العلاّمة السعيد الشهيد السيّد محمد سعيد الحبّوبي... وكان أعيان الهيئة إذ ذاك السيّد محمد نجل السيّد محمد كاظم اليزدي، وكلاًّ من الأفاضل الأعلام وثقاة الإسلام:

١. الشيخ محمد رضا نجل حجّة الإسلام الشيخ محمد تقي الحائري

٢. السيّد عبد الرزاق الحلو

٣. الشيخ جواد الجواهري

٤. الشيخ مهدي الملا كاظم الخراساني

٥. الشيخ عبد الكريم الجزائري

٦. السيّد أبو القاسم الكاشاني

٧. الشيخ إسحاق الرشتي

٨. السيّد محمد علي هبة الدين الشهرستاني

٩. الشيخ جعفر الكاظمي

١٠. الشيخ عبد الحسين مطر

١١. الشيخ جواد

١٢. الشيخ عباس الجمالي

١٣. الشيخ محمود الهندي

وبعد ذلك جهّز لهم باخرة تسمّى (البرهانيّة) متجّهين إلى جبهة الكوت، يقول السيّد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته: «وساعة ورود باخرتنا إلى حدود المعسكر الإسلامي استقبلنا عموم المعسكر، ثم زارنا القائد العام خليل بك مرحبًا بالوفد مستبشرًا بقدومهم، وأبدى تشكره من العلماء كافة[1]... وتحقّق عندنا أنّ العدو المحصور في الكوت يبلغ عدده ستة آلاف تقريبًا، وخمسين مدفعًا، وأنّ عسكرنا المحيط بالكوت إحاطة بياض العين بسوادها إنّما هو نحو ستة عشر ألفًا،

١. في الأصل: (من كافّة العلماء).

ومعه نحو أربعين مدفعًا... واستطاع الجيش العثماني والمجاهدون استرداد (كوت الإمارة)، وبقيت بحوزة الجيش العثماني مدّة سبعة شهور، ولكن - في هذه الفترة - الجيش البريطاني استطاع أن يهيّأ استعداداته واستحضاراته للقيام بهجومٍ فاصلٍ في العراق» [١].

أقول: وكان السيّد عبد الرزاق الحلو مواصلاً للجهاد المقدّس إلى سقوط بغداد في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ؛ فرجع مع مـن رجـع مـن المجاهدين إلى النجف الأشرف.

وفاته

بعد أن ألقى عصا الترحال في النجف الأشرف انصرف (قُدّس سرُّه) نحو التدريس والتأليف إلى أن أجاب داعي ربّه في الرابع من جمادى الأولى عام ١٣٣٧هـ [٢].

وكان يوم وفاته عظيمًا عُطّلت فيه الأسواق، وهُرع الناس على اختلاف طبقاتهم، فحملوا جثمانه الطاهر على الرؤوس، وكان للإنجليز يومذاك جيشٌ مرابطٌ في النجف على أثر حصار النجف المعروف، فلمّا رأى الحاكم الانجليزي خروج الناس وتجمّعهم خارج المدينة القديمة، ورأى الأعلام مرفوعةً اضطرب اضطرابًا شديدًا، ولمّا علم بواقع الحال أمر الجنود أن يقفوا سماطين من مدخل السوق الكبير إلى باب الصحن الشريف يؤدّون التحيّة للجثمان حينما يمرّ عليهم، وحينما مرَّ الجثمان على مركز الحكومة (السراي) أنزل له العلم، ووصل الجثمان إلى الصحن الشريف بين التهليل والتكبير والبكاء والعويل وضرب الصدور، ووضع وسط الصحن الحيدري، وتقدّم المرحوم آية الله العظمى السيّد محمد كاظم اليزدي (قدس سره) فصلّى عليه [٣]، ثم حمل ودفن مع المرحوم والده السيّد علي الحلو (قدس سره) في الحجرة المنسوبة إلى الأسرة في الصحن الشريف (حجرة رقم ٦)[٤].

ورثاه كثيرٌ من الشعراء، وممّن رثاه المرحوم الشيخ كاظم السوداني بقصيدةٍ يقول فيها:

---

١. محمد باقر البهادلي، هبة الدين الشهرستاني آثاره الفكريّة ومواقفه السياسيّة، ص١٢٨-١٢٩، نقلاً عن مذكرات السيّد هبة الدين.

٢. قال السيّد محمد صادق بحر العلوم في (وفيات الأعلام):

«توفيّ السيّد عبد الرزّاق بن السيّد علي الحلو النجفي الموسوي يوم السبت (٤) جمادى الأولى سنة ١٣٣٧هجرية، ودُفن في إحدى الحجر القبليّة من الصحن [العلوي] «. المصدر: ج١، ص٥٩٨.

٣. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام، ص٥٧٨.

٤. كاظم عبّود الفتلاوي، مشاهير المدفونين، ص١٩٢.

أَصَـاتَ بِسَـمْعِ الدَّهْـرِ يَهْتِـفُ نَاعِيَـهُ
نَعْـيٌ بِعَظِيـمِ الـرَّزْءِ أَرْجَـفَ دَاعِيَـهُ

تَخَـالُ وَقَدْ ضَجَّـتْ كَأَنَّ الْقِيَامَـةَ فَاجَأَتْ
نَاهِيـكَ رَزْءٌ أَنَّهَـا قَرَنَـتْ فِيـهِ

بَكَتْـهُ السَّـمَا حِـينَ انْـبرَى جِبْرِئِيلُهَـا
بِقَاطِبَـةِ الْأَمْـلَاكِ بِالْحُـزْنِ يَبْكِيـهِ

عـلَى الْعَـرْشِ لَا فِي النَّعْـشِ جُثْمَانُـهُ
مِثَـالٌ بِوَصْفِ الْحَـالِ فِي الْعَرْشِ يَحْكِيهِ

مَـضَى ذَاهِبًـا لَكِـنْ بَقِـينَ مَسَـاعِيهِ
وَرُبَّ امْـرِئٍ يَفْنَـى وَتَبْقَـى مَسَـاعِيهِ

قَـدِ اتَّصَلَـتْ فِي كُلِّ قُطْـرٍ نَوَاعِيـهِ
فَـوْقَ السَّـمَا وَالْأَرْضِ تَبْـكِي بَوَاكِيـهِ

إِلَى أَيْـنَ يَـأْوِي طَالِـبُ الْعِلْـمِ وَالْهُـدَى
وَمِـنْ بَعْـدِهِ الْمُرْتَـادُ لِلْجُـودِ يُقْرِيـهِ[1]

ثم يعزي الشاعر الأسرة بمصابهم ويمدح ابن عم الفقيد السيّد محمد رضا الحلو، ويعزّيه في المصاب بقوله:

مَكانَـكَ خَـلِّ العِيـسَ يـا طالِـبُ
ويَأسًـا فَـإِنَّ الجـودَ طَـوَّحَ وادِيـهِ

إذا الدَّهْـرُ قـدْ وَافـاكَ بِالعُـسْرِ ساخِطًا
* فَـإِنَّ الرِّضـا يُرضيـكَ يُـسرًا ويُرضيـهِ

أُعَـزّي فيـهِ ماجِـدًا جَـدَّ لِلتُّقَـى
وأولى بِهَـذَا الـرَّزْءِ إِنِّي أُعَزِّيـهِ

١. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام ص٥٧٨.

رَبـا ناشِـئًا في العِلْـمِ مُجْتَهِـدًا بِـهِ
وفي بَحْـرِهِ عَوْمًـا يَعـومُ فَيَنْسـيهِ [١]

وقال في قصيدةٍ أخرى مؤرّخًا لوفاة السيّد (قدس سره):

رَبُّ العُلـــــومِ وَالعُلَـــــى وَهْـــوَ إمَـــامُ سَـــعْيِهِ
يُصِيـبُ لِلْغَيْـبِ نَبَـــأً بِحَدْسِـــهِ وَرَأْيِـــهِ
مَـــا سَـــاءَنِي إلَّا الَّـــذِي مُصَـــوَّتٌ بِنَعْيِـــهِ
فَمَـــنْ سِـوَاهُ مُنْقِـــذٌ أَخَـــا الغَـوِيِّ مِـــنْ غَيِّـــهِ
بِـــهِ الهُـــدَى مُـؤَرَّخٌ قَـــدْ غَـــابَ بَـــدْرُ هُدِيـــهِ [٢]

وأرّخ لوفاته الشيخ فرج العمران القطيفي بقوله:

نَعَـــى لِلْهُـــدَى رُوحَ جِسْمَانِـــهِ نَعِيـــًا شَـــجَانَا بِأَلْحَانِـــهِ
قَضَـــى عَبْـــدُ رِزْاقِهَـــا نَحْبَـــهِ وَرَاحَ لِـــرُوحٍ وِرَيْحَانِـــهِ
مَضَـــى السَّيِّدُ النَّـــدْب حُلْـــو إلَـــى حُـــورٍ وَلِوِلْدَانِـــهِ
دَعَـــاهُ الإِلَـــهُ فَلَبَّـــى نِـــدَاهُ وَطَـــارَ اشْتِـــيَاقًا لِلِقْيَانِـــهِ

١. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام ٥٧٩.
٢. فرج العمران القطيفي، الرحلة النجفية، ص٤٥.

تَلَقَّـــــــاهُ رَزَّاقُـــــــه بِالْحُبُـور
وَأَسْـــــــكَنَهُ دَارَ جِيرَانِـــــــهِ
وَحِيـــــنَ بِمَـوْلَاه أُرِّخَ لَجـــــا
جَـــــزَاهُ بـــــأَكْبَرِ رِضْـــــوَانِه[١]

١. المصدر السابق، ص ٥٣.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. أبو القاسم الخوئي معجم رجال الحديث، مؤسّسة الإمام الخوئي.
٣. أحمد الحسيني، الإمام الثائر مهدي الحيدري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.
٤. أحمد الحسيني، تلامذة العلاّمة المجلسي والمجازون منه، مكتبة السيّد شهاب الدين المرعشي، الطبعة الأولى، قم المقدسة.
٥. أحمد علي مجيد الحلي، مستدرك الذريعة، مركز تراث النجف الأشرف، ١٤٣٩هـ.
٦. آغا بزرك الطهراني الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة ، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م
٧. آغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٨. آغا بزرك الطهراني، مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال، دار العلوم بيروت ١٩٨٨م.
٩. آغا بزرك الطهراني، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
١٠. إنعام مهدي السلمان، حكم الشيخ خزعل في الأحواز، دار الكندي، بغداد.
١١. جاسم حلو الجزائري، السادة الموسويون، الطبعة الأولى، ٢٠١٩.
١٢. جعفر الأعرجي، مناهل الضرب في أنساب العرب، مكتبة آية الله العظمى السيّد شهاب الدين المرعشي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
١٣. جعفر الحلي، سحر بابل وسجع البلابل، مطبعة العرفان – صيدا ١٩١٣م.
١٤. جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدّسة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٥. جعفر باقر محبوبه، ماضي النجف وحاضرها، دار الأضواء بيروت، الطبعة الثاني ١٩٨٦م.
١٦. جعفر محبوبه، ماضي النجف وحاضرها، المخطوط.
١٧. حامد أحمد الورد، مذكرات الفريق طاوزند، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
١٨. حسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م
١٩. حسن الحكيم، المفصّل في تاريخ النجف الأشرف، المكتبة الحيدريّة – قم ١٤٢٧هـ.
٢٠. حسن الصدر، تكملة أمل الأمل، دار المؤرخ العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.
٢١. حسن العلوي، الشيعة والدولة القومية في العراق، نشر وتوزيع حامد أحمد بيروت
٢٢. حسن عبد الأمير الظالمي، العلاّمة السيّد عبد الرزّاق الحلو، سيرته وجهاده، دار الكفيل، ١٤٤٠هـ.
٢٣. حسين أبو سعيدة الموسوي، المُشجّر الوافي، مؤسّسة البلاغ بيروت، الطبعة الخامسة ٢٠١١
٢٤. حسين بن علي البحراني البلادي، رياض المدح والرثاء، انتشارات المكتبة الحيدريّة، الطبعة الرابعة، ١٣٨٤هـ.
٢٥. خالد الحلو، أعلام أسرة آل الحلو، مكتبة الأبرار، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٤٤١هـ.
٢٦. رضا الغريفي شجرة النبوة وثمرة الفتوة، (مخطوط)
٢٧. شهاب الدين المرعشي النجفي، الإجازة الكبيرة، مكتبة آية الله المرعشي، قم المقدّسة ١٤١٤هـ.

٢٨. صباح نوري المرزوق، التحف من تراجم علماء الكوفة والنجف، دار المتّقين بيروت، الطبعة الاولى ٢٠١٢م
٢٩. عامر الحلو، آل الحلو في العراق، دار المودة دمشق – سوريا، الطبعة الأولى ١٩٨٤.
٣٠. عامر حسك الأمارة، على الدرب، دار قناديل، الطبعة الاولى ٢٠١٩
٣١. عبّاس العزّاوي، العراق بين احتلالين، الدار العربيّة للموسوعات، بغداد، ٢٠٠٤م.
٣٢. عبّاس القمّي، الفوائد الرضويّة، إنتشارات بوستان، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.
٣٣. عبد العزيز القصّاب، من ذكرياتي، منشورات عويدان بيروت ١٩٦٢م
٣٤. عبد الله المامقاني، مخزن المعاني في ترجمة العلاّمة المامقاني، مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ
٣٥. عبد الرزّاق بن علي الحلو، الرسالة الرضاعيّة، مخطوط.
٣٦. عبد الرزّاق بن علي الحلو، جامع الأحكام في الحلال والحرام، مطبعة الكفيل، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ.
٣٧. عبد الرزاق بن علي الحلو، رسالة في تذكية السمك، مخطوط.
٣٨. عبد الرزاق بن علي الحلو، منية العاملين وبغية الراغبين، مطبعة حبل المتين، النجف الأشرف، ١٤٢٩هـ.
٣٩. عبد الرزاق كمّونة النجفي، عقود التمائم في أنساب بني هاشم (مخطوط).
٤٠. عبدالزهرة الإمارة، عشائر الإمارة وعشائر قضاء المدينة، دار الحكمة، كربلاء، ٢٠١٣م.
٤١. عبد الله الجزائري، الإجازة الكبيرة، مكتبة آية الله المرعشي، الطبعة الأولى.
٤٢. علي الخاقاني، شعراء الغري، مكتبة آية الله المرعشي – قم ١٣٠٨هـ
٤٣. علي الوردي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، دار الوراق للنشر، ٢٠٠٧م.
٤٤. علي خان المدني، التذكرة ، دار باقرالعلوم، قم المقدّسة، الطبعة الاولى ١٣٩٤هـ.
٤٥. علي كاشف الغطاء، الحصون المنيعة، مخطوط.
٤٦. فخر الدين الرازي، الشجرة المباركة في أنساب الطالبيّة، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ
٤٧. فرج العمران القطيفي، الرحلة النجفيّة، مؤسّسة الخط للتحقيق والنشر، الطبعة الأولى ١٤٣١
٤٨. كاظم عبّود الفتلاوي، مستدرك شعراء الغري، دار الاضواء بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م
٤٩. كاظم عبّود الفتلاوي، مشاهير المدفونين في الصحن العلوي الشريف، مكتبة الروضة الحيدريّة النجف الأشرف، الطبعة الثانية ٢٠١٠م
٥٠. كامل سلمان الجبوري، النجف الاشرف وحركة الجهاد، مؤسسة العارف للمطبوعات بيروت، الطبعة الاولى ٢٠٠٢م
٥١. كامل سلمان الجبوري، مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ورحلاته، دار الرافدين بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١م.
٥٢. كامل سلمان الجبوري، وثائق الثورة العراقيّة الكبرى، دار المؤرّخ العربي، بيروت ٢٠٠٩م

٥٣. محمد الغروي، مع علماء النجف الأشرف، دار الثقلين ، بيروت.
٥٤. محمد باقر البهادلي، السيّد هبة الدين الشهرستاني، آثاره الفكريّة ومواقفه السياسيّة، مطبعة الحسام، بغداد، ١٤٢٢هـ.
٥٥. محمد باقر الخونساري، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، منشورات اسماعيليان، قم المقدسة ١٣٩١ هـ
٥٦. محمد بن محمد بن النعمان المفيد البغدادي، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت الطبعة الأولى
٥٧. محمد بن يعقوب الرازي الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة طهران، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ
٥٨. محمد حرز الدين، معارف الرجال، مكتبة آية الله المرعشي قم ١٤٠٥هـ
٥٩. محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف، مؤسّسة البلاغ بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م
٦٠. محمد حسين كاشف الغطاء، عقود حياتي، مكتبة الإمام كاشف الغطاء العامّة، النجف الأشرف، ١٤٣٣هـ.
٦١. محمد رضا الغرّاوي، أصدق المقال في الدراية والرجال، مخطوط.
٦٢. محمد سعيد الحكيم، المرجعيّة الدينيّة وقضايا أخرى، دار الهلال، الطبعة الخامسة، النجف الأشرف، ١٤٣١هـ.
٦٣. محمد صادق بحر العلوم، وفيات الأعلام، مركز إحياء التراث، العتبة العبّاسيّة المقدّسة، كربلاء، ١٤٣٨هـ.
٦٤. محمد طاهر العمري، مقدرات العراق السياسيّة، المطبعة العصريّة، بغداد، ١٣٤٢هـ.
٦٥. محمد علي جعفر التميمي، مشهد الإمام أو مدينة النجف، انتشارات المكتبة الحيدريّة، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ.
٦٦. محمد مهدي الأصفهاني الكاظمي، أحسن الوديعة، مؤسّسة تراث الشيعة، ١٤٣٧هـ.
٦٧. محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب، مطبعة الآداب النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.
٦٨. مشتاق الحلو، سيرة المجاهد الأكبر، مخطوط (في مكتبة السيّد مشتاق الحلو)
٦٩. مشتاق صابر الحلو سيرة السيّد عبد الله بن موسى، مخطوط.
٧٠. مشتاق عيدان عبيد، المدينة جزائر البصرة، دار الكفيل للطباعة والنشر، ٢٠١٩
٧١. مشتاق عيدان عبيد، النشاط الديني في جزائر البصرة وأعلامه، دار الكفيل،١٤٤١هـ.
٧٢. نعمة الله الجزائري، كشف الأسرار في شرح الاستبصار، مؤسّسة علوم آل البيت، قم المقدسة، الطبعة الأولى عام ١٤٠٨هـ.
٧٣. نور الله التستري، مجالس المؤمنين، انتشارات المكتبة الحيدريّة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ.
٧٤. هناء نعمة الغالي، دائرة المعارف البَصْريّة، دار جيكور ٢٠١٦م.

ترجمات

يتناول هذا الباب ترجمة البحوث والدراسات المتعلقة بتحليل ونقد الاستعمار من سائر اللغات إلى اللغة العربية وبأقلام المفكرين من العالم الإسلامي وغير الاسلامي

التّصويرُ التّاريخيُّ المضِلُّ للإسلام والمسلمين: مُراجَعةٌ وَصْفيّةٌ لهوليوود

د. نورين عبيدة، د. نظر شبانة، مصطفى نيّار

التّصويرُ التّاريخيُّ المضِلُّ للإسلام والمسلمين: مُراجَعةٌ وَصْفيّةٌ لهوليوود

د. نورين عبيدة، د. نظر شبانة، مصطفى نيّار[1]

المُلخّص

تمثّل هذه الورقةُ البحثيّةُ محاولةً للكشف عن الجذور التّاريخيّة للصورة الذّهنيّة المشوَّهة التي تُقدّمها أفلام هوليوود عن العالم الإسلاميّ؛ إذ تقدّم أفلامُ هوليوود، على أمد العقود، صورةً نمطيّةً ثابتةً ومُشوِّهةً/مُهينةً للعرب المسلمين. من الضروريّ اكتشافُ الجذور التّاريخيّة التي أدّت إلى نشوء هذه الصورة الذّهنية المشوَّهة عن العالم الإسلامي في أفلام هوليوود.

اعتمد الباحثون منهجًا نوعيًّا من خلال مراجعةٍ وصفيّةٍ لـ[أفلام] هوليوود. بعد هذه المراجعة، تبيّن لنا أنّه على الرّغم من أنّ جميعَ الأعراق يمكن تصويرُها بشكلٍ سلبيٍّ في وقتٍ من الأوقات، إلاّ أنّ بعض الأعراق، وخصوصًا العرب، والعرب الأمريكيّين، هم ضحايا دائمون لهذا التّصوير المُهين. يُظهر التّاريخُ العديدَ من أسباب النّزاع، مثل الحروب الصليبيّة بين الإسلام والمسيحيّة، ودور الاستعمار، وسيناريو ما بعد الحرب العالميّة الثّانية، والليبراليّة الجديدة، وتحوُّل ركائز القوّة من أوروبا إلى أمريكا، في ما يتعلّق بالتصوير المشوّه للإسلام والمسلمين.

الكلمات المفتاحيّة: هوليوود (Hollywood)، التشويه التاريخي (Historical Misrepresentation)، الاستشراق (Orientalism)، الصور النمطيّة (Stereotypes)، الإسلاموفوبيا / العداء للإسلام (Islamophobia)

---

١. تعريب: علي مرتضى عمّار مراجعة: جمال عمّار

* عنوان المقال باللّسان الأنكليزيّ:

Historical Misrepresentation of Islam and Muslim: A Descriptive Review of Hollywood

* المصدر: مجلة باكستان للعلوم الاجتماعيّة (Pakistan Social Sciences Review)، المجلد الرّابع، العدد الثّاني، جوان/حزيران/يونيو ٢٠٢٠، ص. ٦٨٠-٦٩٠. (www.pssr.org.pk).

* الكتّاب:

١/ د. نورين عبيدة (Dr. Noureen ABIDA): أستاذ مساعد في قسم دراسات الإعلام، الجامعة الإسلاميّة في بهاولبور، البنجاب، باكستان.

٢/ د. نظر شبانة (Dr. Nazar SHABANA): أستاذ مساعد في قسم اللغة العربيّة، الجامعة الإسلاميّة في بهاولبور، البنجاب، باكستان

٣/ مصطفى نيّار (Mustafa NAYYAR): باحث دكتوراه في جامعة العلاّمة إقبال المفتوحة، إسلام آباد، باكستان.

المقدمه

تُعد بعض الممارسات والطقوس الدينيّة ضروريّة جدًّا للمسلمين؛ لأنّها تشكّل أساسًا مهمًّا، ومساحةً يتذكّر أتباع الإسلام من خلالها التّاريخ، ويعبّرون بها عن إيمانهم وينمّون ولاءهم. تُؤدَّى بعضُ الطّقوس يوميًّا مثل الصّلاة، بينما تُمارس طقوسٌ أخرى سنويًّا مثل تلك المرتبطة بأعيادٍ إسلاميّةٍ محدَّدة. هذه الممارساتُ والطّقوسُ الدينيّةُ في الإسلام، ليست كثيرةً من حيث العددُ، لكنّها بالغةُ الأهميّة. تتمثّل أركانُ الإسلام الخمسة، في خمسِ ممارساتٍ تحترمها جميعُ المذاهب والفرق الإسلاميّة وتعترف بها بوصفها أساسيّةً في إيمان المسلم[1].

أركانُ الإسلام الخمسةُ هي الواجبات الدينية الخمسة المفروضة على كلّ مسلم. ذُكرت هذه الأركان في القرآن والحديث بوصفها الجزء الأكثر أهميّةً وتكاملاً في التعاليم الإسلاميّة:

الركن الأول، والأساس من الأركان الخمس هو (الشهادة). الشهادة هي إعلان الإيمان في الإسلام، وتقوم على إعلان قناعتين أساسيّتين تجعلان الشّخص مسلمًا، وهما: أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أنّ محمدًا رسول الله، وبعبارةٍ أخرى فالشهادة، بقسميْها، هي الأساس التّوحيدي للإسلام مقرونًا بختم النّبوّة وعدم مجيء أيّ نبيٍّ بعد نبيّ الإسلام محمّد.

الركن الثّاني من أركان الإسلام هو إقامة الصلاة، وهي على الأرجح من أكثر الممارسات الإسلاميّة شهرةً وانتشارًا بين غير المسلمين. تُعرف باسم (الصلاة)، وهي بطابعها تعبّدية، وتُؤدَّى خمسَ مرّاتٍ في اليوم، وهي: الفجر [الصبح]، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

الركن الثالث من أركان الإسلام هو أداء الزكاة، وهي من أبرز العبادات والواجبات في الإسلام، حيث تنصّ تعاليم كتاب الإسلام المقدّس، أي القرآن، بشكلٍ صريحٍ على وجوب دفعها للفقراء والمحرومين، ويحمل هذا الرّكن بُعدًا اجتماعيًّا.

الرّكن الرابع من أركان الإسلام هو الصّوم، الذي يحيي تعليم القرآن للبشريّة خلال شهر رمضان، الشّهر التّاسع في السّنة الهجريّة.

الركن الخامس من أركان الإسلام هو الحج: يحب على كلِّ مسلمٍ القيام، مرّةً في حياته، برحلة

1. Ahmad, S.A., Postmodernism and the Islam: Predicament and Promise.

حجٍّ إلى مكّة، وهي المدينة المقدّسة في الإسلام لوجود بيت الله فيها (المسجد الحرام والكعبة)، وتعرف هذه الرحلة المقدسة باسم (الحج) في اللغة العربيّة.

إنّ الشّخص الذي يمارس هذه العبادات، ويتّبع الإسلام كدينٍ يُعرف بـ (المُسلم). يبلغ عدد أتباع الإسلام حوالي ٢ مليار نسمة حول العالم، ويُعدّ الشرق الأوسط وشرق إفريقيا [وشمالها وغربها]، وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا ووسط آسيا، مراكزَ رئيسةً لانتشار السكّان المسلمين[١].

إنّ الطريقة التي يُعرف بها الإسلام والمسلمون ويُنظر إليهم من خلالها العالَمُ الغربيُّ اليومَ، بما في ذلك الولايات المتّحدة، هي نتيجةٌ مباشِرةٌ للفلسفات التي ابتكرتها المدرسة الاستشراقيّة في القرنيْن الثامن عشر والتاسع عشر. لقد تبيّن من خلال صفحات التاريخ أن صورة المسلم والإسلام في الغرب تُقدَّم بطريقةٍ غريبةٍ عبر تزييف المعلومات وتحريفها. استخلصتْ أفلامُ هوليوود هذا النوعَ من الفهم الزائف من المدرسة الاستشراقيّة التي أصرت على تصوير المسلم بأنّه غيرُ متحضِّر، وبأنّه متشدِّدٌ، ومقاتلٌ، وهمجيٌّ ومتقلِّبُ المزاج. وفي العالم المعاصر، تقوم وسائلُ الإعلام الغربيةُ وهوليوودُ بعرض هذه التحريفات عن المسلمين ونشرها بأساليبَ وتقنياتٍ جديدةٍ تمامًا، بهدف خلق دعايةٍ صريحةٍ ضد العالم الإسلامي[٢].

المسارُ التاريخيُّ لتشويه صورة المسلم

السّبب الأوّلُ للنزاع:

من الضروريّ اكتشافُ الجذور التاريخيّة التي خلقت الصّورةَ المشوَّهة للعالم الإسلامي في أفلام هوليوود؛ إذ إنّ التّاريخ وحده قادرٌ على تبرير كيفيّة ارتباط بعض الصّور النّمطية بالمسلمين وأسبابه. يرى اتّجاهٌ فكريٌّ أنّه قبل الاستشراق الأوروبي وعصر الاستعمار، كان المسيحيّون ينظرون إلى الإسلام منذ أيامه الأولى، على أنّه مصدرُ قلقٍ وتهديدٍ. لقد كانوا يصفون المسلمين بأنّهم عُبّادٌ لإلهٍ باطِلٍ، وكانوا يسخرون منهم، ما أدّى إلى دخول الطرفين في حالة حربٍ تجسّدت في شكل الحروب الصليبيّة[٣].

1. Armstrong, K., Islam: A short history.

2. Kabir, E., The representation of Islam in the land of Hollywood.

3. Gaertner, S.L. and McLaughlin, J.P., Racial Stereotypes: Associations and Ascriptions of Positive and Negative Characteristics.

دَور الاستعمار:

يمكن العثور على التّمثيل/العرض الأحدث نسبيًّا للمسلم في أوائل الأعمال الاستشراقيّة. كانت فرنسا وبريطانيا العظمى حريصتين على استعمار العالم الإسلامي، ونجحتا في مواصلة الغزو منذ بدايات القرن السابع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تمّ احتلال الشرق بالكامل. هذا الاستعمار الواسع النطاق غرس تمييزاتٍ عرقيّةً معاديةً وتسلسلاتٍ هرميّةً، ما شكّل تدريجيًّا التصوّراتِ والسلوكاتِ ضدّ المسلم[١].

أكد إدوارد سعيد أنّ الصُّوَر الحديثة للمسلم على أنّه بربريٌّ (همجيٌّ)، وأنّه غيرُ متحضِّرٍ، وأنّه دونيٌّ، هي نتيجةٌ خالصةٌ لهذا الاستعمار[٢].

سيناريو ما بعد الحرب العالميّة الثانية:

على الرّغم من أنّ الاستعمار انتهى بعد الحرب العالميّة الثّانية، إلّا أنّ الإمبرياليّة بقيت صامدةً، وبقيت تفرض هيمنتَها في المجالات الثّقافيّة والسياسيّة والفكريّة والاقتصاديّة. وظلّت القواعدُ والمعاييرُ القاسيةُ ضد المسلمين والمعادِيةُ لهم قائمةً في عصر ما بعد الاستعمار[٣].

يذكر سعيد أنّ سيناريو ما بعد الحرب العالميّة الثانية يمكن عَزْوُه إلى فيضٍ من الموادّ العنصريّة المطبوعة على نطاقٍ واسعٍ، ما أدّى إلى تشكيل وعيٍ شعبيٍّ مُعادٍ لشعوب الشّرق في الغرب[٤].

الاستعمارُ الجديدُ؛ انتقالُ ركائز القوّة من أوروبا إلى أمريكا، لكنّ الصورةَ الاستشراقيّةَ المعروضةَ والمتصوَّرةَ بقيت كما هي.

في نهاية الحرب العالميّة الثّانية، ظهرتِ الولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّةُ كقوّةٍ عظمى، وانتقل مركزُ الإمبرياليّة من أوروبا إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة. لقد كان ذلك نهايةَ الاستعمار؛ ومع ذلك فقد كان بدايةً لعصرٍ جديدٍ للسياسات نفسِها مع علامةٍ تجاريّةٍ جديدةٍ تمامًا، [إنّه الاستعمار الجديد].

1. Bates, T.R., Gramsci and the Theory of Hegemony.

2. Said, E.W., Covering Islam: How The Media and The Experts Determine How We See The Rest of The World, p. 5.

3. Said, E.W., Culture and Imperialism, p. 9, 11.

4. Said, E.W., Culture and Imperialism, p. 11.

لقد ظلّتِ الصورةُ المشوَّهةُ للمسلمين في هذا النظام العالميّ الجديد كما هي، محتفظةً بالصّورة النّمطية القديمة نفسِها[١].

فقاعة الهويّة البرّاقة

في عام ١٩٧٩م، دخلت الحرب الباردة إلى أفغانستان، حيث نفّذ الاتّحادُ السّوفياتيُّ انقلابًا عسكريًّا، وقتل الرّئيسَ الأفغانيَّ، ونصّب ببْرك كارمل رئيسًا. في منتصف الثمانينات، أُطلِقت حركةُ المقاومة الأفغانيّة بقيادة السكّان المحلّيين والعرب، كان هذا هو الوقتَ الذي وصلت فيه الحربُ الباردةُ إلى أفغانستان، وكانت الصّورةُ البطوليّةُ للمسلم رائجةً بفضل هوليوود. كانت النتيجة النهائيّة للمقاومة تفكّك الاتّحاد السوفيتي إلى دُولٍ متعدّدةٍ وظهور عالَمٍ أُحادِيِّ القطب. ومن الجدير بالذكر أنّ هوليوود قد ظهرتْ، مرةً أخرى، كشريكٍ استراتيجيٍّ للحكومة الأمريكيّة، فقد عرضت حركةَ المقاوَمة بقيادة المسلمين العرب والأفغان والجنوب آسيويين بطريقةٍ بطوليةٍ (على الرّغم أنّ الصُّوَر النمطيّة المعتادة، عن العرب والمسلمين عمومًا، لم تتغير). يجسّد فلما «أضواء النهار الحيّة» (The Living Daylights) و«رامبو-٢» (Rambo-II) هذه الظاهرة التي كانت تحدث في هوليوود في كامل حيويّتها ونشاطها[٢].

سيناريو ما بعد الحرب الباردة، وتمثيلُ/عرضُ المسلمين في هوليوود

عند النظر في سيناريو ما بعد الحرب الباردة، يتبين اختفاء الصورة البطوليّة المرتبطة بحركة المقاومة الإسلاميّة، بل وتحوّلها إلى صورة [المسلم/العربيّ] الإرهابي، مع الحفاظ في الوقت نفسه على الصور النمطيّة السابقة المرتبطة به.

تظهر صوَر المسلم عادةً على أنّها مُهزومٌ بها ومشوَّهة، مباشرةً بعد الحرب الباردة. ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة بوضوحٍ في أفلام مثل «أكاذيب حقيقيّة» (True Lies)، و«بلاك هوك داون» (Black Hawk Down)، و«الهارب» (The One that got away)، و«الملوك الثّلاثة» (Three Kings)، و«أفضل ساعة» (The Finest Hour)[٣].

1. Said, E.W., Orientalism, p. 3.

2. Yancy, G., Colonial Gazing: The Production of the Body as ‘Other’, The Western Journal ofBlack studies. Vol. 32. issue 1, pp. 1-15.

3. Shaheen, J., Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People.

صورة المسلم في أفلام هوليوود

بحث شاهين (٢٠٠١) في كتابه «عربٌ سيّئون على الشاشة» (Reel Bad Arabs) موضوعَ أفلام هوليوود التي تقدّم صورةً نمطيّةً ثابتةً وصورةً مشوَّهةً/مسيئةً للمسلم العربيّ على أمد العقود. يرى شاهين أنّ هذه العملية قد تمّت بأكملها، من خلال محاولةٍ واعيةٍ لتشويه صورة المسلم العربيّ عن طريق عرضه بطريقةٍ غيرِ لائقةٍ. وقد قدّم شاهين تحليله بعد الاطّلاع على أكثر من ألف فيلمٍ من أفلام هوليوود، من بداية فترة السّينما حتى الوقت الحاضر. يحدّد شاهين أنّ الأنماطَ المحدَّدةَ في عرض المسلمين العرب واضحةٌ، وهي مليئةٌ بالكراهيّة والإساءة في توجّهها وطريقة عرضها.

استنتج شاهين أنّ المسلمين العربَ كانوا أكثرَ الفئات عُرضةً للانتقاد والتّشويه في تاريخ السينما الهوليوودية، وأنّ التّصوير السّلبي للعرب المسلمين يفوق حتى التّصوير السّلبي للسّود والهنود الحمر والآسيويين واللاتينيين واليهود.

يشير جويل، س. ك. إلى أنّ المسلمين والإسلام قد أُسيء فهمُهم وتمّ تشويهُهم في الإعلام الأمريكي. وتبرز هذه الظاهرة بشكلٍ أكثرَ وضوحًا في هوليوود، التي لها تاريخٌ طويلٌ في تمثيل/عرض المسلمين والإسلام بطريقةٍ غيرِ لائقةٍ. حدّد جويل العلاقة المباشرة بين تمثيل/عرض المسلمين في هوليوود ومشاعر الأمريكي العادي تجاههم، واستنتج أنّ هوليوود تشكّل شعور جمهورها الأمريكي، وبالتالي فإنّها إذا عرضت مجموعةً معيّنةً بطريقةٍ سلبيّةٍ، فإنّ الناس/الجمهور يطوّرون مشاعرَ سلبيّةً تجاه تلك المجموعة[1].

وفقًا لاستطلاع أجرته مؤسّسة غالوب (Gallup) في أمريكا ونُشر في «يو إس توداي» ، فإنّ ٤٠٪ من الأمريكيين يرون أنّ المسلمين المقيمين في أمريكا خطرون ولا ينبغي الوثوق بهم أبدًا؛ لأنّهم لا يُظهرون إخلاصًا وولاءً تجاه الولايات المتّحدة. وعبّر قرابةُ ثلث الأمريكيين عن تحفّظهم بشأن المسلمين المقيمين في الولايات المتّحدة، متّهمين إيّاهم بالتعاطف مع تنظيم القاعدة، في حين أشار نحو ربع الأمريكيين إلى عدم رغبتهم في وجود أيِّ مسلمٍ كجارٍ لهم[2].

1. Jewell, S.K., From mammy to miss America and beyond: Cultural images and the shaping of US policy

2. Gallup & USA Today, 40% of Americans say they harbor prejudice against Muslims, 2006.

يؤكّد لويس أنّ المسلمين عُدُّوا جماعةً كافرةً أو وثنيّةً موجّهةً ضدّ المسيحيّة، واستمر هذا التّصوُّرُ لفترةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ جدًّا. فبحسب قوله، كان ذلك محاولةً للنّيل من ديانة توحيديّةٍ جديدةٍ تشبه في كثيرٍ من الجوانب المسيحيّة واليهوديّة[1]. ويخلص لويس إلى أنّ علماء الكنيسة في العالم الغربي حرّضوا أتباعهم ضدّ الإسلام والمسلمين. يوضح سعيد أنّه، منذ الحرب العالميّة الثانية، كانت الصورة الجذريّة/المتطرّفة للعرب المسلمين وللإسلام قيد الإنشاء، ويرى أنّ هناك محاولةً مستمرّةً لتمثيل/عرض المسلمين وتصويرهم خطرًا رئيسًا؛ لذلك فقد صُوِّروا كمخلوقاتٍ مخيفةٍ وخطيرةٍ، أو أُظهِروا في حالة تمرّدٍ وانقلابٍ[2].

يرى أحمد أنّ أفلام هوليوود تُقدِّم المسلمين في أدوارٍ رخيصةٍ وأنانيّةٍ وضيّقةِ الأفق بسبب الصُّور النّمطية السّائدة في صناعة السّينما الهوليووديّة. تؤكّد خلاصةُ هذا الطّرح، أنّ صورة المُسلم في أفلام هوليوود تُنسَب إلى أنماطٍ سلوكـيّةٍ سلبيّةٍ، وأنّ المسلمين يتعرّضون للتّشويه في صناعة السينما الهوليووديّة[3].

أجرى بات تحقيقًا أكاديميًّا حول صورة الإسلام والمسلمين في أفلام هوليوود، فوجد أنّ العديد من المفاهيم الإسلاميّة قد تم تحريفُها وعرضُها بشكلٍ سيِّئٍ. وقد استنتج أنّ تصويرَ العالَم الإسلاميّ في هذه الأفلام كان سلبيًّا بالكامل أو مشوَّشًا، وخلص إلى أنّ الانطباع الشائع المرتبط بالمسلم هو تعريفه كإرهابيٍّ، ومتشدِّدٍ، ومُعادٍ لأمريكا[4].

يُظهر سعيد قلقه بالكشف عن حقيقة أنّ أمريكا كانت تفتقر لأيّ عالِم، مثل هذا، مستعدٍّ لإيقاف هذا التّشويه للإسلام، ولوم الحكومة الأمريكيّة على صياغة سياساتٍ عمياءَ تجاه الإسلام والمسلمين. وأعلن سعيد أنّ هذا الأمرَ يُعدّ إشارةً مُقلقةً لأمريكا؛ لأنّ هذا الموقفَ سوف يولّد انطباعاتٍ عاطفيّةً سلبيّةً، ويتسبّب في حصول ردّات فعلٍ، تجاه السياسات الأمريكيّة وصانعي القرار. وأكد كذلك أنّ صناعة السّينما الهوليووديّة تخلق عرضًا تصويريًّا كارهًا وسلبيًّا وغيرَ عادلٍ للمسلمين من خلال تصويرهم كمتطرفين، وأصوليّين، وإرهابيّين. وقد خلُصَ إلى أنّ هذا التّوجُّهَ المتحيِّزَ لسينما هوليوود

1. Lewis, B., The Crisis of Islam: Holy war and unholy terror, p. 19.

2. Said, E.W., Culture and Imperialism, p. 9, 11.

3. Ahmad, S.A., Postmodernism and the Islam: Predicament and Promise.

4. Butt, M. U., Portrayal of Islam and Muslims in Hollywood movies, Unpublished Thesis Institute of Communication studies, University of the Punjab, Lahore.

سيُعيق إقامة أيّ عمليّة سلامٍ بين الغرب والشرق، بل قد يحول دون حصولها[1].

يثبت نول في مقاله (الكتبُ المدرسيّةُ الأمريكيّةُ: كيف صوّرت الشرق الأوسط من ١٨٩٨ إلى ١٩٩٤)، أنّ الصُّورَ النمطيةَ للعرب والمسلمين في أمريكا قد تّم نشرها بأشكالٍ مختلفةٍ عبر وسائل الإعلام الأمريكيّة. وقد كانت تلك التمثيلاتُ/العروضُ، بشكلٍ عامٍّ، سلبيّةً، فترتّب عليها عواقبُ سلبيّةٌ للمسلمين والعرب الأمريكيّين في حياتهم اليوميّة. ويخلص نول إلى أنّ الصّور النّمطية السّلبيّة للمسلم نفسها، تظهر في الكتب المدرسيّة الأمريكيّة، وهي في الواقع بعيدةٌ تمامًا عن الحقيقة[2].

يقترح ماكريسكن و بيبر أنّ العرب لا يستحقّون الصورةَ المقدَّمةَ عنهم في سينما هوليوود، ويريان أنّ الصورة السلبيّة المنسوبة للعرب، بلا سببٍ، هي أمرٌ غيرُ عادلٍ وظالمٌ. ويستنتجان، من خلال التحليل النّقدي لأفلام هوليوود، أنّ دورَيْ [الممثّل] رودولف فالينتينو في فيلمَيْ «الشيخ» (The Sheikh) (١٩٢١) و«ابن الشيخ» (The son of the Sheikh) (١٩٢٦)، يُعدّان دوريْن رائدَين/نموذجيّيْن في توضيح الصورة السلبيّة للعرب والمسلمين في هوليوود. صوّر كلا الفيلمين المسلمين مغتصبين، وقتلةٍ ومُرعِبين. ويستنتج الكاتبان، أيضًا، أنّ أفلامًا أجنبيّةً أخرى من عشرينيّات القرن الماضي [العشرين] تشترك في موضوع تمثيل المسلم العربي ككائنٍ مهووسٍ بالقوة، مختلٍّ عقليًّا وقاسٍ، انتهى به المطاف إلى أن يُصبح تابعًا يُوجِّهَه الغربُ. يُعدّ فيلم «ابنٌ للصحراء» (١٩٢٤) (A son of the Sahara) الهجومَ الضّمنيَّ الأبرزَ والأقوى على الثقافة العربيّة [الإسلاميّة]. لقد خلُصا إلى أنّ الموضوعاتِ نفسَها كانت سائدةً حتى السبعينيّات [من القرن العشرين] وما بعدها، مستشهدَيْن بأمثلةٍ مثل فيلم «الأحد الأسود» (Black Sunday) (١٩٧٥) ، وفيلم «الحصان الأسود» (The Black Stallion) (١٩٧٩) وفيلم «العودة إلى المستقبل» (Back to the Future) (١٩٨٥)[3].

يُشير قُميصة في مقاله (١٠٠ عام من الصُّور النمطيّة المعادية للعرب والمسلمين) أنّ توماس إديسون كان، في البداية، هو من صنع فيلمًا قصيرًا عام ١٨٩٧ للجهاز الذي اخترعه «جهاز عرض

1. Said, E.W., Covering Islam: How The Media and The Experts Determine How We See The Rest of The World, p. 5, 92, 93, 94, 95.

2. Null, W., American School Textbooks– How They Portrayed the Middle East from 1898 to1994, American Educational History Journal, Volume 35, Number 1 and 2.

3. McCrisken, T., & Pepper, A., American history and contemporary Hollywood film, p. 100, 101, 103.

الحركة» (Kinetoscope)، حيث أظهر فيه امرأةً عربيّةً ترتدي فستانًا قصيرًا، وترقص في تجمُّعٍ عامٍّ لإغواء الشخصيّات الذكوريّة. كان عنوان ذلك الفيلم (فاطمة ترقص)، والذي شكّل بدايةَ الصّورة النمطيّة لنساء العرب بوصفهنّ راقصاتٍ شرقيّاتٍ. ولاحقًا نسبُتْ صورة (المليادير) للمسلمين العرب خصوصًا في عصر أزمة النفط في السبعينيّات [من القرن العشرين]. ويخلص قُميصة إلى أنّ الصورةَ النمطيةَ السائدةَ للمسلمين العربَ، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، كانت هي صورةَ (المفجِّر العربي)[1].

تُقدّم لاماني في مقالها (لماذا تَدين لي هوليوود بالمال؟)، بطريقةٍ ساخرةٍ، دليلاً من اثنتي عشرة خطوةً لصناعة فيلمٍ ناجحٍ ضدّ العرب، مثل وجود أشرارٍ ملتحين، جميعهم يرتدون الكوفيّة، وسيكون لديهم أسماء مثل علي، وعبد الله، ومصطفى، وسيكونون في المزاج المناسب لتفجير أنفسهم.

يُظهر ديتمار وميشو أنّ تمثيلَ/عرضَ المسلم في الزّمن المعاصر يمكن عدّه لقطةً ثابتةً في العديد من جوانب الخطابات، ويعرّفان هذه الظاهرة باسم (الصور النمطيّة)، ويرون أنّه يتمّ، من خلال هذه العمليّات، إبراز أكثر الاتجاهات محافَظةً وصلابةً لدى المسلمين. ويخلص الباحثان إلى أنّ جوهر هذه اللقطة الثابتة يمكن ملاحظتها في أفلام هوليوود منذ بداياتها الأولى[2].

يسلّط ماكفي الضوء على فيلم آخر مشهورٍ بتصويره النمطي للمسلم، وهو فيلم ديفيد لين «لورنس العرب» (Lawrence of Arabia) (١٩٦٢)، الذي يمكن عدّه فيلمًا كلاسيكيًّا من نوع فيلم «الشمس والرّمل» (sun and sand). وفقًا لـ ماكفي، يمثّل هذا الفيلمُ عرضًا للرجل الأبيض النّمطي الذي يهيمن على العرب، ما يؤكّد جدل سعيد حول الاستشراق الذي يعلن صراحةً أنّ (الأسلوب الغربي) هو رمزٌ للسّيطرة/الهيمنة على الشرق، ولإعادة الهيكلة له وللسلطة عليه[3].

يرى إلوناردوني الصورة من جانبٍ آخرَ عادًّا التمثيلَ/العرضَ السلبيَّ ليس هو وحده الظاهرَ في سينما هوليوود. فيوضح أنّ هناك بعض الأفلام ذات الميزانيّات الضخمة التي حازت قبولاً نقديًّا ونجاحًا تجاريًّا، مثل فيلمَيْ «بابل» (Babel) (٢٠٠٦)، و«المملكة» (٢٠٠٧)»، قدّمت تمثيلاً/عرضًا إيجابيًّا تمثيلاً/عرضًا سلبيًّا للمسلمين في آنٍ واحدٍ. ويستنتج أنّه أثناء تحليل فيلم «بابل»، تُعَد

1. Qumsiyeh, N., 100 Years of Anti-Arab and Anti-Muslim Stereotyping, p. 104, 105, 106, 107.

2. Dittmar, L., & Michaud, G., From Hanoi to Hollywood, p. 242.

3. Macfie, A.L., Representation of Lawrence of Arabia in Journal of Postcolonial Writing, Vol. 43, Issue 1, p. 112, 113. Said, E.W., Orientalism, p. 3.

علاقة ريتشارد بالمرشد المغربي أنور، بشكلٍ من الأشكال، محاولةً لبناء صورةٍ إيجابيّةٍ وذاتِ معنًى عن المسلمين. ومع ذلك، لا ينسى الباحثون الإشارة إلى أنّ تصوير أسرة أنور وهي تعيش في قريةٍ صغيرةٍ، وتحيي حياةً بائسةً ما هو إلّا تكرارٌ للصّورة النمطيّة التي تُستخدم للنيل من الهويّة الإسلاميّة نفسِها، من خلال ربطها بالتّخلف المزعوم[1].

قام بيتر موراي بتحليل فيلم «المملكة» (٢٠٠٧)، وخلص إلى أنّ إسناد دور البطولة لرجلٍ أسودَ في فيلمٍ ذي نزعةٍ قوميّةٍ شديدةٍ هو محاولةٌ واضحةٌ لمعالجة التوترات العرقيّة التاريخيّة في أمريكا على مستوًى تخيُّليٍّ، غير أنّ الفيلم في جوهره يدعو إلى اصطفاف البيض والسود من الأمريكيين معًا في مواجهة العدو المشترك، وهو بلا شك (المسلم العربي)[2].

يؤكّد أحمد أنّه مع موت أسامة بن لادن، فقدت هوليوود رمزَها الأكبر لفكرة (الشرير المطلق)، غير أنّ هوسها بمفهوم الشرير الأوحد لم ينته بعدُ. لا شكَّ في أنّ موت بن لادن قد منح بعض الإغلاق للسرد الواقعي للحرب على الإرهاب، إلّا أنّه على مستوى السرد السينمائيّ ما زالت هناك مساحةٌ شاسعةٌ لإنتاج أجزاءَ جديدةٍ. وهذا سيجلب، بلا ريبٍ، إرهابيين مسلمين أكـبرَ وأشدَّ سوءًا على شاشة السينما في الأيام القادمة، فاللعبة لم تنتهِ بعدُ[3].

يكشف توماس ومالتي أنّ سينما هوليوود قد أعادت، بعد أحداث ١١ سبتمبر، إحياء مفهوم الرجولة اليقظة الذي كان قد تلاشى مع نهاية الحرب الباردة. إنّ أفلامًا مثل «رجالٌ صالحون قليلون» (Few Good Men) (١٩٩٢) كانت تحاول إبراز رجلٍ يتمتّع برقّةٍ ورصانةٍ كقيمتيْن ذواتيْ معنًى أكثرَ من رجولته؛ غير أنّ حالة عدم الأمان التي عاشها الأمريكيّون بعد أحداث ١١ سبتمبر دفعتهم إلى إعادة إنتاج بطلٍ يتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الرجولة والحذر[4].

يبيّن أحمد أنّ المسلمين ليسوا متزمِّتين ولا جهلةً كما تُصوّرهم وسائلُ الإعلام الغربيةُ بما فيها هوليوود، بل إنّهم قد فازوا بجوائز نوبل في مجالاتٍ متعددةٍ، وأنجبوا مفكِّـرين من أعلى

1. Elouardaoui, O., Arabs in Post- 9/11 Hollywood Films: A Move towards a More Realistic Depiction?, p. 115, 116, 117.

2. Murray, P., Analysis of the movie «The Kingdom», p. 118.

3. Ahmed, M., Portrayal of Islam and Muslims in Hollywood movies after 9/11, Institute of Communication Studies, University of the Punjab, Lahore.

4. Thomas, R., & Malti, G., The perception of Islam in the West, p. 119.

المستويات مثل الغزالي وابن سينا وابن رشد، ومتُصوِّفةً مثل الرومي وابن عربي، وعلماء مثل ابن خلدون والحسن بن الهيثم، وشعراء مثل عمر الخيّام وغالب، كما شيّدوا معالم عظيمة مثل تاج محل [في الهند] وغيرها. إنّ قوة الإعلام الغربي وعدوانيته ونهجه المعادي للإسلام هي، وحدها، التي جعلت المسلمين يبدون وكأنّهم فقدوا القدرة على التعبير عن أنفسهم، بل حتى على تمثيل/عرض ما يرونه ويعرفونه من حياتهم كحقيقةٍ وواقعٍ[١].

يبيّن حمزة غزنوي في مقالته (هذه التحريفات التي لدى هوليوود عن باكستان مثيرة للسخريّة)، أنّه حتى في الأفلام الفائزة بجوائز الأوسكار والغولدن غلوب مثل فيلم «زيرو دارك ثيرتي» (Zero Dark Thirty) يتم تشويه الحقيقة وتحريفها عندما يتعلّق الأمر بتمثيل/عرض باكستان. ويشير إلى أنّ أبوت أباد، وهي مدينةٌ في شمال باكستان، جميلةٌ تشتهر بالخضرة والجبال، ومع ذلك فقد تم تصويرُها كأرضٍ مقفرةٍ مهجورةٍ في فيلم (زيرو دارك ثيرتي). ويروي أيضًا أنّ هوليوود ربطت صورة باكستان ببعض الخرافات والصور النمطيّة مثل أنّ النساء الباكستانيات يرتدين دائمًا البُرقع ولا حياة لهنّ، وأنّ الباكستانيّين يتحدّثون العربيّة، وأنّ الرجال الباكستانيّين ملتحون دائمًا، وأنّ إسلام آباد هي منطقة حربٍ، وأنّ بندقيّة AK-٤٧'s شغّالةٌ فيها دائمًا. ويخلص المؤلِّف إلى أنّه يجب على هوليوود الخروج من هذه الصور النمطيّة، وأنّ البحث الجاد أصبح شرطًا أساسيًّا قبل تصوير أيّ أُمّةٍ[٢].

يذكر سافاج أنّ أفلام هوليوود لها تأثيرٌ حيويٌّ وقويٌّ على عقول الجماهير الأمريكيّة ومعارفها. وقد خلقت بذلك حالةً يعتقد فيها الملايين أنّهم على درايةٍ جيّدةٍ بالعرب وبالثّقافة الإسلاميّة بينما الواقع عكس ذلك. يحدد سافاج ذلك كحالةٍ وهميةٍ لدى الجمهور المتلقّي، ويلوم صناعة السينما في هوليوود بشكلٍ صريحٍ على ذلك[٣].

يظهر جودستين أنّ العرب الأمريكيين، بعد عقودٍ من الغياب شبه التام في سينما هوليوود، وجدوا أخيرًا حضورًا بارزًا، ولكن للأسف هذا الحضور سلبيٌّ. فهم إمّا إرهابيون وإمّا أشرارٌ من نوعٍ آخَرَ؛ هم بالتأكيد ليسوا أوّلَ ضحايا هوليوود، بل هم الأحدثُ في قائمةٍ طويلةٍ جدًّا من الجماعاتٍ العرقية والأمم[٤].

1. Ahmed, A., Muslims in the West, p. 257.

2. Ghaznavi, H., Hollywood's misrepresentations of Pakistan are laughable, p. 120.

3. Savage, N., The perception of Islam in Western media, p. 121.

4. Goodstein, L., Stereotyping of Muslims, Published in New York Times.

يُظهر هال أنّ الشّخصيّات البشعة ومنعدمة الهويّة يمكن عدّها مشكلةً من منظورٍ نوعيٍّ أكثرَ، لكونها تمثّل صورةً نمطيّةً راسخةً في الإعلام، التي سيتمّ نقلها بسهولةٍ إلى المشاهدين بسبب تعرُّضهم السابق لها. ونتيجةً لذلك، أصبح الإرهابيُّ الحديثُ شخصيّةً عربيّةً شائعةً وبسيطةً في صناعة الترفيه الأمريكيّة المعاصرة[1].

منظورٌ معاصرٌ

إنّ العلاقة القائمة بين الغرب والعالم الإسلامي، على وفق هذا المنظور، هي علاقةٌ بين المتفوِّق والتّابع، بين السيّد والعبد، بين القوي والضعيف. ويمكن وصفُها وتمييزُها بالعنف، وسفك الدماء، وسوء الفهم الثقافي، والهيمنة والتّحكُّم. هناك تاريخٌ طويلٌ من الحروب والحملات الصليبيّة وانعدام الثقة بين الغرب والعالم الإسلامي، ما يلعب دورًا مهمًّا في تشويه كلّ المحاولات الجادّة للسلام والمصالحة بين الطرفين.

وما يسهم أكثر في تخريب هذه السّيرورة هو وجود عنصر الشّكّ والإيديولوجيّات الجاهزة حتى يومنا هذا. أطلقت حكومة الولايات المتّحدة ــ لكونها القوّةَ المهيمِنةَ ــ مشروعَ العسكرة الشاملة للعالَم، ما أدّى إلى حدوث تصدُّعٍ وفتورٍ في العلاقة بين الإسلام والغرب في مطلع القرن الحادي والعشرين خلال عهد جورج بوش الابن. هو يرى أنّ استمرار الحكومة الأمريكيّة في احتلال الأراضي الإسلاميّة حول العالم يتمّ انطلاقًا من فكرة المصير المحتوم/القدر لأمريكا كدولةٍ، وريثةٍ للحداثة، ووصيّةٍ عليها.

الخاتمة

يبيّن مقالُ (أنماط التحيز في محتوى الأفلام) أنّه من المؤسف أنّ بعض الأعراق قد تُصوَّر بطريقةٍ أكثرَ إيجابيّةً، بينما يُمثَّل/يُعرَض آخرون بتحيُّزٍ. ويخلص إلى أنّه على الرّغم من إمكان تصوير جميع الأعراق بشكلٍ سلبيٍّ في وقتٍ ما، إلّا أنّ بعض الأعراق، وخاصّة العرب والعرب الأمريكيين، هم ضحايا دائمون للتصوير غير اللائق.

إنّ الأساطير حول العرب غالبًا ما تُحفِّز المخرجين والمنتجين وكتّاب السيناريو على خلق حبكةٍ

1. Hall, S., The Spectacle of the Other, in Representation: Cultural Representations and Signifying Practices, p. 406.

تعتمد دائمًا على الصُّور النمطيّة. وتُستعمل كلمة (مسلم) في الإعلام بهذا المعنى الضّيّق جدًّا، الذي يُلغي الفوارق الموجودة على أساس المُواطَنة والعِرق، والاختلافات القوميّة، على الرّغم من أنّ هذه الاختلافات موجودةٌ فعليًّا في الواقع.

المصادر والمراجع

1. Ahmad, S.A.(2004). Postmodernism and the Islam: Predicament and Promise New York: Routledge.

2. Ahmed, A. (2015). Muslims in the West by Akbar Ahmed.Muslimcanada.org. Retrieved 27 October 2015, from http://muslimcanada.org/livingislam3.html#living

3. Ahmed. M. (2008). Portrayal of Islam and Muslims in Hollywood movies after 9/11, Institute of Communication Studies, University of the Punjab, Lahore.

4. Armstrong, K. (2002).Islam: A short history, New York: Modern Library.

5. Bates, T.R. (1975). Gramsci and the Theory of Hegemony in Journal of the History of Ideas.

6. Butt. M. U. (2001). Portrayal of Islam and Muslims in Hollywood movies, Unpublished Thesis Institute of Communication studies, University of the Punjab, Lahore.

7. Dittmar, L., & Michaud, G. (1990). From Hanoi to Hollywood. New Brunswick: Rutgers University Press.

8. Druray, S. (2009).Demonizing the enemy in the war on terror New York: Routledge

9. Elouardaoui, O. (2011). Arabs in Post- 9/11 Hollywood Films: A Move towards a More Realistic Depiction? West Lafayette: Purdue University.

10. Gaertner, S.L. and McLaughlin, J.P. (1983). Racial Stereotypes: Associations and Ascriptions of Positive and Negative Characteristics. Social Psychology Quarterly, 46 (1), Ismail, T. & Rippon , A. (2009).

11. Islam in the eyes of the west, New York :Routledge

12. Jewell, S.K. (1993). From mammy to miss America and beyond: Cultural images and the shaping of US policy.New York: Routledge.

13. Kabir, E. (2013). The representation of Islam in the land of Hollywood. Retrieved form http://www.academia.edu/5668757/The_representation_of_Islam_in_the_land_of_Hollywood.

14. Lamani, L. (1997, July 28th). Why Hollywood Owes Me Money. Los Angeles Times.

15. Lewis, B. (2004). The Crisis of Islam: Holy war and unholy terror. Great Britain: Orion Books Ltd.

16. Macfie, A.L. (2007) "Representation of Lawrence of Arabia" in Journal of Postcolonial Writing, 43 (1):77-87. 689 1 Historical Misrepresentation of Islam and Muslim: A Descriptive Review of Hollywood 2.

17. McCrisken, T., & Pepper, A. (2005).American history and contemporary Hollywood film. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.

18. Null, W. (2008). American School Textbooks– How They Portrayed the Middle East from 1898 to 1994, American Educational History Journal, Volume 35, Number 1 and 2.

19. Said, E.W.(1997).Covering Islam: How The Media and The Experts Determine How We See The Rest of The World. New York: Pantheon Books.

20. Said, E.W. (1978). Orientalism. London: Routledge&Kegan Paul Ltd.

21. Said, E. W. (1994). CultureImperialism. New York: VintageBooks.

22. Shaheen, J. (2001). Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People. Northampton, MA: OliveBranch Press

23. Strobel, W. (1997). Late-Breaking Foreign Policy: The News Media's influence on peace operations. Washington D.C.: United States Institute of Peace Press

24. Thomas. E & Malte, H.(2010).Cinema as brain mind and body. In Film Theory and introduction through the scenes New York: Routledge.

25. Yancy, G. (2008). Colonial Gazing: The Production of the Body as 'Other. The Western Journal of Black studies. Vol.32. issue.

نصوص مستعادة

يتناول هذا الباب إعادة نشر الوثائق القديمة والصور التي تعنى بالاستعمار بالنقد والتحليل

نظريّة ما بعد الاستعمار الأطروحة في خدمة علم الاستغراب

د.جميل حمداوي

نظريّة ما بعد الاستعمار
الأطروحة في خدمة علم الاستغراب

د.جميل حمداوي[1]

المُلخّص

يتناول هذا البحث نظريّة ما بعد الاستعمار بوصفها تيّارًا فكريًّا ونقديًّا برز في مرحلة (ما بعد الحداثة) لتقويض المركزيّة الغربيّة وفكّ ارتهان الثقافات التابعة للهيمنة الإمبراطوريّة. يسلّط الباحث الضوء على المرتكزات المعرفيّة للنظريّة، مبيّنًا دورها في تحليل الخطاب الاستعماريّ وتفكيك ثنائيّة (الأنا والآخر)، و(الشرق والغرب). ويركز البحث بصفةٍ خاصّةٍ على تحوّل هذه النظريّة إلى أداةٍ لخدمة علم الاستغراب، الذي يهدف إلى جعل الغرب (موضوعًا) للدراسة بدلاً من كونه (ذاتًا) دارسة فقط. كما يستعرض البحث إسهامات أبرز روّاد هذا الحقل، مثل إدوارد سعيد بتركيزه على نقد الاستشراق، وهومي بابا بمفهوم التهجين، وجاياتري سبيفاك في دفاعها عن (التابع)، وفرانز فانون في تحليله للعنف الاستعماري. ثم يخلص البحث إلى أنّ هذه النظريّة تمثّل حركة مقاومةٍ ثقافيّةٍ تسعى لاستعادة الهويّة الوطنيّة، وإثبات التعدّديّة الثقافيّة في وجه سياسات التغريب والإقصاء، رغم ما واجهته من انتقاداتٍ منهجيّةٍ أو واقعيّة.

الكلمات المفتاحيّة: ما بعد الاستعمار (Post-Colonialism) ، الاستشراق (Orientalism) ، المركزية الغربيّة (Eurocentrism) ، علم الاستغراب (Occidentalism) ، الخطاب الثقافي (Cultural Discourse).

---

١. باحث وأكاديمي من المغرب.

تطرح نظريّة ما بعد الاستعمار مجموعةً من القضايا الشائكة للدرس والمعالجة والتفكيك والتقويض، كجدليّة الأنا والغير، وثنائيّة الشرق والغرب، وتجليات الخطاب الاستعماريّ، ودور الاستشراق في تزكية المركزيّة الغربيّة قوّةً وتفوقًا، والإشارة إلى الصراع الفكريّ والثقافيّ المضادّ للتمركز العقليّ الغربيّ لغةً، وكتابةً، ومقصديّةً، وقضيّة.

ما نظريّة ما بعد الاستعمار؟ وما مفهوم هذه النظريّة؟ وما أهمّ مرتكزاتها القضويّة والفنيّة والنقديّة والمنهجيّة؟ ومن هم أهمّ روّادها الفعليين؟ وما قيمة هذه النظريّة تصوّرًا وتطبيقًا؟ وما علاقتها بعلم الاستغراب؟ الدراسة التالية تحاول الإجابة عن هذه الأسئلة:

١. مفهوم نظريّة ما بعد الاستعمار

تُعدّ نظريّة (ما بعد الاستعمار) من أهمّ النظريات الأدبيّة والنقديّة التي رافقت مرحلة (ما بعد الحداثة)، ولا سيّما أنّ هذه النظريّة قد ظهرت بعد سيطرة البنيويّة على الحقل الثقافيّ الغربيّ، وبعد أن هيمنت الميثولوجيا البيضاء على الفكر العالميّ، وأصبح الغرب مصدر العلم والمعرفة والإبداع، وموطن النظريّات والمناهج العلميّة. ومن ثم، أصبح الغرب هو المركز. وفي المقابل، تشكّل الدول المستعمرة المحيط التابع على حدّ تعبير الاقتصادي المصري سمير أمين. ويعني هذا أنّ نظريّة (ما بعد الاستعمار) تعمل على فضح الإيديولوجيّات الغربيّة، وتقويض مقولاتها المركزيّة على غرار منهجيّة التقويض التي تسلّح بها الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا (J.Derrida)، لتعرية الثقافة المركزيّة الغربيّة، ونسف أسسها الميتافيزيقيّة والبنيويّة. وإنّ أكثر اهتمام ذي صلةٍ في فكر (ما بعد الاستعمار) هو تهميش الثقافة الغربيّة وقيمها للثقافات المختلفة الأخرى.

ويتّضح من منظور عالم (ما بعد الاستعمار) أنّ أعمال الفكر الكبرى في غرب أوروبا والثقافة الأميركيّة قد هيمنت على الفلسفة والنظريّة النقديّة، وكذلك على أعمال الأدب في جزءٍ واسعٍ من أنحاء العالم، ولا سيّما تلك المناطق التي كانت سابقًا تحت الحكم الاستعماري. إنّ مفهوم دريدا عن الميثولوجيا البيضاء، الذي حاول أن يفرض نفسه على العالم بأسره، قد قدّم الدعم لهجوم (ما بعد الاستعمار) على هيمنة الإيديولوجيّات الغربيّة. وإنّ رفض (ما بعد الحداثة) للسرديّات الكبرى وأنماط الفكر الغربي التي أصبحت عالميّة، كان أيضًا مؤثّرًا جدًّا[١].

وتسمّى هذه النظريّة كذلك بالخطاب الاستعماري، وقد ظهرت هذه النظريّة حديثًا مرافقةً لنظريّة

١. ديفيد كارتر، النظريّة الأدبيّة، ص:١٢٥.

(ما بعد الحداثة)، وبالضبط في سنوات السبعين إلى غاية سنوات التسعين من القرن العشرين. وقد أعطيت لنظريّة ما بعد الاستعمار تعريفات عدّة، ومن أهمّ تعاريفها أنّ مصطلح (ما بعد استعماري) يستخدم ليغطي «كلّ الثقافات التي تأثّرت بالعمليّة الإمبرياليّة من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي؛ ذلك أنّ هناك خطًّا متّصلاً من الاهتمامات، على مدار العمليّة التاريخيّة التي بدأها العدوان الإمبريالي... ونحن نشير كذلك إلى ملاءمة المصطلح للنقد الجديد العابر للثقافات الذي ظهر في السنوات الأخيرة، وللخطاب الذي تكوّن من خلاله ذلك النقد. وبهذا المعنى، فإنّ كتابنا هذا – كما يقول بعض القائلين بنظريّة ما بعد الاستعمار - يهتم بالعالم كما كان خلال فترة الهيمنة الإمبرياليّة الأوروبيّة وبعدها، وتأثير ذلك على الآداب المعاصرة... وعلى هذا النحو، تكون آداب البلاد الأفريقيّة، وأستراليا وبنجلاديش وكندا وبلاد البحر الكاريبي والهند ...كلها آداب ما بعد الاستعمار... وما يجمع بين هذه الآداب - بعد سماتها الإقليميّة الخاصة – أنّها ظهرت بشكلها الحالي في أعقاب تجربة الاستعمار، وأكّدت نفسها من خلال إبراز التوتر مع القوة الإمبرياليّة، وبالتركيز على ما يميزها عن فرضيّات المركز الإمبريالي. وهذا هو ما يجعلها آدابًا ما بعد استعماريّة»[1].

وبناءً على ما سبق، فنظريّة ما بعد الاستعمار هي التي تهدف إلى تحليل كلّ ما أنتجته الثقافة الغربيّة بوصفها خطابًا مقصديًّا، يحمل في طيّاته توجّهات استعماريّة إزاء الشعوب التي تقع خارج المنظومة الغربيّة. كما يوحي المصطلح بوجود استعمارٍ جديدٍ يخالف الاستعمار القديم؛ لذا، يتطلّب هذا الاستعمار التعامل معه من خلال رؤيةٍ جديدةٍ، تكون رؤية موضوعيّة وعلميّة مضادة. ويعرّف سعد البازعي مصطلحَي الخطاب الاستعماري والنظريّة ما بعد الاستعماريّة قائلاً: «يشير هذان المصطلحان اللذان يكملان بعضهما بعضًا إلى حقلٍ من التحليل ليس جديدًا بحدّ ذاته، ولكن معالمه النظريّة والمنهجيّة لم تتضح في الغرب إلّا مؤخّرًا مع تكثيف الاهتمام به، وازدياد الدراسات حوله. يشير المصطلح الأول إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربيّة في مختلف المجالات من نتاجٍ يعبّر عن توجّهاتٍ استعماريّةٍ إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب، على أساس أنّ ذلك الإنتاج يشكّل في مجمله خطابًا متداخلاً بالمعنى الذي استعمله فوكو لمصطلح خطاب. أمّا المصطلح الثاني، النظريّة ما بعد الاستعماريّة، فيشير إلى نوعٍ آخر من التحليل ينطلق من فرضيّة أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأنّ مرحلةً من الهيمنة - تسمّى أحيانًا المرحلة الإمبرياليّة أو الكولونياليّة - كما عرّبها بعضهم - قد حلّت وخلقت ظروفًا مختلفةً تستدعي تحليلاً من نوعٍ معيّن؛

1. Ashcroft, Bill, Gareth Griffiths, and Helen Tiffin: The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures, Routledge, London and New York, 1989, p: 2.

ولذا فإنّ المصطلحَيْن ينطلقان من وجهات نظرٍ متعارضة فيما يتّصل بقراءة التاريخ، وإن كان ذلك اختلافًا في التفاصيل لا في الجوهر، فبينما يرى بعضهم انتهاء مرحلة الاستعمار التقليدي. وبالتالي، انتهاء الخطاب المتصل به، وضرورة أن يتركز البحث في ملامح المرحلة التالية، وهي مرحلة ما بعد الاستعمار، يرى بعضهم الآخر أنّ الخطاب الاستعماري ما يزال قائمًا وأن فرضية (الما بعديّة) لا مبرر لها»[١].

ولقد طرحت نظريّة (ما بعد الاستعمار) مجموعةً من الإشكالات الجوهريّة التي تتعلّق بالاستغراب من جهة، وتتعرّض لعلاقة الأنا بالآخر، أو علاقة الشرق بالغرب، أو علاقة الهامش بالمركز، أو علاقة المستعمِر بالشعوب المستعمَرة الضعيفة من جهةٍ أخرى. ومن بين هذه الأسئلة والإشكالات الافتراضات التالية: «كيف أثّرت تجربة الاستعمار في هؤلاء الذين استُعمِروا من ناحية، وأولئك الذين قاموا بالاستعمار من ناحيةٍ أخرى؟ كيف تمكّنت القوى الاستعماريّة من التحكّم في هذه المساحة الواسعة من العالم غير الغربي؟ ما الآثار التي تركها التعليم الاستعماري والعلم والتكنولوجيا الاستعمارية في مجتمعات ما بعد الاستعمار؟ وكيف أثّرت النزعة الاستعمارية؟ كيف أثّر التعليم الاستعماري واللغة المستعمِرة على ثقافة المستعمَرات وهويّتها؟ كيف أدّى العلم الغربي والتكنولوجيا الغربيّة والطب الغربي إلى الهيمنة على أنظمة المعرفة التي كانت قائمة؟ وما أشكال الهويّة ما بعد الاستعمارية التي ظهرت بعد رحيل المستعمِر؟ إلى أيّ مدى كان التشكل بعيدًا عن التأثير الاستعماري ممكنًا؟ هل تُركّز الصياغات الغربيّة لما بعد الاستعمار على فكرة التهجين أكثر ممّا تُركِّز على الوقائع الفعلية؟ هل ينبغي استمرار معاداة الاستعمار عبر العودة الجادة إلى الماضي السابق على فترة الاستعمار؟ كيف تلعب مسائل الجنس والنوع والطبقة دورًا في الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري؟ هل حلّت أشكال جديدة من الإمبريالية محل الاستعمار؟ وكيف»[٢]؟

وعليه، تُعَدُّ نظريّة ما بعد الاستعمار، في الحقيقة، قراءةً للفكر الغربي في تعامله مع الشرق، من خلال مقاربةٍ نقديّةٍ بأبعادها الثقافيّة والسياسيّة والتاريخيّة. وبتعبيرٍ آخر، تحلل هذه النظريّة الخطاب الاستعماري، في جميع مكوّناته الذهنيّة والمنهجيّة والمقصديّة، بالتفكيك والتركيب والتقويض بغية استكشاف الأنساق الثقافيّة المؤسساتيّة المضمرة التي تتحكّم في هذا الخطاب المركزي.

---

١. سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٩١-٩٢.

٢. وردت هذه الأسئلة في هذا الكتاب: Deepika Bahri: Introduction to Postcolonial Studies, Fall ١٩٩٦. وذلك على موقع بعنوان: www.emory.edu/English/faculty/bahri.htm

٢. مرتكزات نظريّة ما بعد الاستعمار

تنبني نظريّة (ما بعد الاستعمار) في مجال الحقل الثقافي بصفةٍ عامّة، وحقل النقد الأدبي بصفةٍ خاصّة، على مجموعةٍ من المرتكزات الفكريّة والمنهجيّة، ويمكن حصرها في المكوّنات والعناصر التالية:

المطلب الأول: فهم ثنائيّة الشرق والغرب

تحاول نظريّة ما بعد الاستعمار فهم الشرق والغرب فهمًا حقيقيًّا، برصد العلاقات التفاعليّة التي توجد بينهما، سواء أكانت تلك العلاقات إيجابيّةً مبنيةً على التسامح والتفاهم والتعايش أم مبنيةً على العدوان والصراع الجدلي والصدام الحضاري، كما يذهب إلى ذلك صموئيل هنتنغتون في كتابه (صراع الحضارات). ويتمظهر الشرق، بشكلٍ جلي، في نصوص وخطابات الاستشراق. ومن ثم، يتحوّل هذا الاستشراق من خطابٍ معرفيّ موضوعيّ إلى خطابٍ سياسيّ كولونيالي ذاتي ومصلحي؛ لذا فقد تسلّح مثقّفو نظريّة (ما بعد الاستعمار) بآليات التفكيك والتقويض لتشتيت المقولات المركزية التي انبنت عليها حضارة الغرب.

المطلب الثاني: مواجهة التغريب

استهدفت نظريّة (ما بعد الاستعمار) محاربة سياسة التغريب والتدجين والاستعلاء التي كان ينهجها الغرب في التعامل مع الشرق، بالاستعانة بعلم الاستغراب الذي ينْصبّ على فهم الغرب وتعرية تصوراته الفكريّة والذهنيّة والمعتقديّة والإيديولوجيّة. ومن ثم، شمّر مثقّفو نظريّة (ما بعد الاستعمار) عن سواعدهم لفضح الهيمنة الغربيّة، وتعرية مرتكزاتها السياسيّة والإيديولوجيّة، مع تبيان نواياها الاستعماريّة القريبة والبعيدة، والتشديد على جشعها المادّي لاستنزاف خيرات الشعوب المقابلة الأخرى؛ لذا، يتّسم الخطاب الثقافي الغربي بنزعة التمركز، وتأكيد خاصيات التفوّق والتمدن والتحضر مقابل خطابٍ دوني يتّصف بالبدائيّة، والشعوذة، والشهوانيّة، والسحر الطقوسي الخرافي.

المطلب الثالث: تفكيك الخطاب الاستعماري

تهدف نظريّة (ما بعد الاستعمار) إلى فضح الخطاب الاستعماري الغربي، وتفكيك مقولاته المركزيّة التي تعبّر عن الغطرسة والهيمنة والاصطفاء اللوني والعرقي والطبقي، باستعمال منهجيّة التشتيت والفضح والتعرية؛ لذا، فقد وجد كُتّاب نظريّة (ما بعد الاستعمار) في تفكيكيّة جاك ديريدا آلية منهجيّة لإعلان لغة الاختلاف، وتقويض المسلَّمات الغربيّة، والطعن في مقولاتها البيضاء ذات الطابع الحلمي الأسطوري. كما تأثروا في ذلك بميشيل فوكو، وكارل ماركس، وأنطونيو غرامشي، وكان إدوارد سعيد رائدهم في ذلك.

المطلب الرابع: الدفاع عن الهويّة الوطنيّة والقوميّة

رفض كُتّاب النظريّة الاستعماريّة ومثقّفوها الاندماج في الحضارة الغربيّة، وانتقدوا سياسة الإقصاء والتهميش والهيمنة المركزيّة، ورفضوا كذلك الاستلاب والتدجين. وفي المقابل، دعوا إلى ثقافةٍ وطنيّةٍ أصيلة، ونادوا بالهويّة القوميّة الجامعة. ومن هؤلاء - مثلا- كُتّاب الحركة الزنجيّة الأفريقيّة ومبدعوها الذين سَخّروا كلّ ما لديهم من آلياتٍ ثقافيّةٍ وعلميّةٍ لمواجهة التغريب، فتشبّثوا بهويّتهم السوداء، ودافعوا عن كينونتهم الزنجيّة الأفريقيّة. وقد رأينا كذلك كُتّاب الفرانكفونيّة بالمغرب العربي يحاربون المستعمر بلغته، ويقوضون حضارته بالنقد والفضح والتعرية، مستخدمين في ذلك لغةً فرنسيّةً مختلطة باللغات الوطنية تهجينًا، وأسلبةً، وسخريّة.

المطلب الخامس: علاقة الأنا بالآخر

ترتكز نظريّة (ما بعد الاستعمار) على مناقشة علاقة الأنا والغير، في ضوء مقاربات (ما بعد الحداثة) كالمقاربة الثقافيّة، والمقاربة الماركسيّة، والمقاربة التاريخيّة الجديدة، والمقاربة السياسيّة، وذلك كلّه من أجل فهم العلاقة التفاعليّة بين الأنا والغير، هل هي علاقةٌ جدليّةٌ سلبيّةٌ قائمةٌ على العدوان والصراع أم هي علاقةٌ إيجابيّةٌ قائمةٌ على الأخوّة والصداقة والتعايش والتسامح؟ وبتعبيرٍ آخر، هل هي علاقةٌ قائمةٌ على العدوان والكراهيّة والإقصاء والصراع الحضاري أم هي علاقة تفاهمٍ وتعاونٍ وتكامل؟

المطلب السادس: الدعوة إلى علم الاستغراب

إذا كان المفكّرون الغربيّون يتعاملون مع الشرق في ضوء علم الاستشراق بوصفه خطابًا استعماريًّا وكولونياليا من أجل إخضاعه حضاريًّا، والهيمنة عليه سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، فإنّ المثقّفين الذين ينتمون إلى نظريّة (ما بعد الاستعمار) كحسن حنفي - مثلاً- يدعون إلى استشراقٍ مضادٍّ، أو ما يسمّى أيضًا بعلم الاستغراب بغية تفكيك الثقافة الغربيّة تشريحًا وتركيبًا، وتقويض خطاب التمركز تشتيتًا وتأجيلاً، وفضح مقصديّة الهيمنة على أسسٍ علميّةٍ موضوعيّة.

المطلب السابع: المقاومة الماديّة والثقافيّة

لم يكتف مثقّفو (نظريّة ما بعد الاستعمار) بقراءة الخطاب الاستشراقي الغربي، بل حاولوا مقاومة المستعمِر بكلّ الوسائل المتاحة، إمّا عن طريق المقاومة السلميّة أو المسلحة، وإمّا عن طريق الاستشراق المضادّ، وإمّا بنشر الكتابات التقويضيّة لتفكيك المفكّرين المتمركزين: الأوروبيّين والأمريكيّين، وفضحهم بشتّى السبل والطرائق، مادام هذا التمركز مبنيًّا على اللون، والعرق، والجنوسة، والطبقة، والدين.

المطلب الثامن: النقد الذاتي

لم يكتف مثقّفو نظريّة (ما بعد الاستعمار) أيضًا بتوجيه النقد إلى الغرب، بل سعوا إلى نقد ذواتهم ضمن ما يُسمَّى بالنقد الذاتي، كما عند الناقد الكيني الأصل عبد الرحمن جان محمد حينما صرّح قائلاً: «أعتقد أنّنا نحتاج إلى الإفصاح بشكلٍ أكثر انتظامًا، عن الواجبات التي تفرضها علينا هذه الوضعيّة البينيّة، وهي واجبات أشعر أنّه يمكن استشعارها من وضعيّة مثقّف (العالم الثالث) في الأكاديميّات الغربيّة. إنّنا لا نزال نكافح ضد الهيمنة المعرفيّة للغرب، لا نزال نحارب الاستعمار، والاستعمار الجديد. ولكن بالمقارنة مع التابع في العالم الثالث، نحن نعيش في ظروفٍ بالغة الرفعة. بعض النقّاد يؤكّدون أنّ نوعًا معينًّا من نظريّة ما بعد الاستعمار يمثّل هو نفسه جزءًا من البنية القائمة على الهيمنة، أي إنّه نوعٌ مستمرٌ ومكررٌ من الاستعمار؛ ولهذا أعتقد أنّه لا بدّ لنا أن نستمر على خطى جاياتري سبيفاك وآخرين، فنتفحص وضعيّة ذواتنا في كلّ هذه النواحي وبشكلٍ أكثر انتظامًا»[1].

يعني هذا أنّ ثمّة مفارقةً بين القول والفعل، وأنّ هناك انفصامًا وجوديًّا وحضاريًّا وطبقيًّا بين مفكّري نظريّة (ما بعد الاستعمار) وواقعهم المتخلّف المزري.

المطلب التاسع: غربة المنفى

يعيش أغلب المثقّفين الذين ينتمون إلى نظريّة (ما بعد الاستعمار) في الغرب منفيين، أو لاجئين، أو محميين، أو معارضين. ومن ثَمَّ، فهم ينتقدون مرةً بلدانهم الأصليّة وواقعها المتخلّف، ومرةً أخرى، يرفضون سياسة التغريب والتهميش والتمركز الغربي. ويعني هذا أنّهم يعيشون تمزّقًا ذاتيًّا وموضوعيًّا، وهم دائمًا في غربةٍ ذاتيّةٍ داخل المنفى المكاني والذاتي والعقلي والنفسي، كما هو حال جوليا كريستيفا وإدوارد سعيد - مثلاً-. وهكذا، يتّحدث إدوارد سعيد - مثلاً - في كتابه (صور المثقّف)، عن حالة المنفى اللاذعة، وهي تعبّر عن فضاء العتبة، فضاء الأزمة والصراع الداخلي. ومن هنا، «فالمنفى بالنسبة للمثقّف - بهذا المعنى الميتافيزيقي – هو حالةٌ من عدم الراحة، حالة حركة، ألّا يستقرّ أبدًا، وألّا يدع الآخرين يستقّرون؛ إذ ليس بإمكانك أن ترجع إلى حالةٍ من حالات وجودك الأولى في وطنك، ربما تكون الحالة الأكثر استقرارًا، كما أنّه ليس بإمكانك أبدًا – ويا للأسف – أن تصل إلى وطنك الجديد أو حالتك الجديدة. ثم يستطرد سعيد في فصول كتابه الصغير، إلى توصيف

1. Theory, Practice and the Intellectual:
A Conversation with Abdul R. Jan Mohamed, by S.X. Goudie, Juvert: A Journal of postcolonial Studies, published by The College of Humanities and social sciences, North Carolina State University, Volume 1, Issue 2, 1997.

وضعيّة ذلك المثقّف المأمول الذي يمكنه أن يقول الحقيقة للسلطة في وجهها»[١].

إذًا، تعد الغربة الذاتيّة والمكانيّة والحضاريّة من العوامل الرئيسة التي دفعت مجموعةً من باحثي الوطن العربي والإسلامي إلى نقد الذات من جهة، ونقد الهيمنة الغربيّة من جهةٍ أخرى.

المطلب العاشر: التعدّديّة الثقافيّة

دافع كثيرٌ من مثقّفي نظريّة (ما بعد الاستعمار) عن التعدّديّة الثقافيّة، ورفضوا التمركز الثقافي الغربي والثقافة الواحدة المهيمنة. كما رفضوا سياسة التدجين والتغريب والإقصاء، ونادوا إلى التنوّع الثقافي والانفتاح الثقافي عبر آليات المثاقفة، والترجمة، والنقد، والتفاعل الثقافي. بمعنى أنّ هناك ثقافاتٍ جديدة إلى جانب الثقافة الغربيّة المركزيّة، كالثقافة العربيّة، والثقافة الآسيويّة، والثقافة الأفريقيّة، والثقافة الأمازيغيّة... بمعنى ليس هناك ثقافةٌ مهيمنةٌ واحدةٌ ووحيدة، بل هناك ثقافاتٌ هجينةٌ متعددةٌ ومتداخلةٌ ومتلاحقة.

٣. روّاد نظريّة ما بعد الاستعمار

ثمّة مجموعةٌ من الكتّاب والنقّاد والمثقّفين الذي يمثّلون نظريّة ما بعد الاستعمار، سواء أكانوا باحثين ينتمون إلى الغرب، أم ينتمون إلى العالم الثالث. ونذكر من الدارسين الشرقيين الأعلام التالية أسماؤهم:

المطلب الأول: إدوارد سعيد

ألّف الكاتب الفلسطيني إدوارد سعيد كتابًا قيّمًا بعنوان (الاستشراق) سنة ١٩٧٨م[٢]؛ حيث استعرض فيه تاريخ الاستشراق الغربي ومراحله التطوريّة، وكتب مقالةً قيّمةً بعنوان (العالم والنصّ والنقّاد) سنة ١٩٨٣م، يدعو فيها إلى دراسة النص في علاقة بعالمه الخارجي. بمعنى أنّ إدوارد سعيد ينتقد «جميع أنماط التحليل النصّي التي عدّت النصوص على أنّها منفصلةٌ عن العالم الموجودة فيه. وفكرة أنّ التحليل النصيّ قد يكون ممكنًا من أجل أن يكون هناك قراءات لانهائيّة وممكنة لأيّ نصٍّ يمكن أن تتحقّق من خلال فصل النص عن العالم الحقيقي»[٣].

ويعد إدوارد سعيد من روّاد علم الاستغراب، ومن محلّلي الخطاب الاستعماري، ومن أهمّ منظّري

1. Said, Edward. Representations of The Intellectual, Vintage Books, New York, 1996,P: 5.

٢. إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة سنة ٢٠٠٥م.

٣. ديفيد كارتر، النظريّة الأدبية، ص١٢٧.

نظريّة (ما بعد الاستعمار)؛ لذلك، توّج بكونه مؤسسًا لهذا الحقل المعرفي الذي يعنى بتفكيك الخطاب الاستعماري أو الكولونيالي الجديد. كما يعدّ أيضًا من رواد النقد الثقافي؛ لأنّه اهتمّ كثيرًا باستكشاف الأنساق الثقافيّة المضمرة في المؤسّسات المركزيّة الغربيّة، بتحليل الخطاب الاستشراقي تفكيكًا وتشريحًا وتقويضًا، متأثّرًا في ذلك بمنهجيّة ديريدا، وميشيل فوكو، وأنطونيو غرامشي.

وينطلق إدوارد سعيد، في كتابه (الاستشراق)، من تعريف الشرق، بتحديد مدلولاته الجغرافيّة والحضاريّة، وتعريف مصطلح الاستشراق في ضوء المفاهيم اللغويّة، والعلميّة، والأكاديميّة، والتاريخيّة، والماديّة. وبعد ذلك ينتقل إلى استعراض تاريخ الاستشراق الغربي في مساراته العلميّة والاستعماريّة، مُركِّزا بالخصوص على الاستشراق الفرنسي، والاستشراق الإنجليزي، والاستشراق الأمريكي الذي ازدهر بعد الحرب العالميّة الثانية. ومن ثم تعامل الباحث مع الاستشراق بوصفه خطابًا للتحليل، معتمدًا في ذلك على نظريات ميشيل فوكو وأنطونيو غرامشي.

وفي هذا الصدد، يقول إدوارد سعيد: «إذا اتّخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطةً للانطلاق محددةً تحديدًا تقريبيًّا، فإنّ الاستشراق يمكن أن يناقش، ويحلّل بوصفه المؤسّسة المشتركة للتعامل مع الشرق- التعامل معه بإصدار تقريراتٍ حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه: وبإيجاز، الاستشراق كأسلوبٍ غربيّ للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه. ولقد وجدت استخدام مفهوم ميشيل فوكو للخطاب، كما يصفه في كتابيه (حفريّات المعرفة) و(المراقبة والعقاب) ذا فائدةٍ هنا لتحديد هوية الاستشراق. وما أطرحه هنا هو أنّنا ما لم نكتنه الاستشراق بوصفه خطابًا، فلن يكون في وسعنا أبدًا أن نفهم الفرع المنظم تنظيمًا عاليًا الذي استطاعت الثقافة الغربيّة عن طريقه أن تتدبر الشرق ـ بل حتى أن تنتجه ـ سياسيًّا، واجتماعيًّا، وعسكريًّا، وعقائديًّا، وتخييليًّا، في مرحلة ما بعد عصر التنوير. وعلاوةً على ذلك، فقد احتلّ الاستشراق مركزًا هو من السيادة بحيث إنّني أومن بأنّه ليس في وسع إنسانٍ يكتب عن الشرق، أو يفكّر فيه، أو يمارس فعلاً متعلّقًا به أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل. ولا يعني هذا أنّ الاستشراق، بمفرده، يقرّر ويحتم ما يمكن أن يقال عن الشرق، بل إنّه يشكّل شبكة المصالح الكليّة التي يستحضر تأثيرها بصورةٍ لا مفرّ منها في كلّ مناسبةٍ يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضعًا للنقاش. أمّا كيف يحدث ذلك؟ فإنّه ما يحاول هذا الكتاب أن يكشفه. كذلك يحاول هذا الكتاب أن يظهر أنّ

الثقافة الغربيّة اكتسبت المزيد من القوة ووضوح الهويّة بوضع نفسها موضع التضادّ مع الشرق بوصفه ذاتًا بديلة»[١].

ومن الناحية المنهجيّة، فلقد اعتمد إدوارد سعيد على دراسة الخطاب الاستشراقي بمنهجيّةٍ فيلولوجيّةٍ تفكيكيّةٍ قائمةٍ على دراسة الأفكار والثقافات والتواريخ ليبرهن على أنّ العلاقة بين الشرق والغرب مبنيةٌ على القوة والسيطرة والهيمنة المعقّدة المتشابكة. ومن ثم، يرى إدوارد سعيد أنّه «ينبغي على المرء ألّا يفترض أبدًا بأنّ بنية الاستشراق ليست سوى بنيةٍ من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا كان للحقيقة المتعلّقة بها أن تجلى. وأنا نفسي أؤمن بأنّ الاستشراق أكثر قيمةً بشكلٍ خاصٍّ كعلامةٍ على القوّة الأوروبيّة - الأطلسيّة - بإزاء الشرق منه كخطابٍ حقيقيّ عن الشرق (وهو ما يدعي إليه الاستشراق، في شكله الجامعي أو البحثي). على أي حالٍ، إنّ ما علينا أن نحترمه ونحاول أن ندركه هو القوّة المتلاحمة للخطاب الاستشراقي، وعلاقاته الوثيقة بالمؤسسات الاجتماعيّة والسياسيّة المعزّزة، وقدرته المهيبة على البقاء»[٢].

وعليه، فلقد تمثّل إدوارد سعيد منهجيّة ميشيل فوكو في دراسة الخطاب، ثم استحضر أفكار أنطونيو غرامشي في التمييز بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، والحديث عن التسلّط الثقافي. من ثم، يمثّل الاستشراق الغربي نوعًا من التسلّط الثقافي؛ لأنّه يؤكّد التفوق الأوروبي مقابل التخلّف الشرقي، ويبيّن أيضًا أنّ للغرب اليد العليا على الشرق تنويرًا، وتعليمًا، وتثقيفًا، وتمدينًا.

وقد استند إدوارد سعيد، في تعامله مع الخطاب الاستشراقي، إلى رؤيةٍ ثقافيّةٍ سياسيّةٍ قائمةٍ على ثلاث خطواتٍ منهجيّةٍ هي:

أولًا: التمييز بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسيّة.

وثانيًا: الاهتمام بالمسألة المنهجيّة في التعامل مع الأفكار والمؤلّفين والمراحل التاريخيّة، بالتركيز على الاستشراق الاستعماري للشرق، سواء أكان فرنسيًا، أم بريطانيًا، أم أمريكيًّا.

وثالثًا: البعد الشخصي الذي يتمثّل في الجمع بين الموضوعيّة والذاتيّة القائمة على الوعي النقدي، مع الاستعانة بأدوات البحث التاريخي، والسياسي، والإنساني، والثقافي.

وفي الأخير، يبيّن إدوارد سعيد أنّ كتابه (الاستشراق) موجّهٌ إلى مجموعةٍ من القرّاء، بما فيهم

١. إدوارد سعيد، الاستشراق، ص٣٨-٣٩.

٢. المصدر السابق، ص٤١.

طلّاب الأدب والنقد لتبيان العلاقات المتداخلة بين المجتمع والتاريخ والنصوص، وفهم الدور الثقافي الذي يقوم به الشرق في الغرب، مع الربط بين الاستشراق وبين العقيدة والسياسة ومنطق القوة. كما يقدّم الكتاب إلى القارئ العام وقارئ العالم الثالث؛ حيث تطرح هذه الدراسة بالنسبة له خطوةً لا نحو فهم السياسة الغربيّة والعالم الغربي في هذه السياسة، بل نحو فهم قوة الخطاب الثقافي الغربي، وهي قوة كثيرًا جدًّا ما تفهم خطأً على أنّها زخرفيّة فقط، أو منتمية إلى البنية الفوقيّة. «إنّ أملي هو أنّ أوضح البنية المتينة الصلبة للسيطرة الثقافيّة والأخطار والإغراءات الكامنة في استخدام هذه البنية، خصوصًا بالنسبة للشعوب المستعمَرة سابقًا، عليهم أو على الآخرين»[١].

إذًا، لقد تأثّر إدوارد سعيد بفكر (ما بعد الحداثة) بصفةٍ عامّة، وفكر ميشيل فوكو بصفةٍ خاصّة، دون أن ننسى تأثرّه بالتاريخ الجديد، وفلسفة جاك دريدا التفكيكيّة والتقويضيّة. وقد ربط إدوارد سعيد خطابه الاستشراقي بنزعة التباين والاختلاف بين الشرق والغرب؛ فقد تسلّح الغرب بكلّ مقولاته المركزيّة وآلياته البنيوية لإخضاع الشرق والهيمنة عليه سياسيًّا، وعسكريًّا، واجتماعيًّا، وثقافيًّا، وعلميًّا. ومن ثم، يقوم الاستشراق بدورٍ مهمٍ في عملية الإخضاع والاستيلاء والتغريب، بربط الشرق بأغراض المصلحة الغربيّة. ومن ثم، يتبجح الاستشراق الغربي بالصفات الرشيدة للحضارة الغربيّة التي تتمثّل في الديمقراطيّة على سبيل الخصوص. بينما يعرّف الشرق بالصفات الذميمة كالشهوانيّة، والبدائيّة، والاستبداديّة. ومن ثم، فالغرب عند إدوارد سعيد هو العقل، والمركز، والاستشراق.

ومن هنا، يطرح إدوارد سعيد سؤالاً مهمًّا وقيّمًا: هل كتَّاب السكّان الأصليين في إطار النظريّة الجديدة يتمثّلون النظريّة الغربيّة أم يعارضونها؟ بمعنى هل يرفضون الثقافة السائدة؟ أم يخضعونها لمشرح التفكيك والتقويض بالمفهوم الدريدي نسبة إلى تفكيكيّة جاك ديريدا؟!!

ويرى ديفيد كارتر (David Karter)، في كتابه (النظريّة الأدبية)، أنّ تحليلات إدوارد سعيد «للخطابات الاجتماعيّة المختلفة هي بشكلٍ أساسيّ تفكيكيّة وضدّ التيار. فقد كان هدفه تهميش الوعي للعالم الثالث، وتقديم نقدٍ من شأنه أن يقوّض هيمنة خطابات العالم الأول. بالنسبة لسعيد، جميع تمثيلات المشرق المقدّمة من قبل الغرب تشكّل جهدًا دؤوبًا يهدف إلى الهيمنة والإخضاع. وقد خدم الاستشراق أغراض الهيمنة الغربيّة (بالمعنى الذي قصده غرامشي): لإضفاء الشرعيّة على الإمبرياليّة، وإقناع سكّان هذه المناطق بأنّ قبولهم للثقافة الغربيّة هي عمليّة تمدينٍ إيجابيّة. ومن خلال تعريف الاستشراق للشرق، فإنّه يعرِّف أيضًا كيف يتصوّر الغرب نفسه (وذلك من

١. المصدر السابق، ص٥٧.

خلال المعارضات الثنائية). فالتشديد على الشهوانيّة والبدائيّة والاستبداديّة في الشرق، يؤكد على الصفات الرشيدة والديمقراطيّة عند الغرب»[١].

وما يلاحظ على إدوارد سعيد أنّه قد أهمل الاستشراق الإسباني، على الرغم من طابعه الاستعماري في المغرب على سبيل الخصوص. كما نعدّه المؤسّس الحقيقي للنظريّة (ما بعد الاستعمار) في الحقلين الثقافيين: العربي والغربي على حدٍّ سواء. ويعد كذلك الممّهد الفعلي للنقد الثقافي. ومن هنا، «يأتي إدوارد سعيد في طليعة محلّلي الخطاب الاستعماري، بل ويعدّه بعضهم رائد الحقل، فقد استطاع بمفرده في كتابه (الاستشراق) كما كتب أحد الدارسين مؤخّرًا: أن يفتتح حقلاً من البحث الأكاديمي هو الخطاب الاستعماري. (باتراك ويليامز). ذلك أنّ دراسة سعيد للاستشراق دراسة لخطابٍ استعماريّ، خطاب تلتحم فيه القوّة السياسيّة المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي. غير أنّ تحليل سعيد جاء مرتكزاً على سياقٍ معرفيّ وبحثيّ سابقٍ له يتضمّن أعمال اثنين من المفكّرين الأوروبيين المعاصرين، هما: الفرنسي ميشيل فوكو والإيطالي أنطونيو غرامشي. ومن الممكن والحال كذلك اعتبار هذين المفكرين ممّن وضعوا أسس البحث في الخطاب الاستعماري، بالإضافة إلى بعض فلاسفة مدرسة فرانكفورت مثل: ثيودور أدورنو، وماكس هوركهايمر، وكذلك والتر بنجامين، وحنَّة أريندت»[٢].

ومن هنا، فكتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد خير نموذجٍ يعبّر عن نظريّة ما بعد الاستعمار، مادام هذا الكتاب خطابًا مضادًّا للاستشراق الغربي؛ لكونه يحوي انتقاداتٍ واعيةً ولاذعةً لخطاب التمركز الغربي تقويضًا وتفكيكًا وتشتيتًا. و«هناك شبه إجماعٍ بين الدارسين على الدور المؤسّس الذي لعبه كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق)، في صياغة اللبنات الأولى لنظريّة ما بعد الاستعمار. فقد استثار هذا الكتاب بما طرحه من أفكار، طائفة أخرى واسعة من الكتابات التي ناقشت هذه الأفكار، أو ردت عليها، أو طورتها، سواء كتابات اللاحقين من منظّري ما بعد الاستعمار مثل: وهومي بابا، وجاياتري سبيفاك، أو من تصدّوا للنظريّة من منظورٍ مخالفٍ، وكشفوا عن تناقضاتها، مثل إعجاز أحمد وعارف ديليرك. وقد شارك إدوارد سعيد بعد ذلك في تطوير النظريّة وتأملها، من خلال كتاباته ومراجعاته المتعدّدة التالية لكتاب الاستشراق، وخاصّةً في كتب مثل: (الثقافة والإمبريالية)، و(صور المثقّف)،

١. المصدر السابق، ص١٢٦.

٢. سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٩٢.

و(تأملات حول المنفى) وغيرها. وكان أن انتهت هذه الكتابات جميعًا، وفي زمنٍ قصيرٍ نسبيًا، إلى بلورة حقلٍ ثقافيّ جديدٍ يعرف الآن باسم ما بعد الاستعمار»[١].

وعليه، يُعَدُّ إدوارد سعيد المؤسّس الفعلي لنظريّة ما بعد الاستعمار في فترة ما بعد الحداثة، ومن الممهدين الفعليين للنقد الثقافي وعلم الاستغراب على حدٍّ سواء.

المطلب الثاني: هومي بابا

أمّا الباحث الهندي هومي بابا (Bhabha, Homi)، فقد تأثّر كثيرًا بإدوارد سعيد، ومشيل فوكو، وجاك ديريدا، وجاك لاكان... فقد اهتمّ بالنصوص التي تستكشف هامش المجتمع في عالم مابعد الاستعمار[٢]، برصد العلاقات الخفيّة والمتبادلة بين الثقافات المهيمنة والمستعبدة، ولا سيّما في مجلده (مركز الثقافة) (١٩٩٤م). ويرى هومي بابا أنّ «التفاعل بين المستعمِر (بكسر الراء) والمستعمَر (بفتح الراء) يؤدّي إلى انصهار المعايير الثقافيّة التي تؤكّد السلطة الاستعماريّة، بل وتهدد أيضًا في محاكاتها بزعزعة استقرارها. وهذا ممكن لأنّ هويّة المستعمر في حدّ ذاتها غير مستقرة، إذ توجد في وضعٍ معزولٍ ومغترب، كما توجد هويّة المستعمر بحكم اختلافها. فهي تتجسد فقط في الاتصال المباشر مع المستعمر. وقبل ذلك، فإنّ حقيقتها الوحيدة موجودةٌ في إيديولوجيّة الاستشراق كما عرفها سعيد»[٣].

ومن هنا، يُعدّ هومي بابا من رواد نظريّة ما بعد الاستعمار وعلم الاستغراب على حدٍّ سواء؛ إذ واجه الغرب بمنطق الفكر التفكيكي، ومشرح النقد، وسلاح التقويض، ومنهج التشكيك.

---

١. خيري دومة: (عَـدْوَى الرَّحِيل، موسم الهجرة إلى الشمال ونظريّة «مـا بعـد الاستعمار»)،

http://www.ibn-rushd.org/forum/Adwa-al-Raheel.htm

2. Bhabha, Homi K.: Locations of Culture: Discussing Post-Colonial Culture. London: Routledge, 1996.
- Nation and Narration. New York: Routledge, 1990.
- Of Mimicry and Man: The Ambivalence of Colonial Discourse, October 28 (1984): 125 -33.
- The Postcolonial Critics Homi Bhabha Interviewed by David Bennett and Terry Collits, Arena 96 (1991): 47- 63.

٣. ديفيد كارتر، النظريّة الأدبية، ص:١٢٧-١٢٨.

المطلب الثالث: جسي سي سبيفاك

تعدّ الناقدة الهنديّة جي سي سبيفاك[1] (Spivak, Gayatri Chakravorty) من المؤسّسين الفعليين للخطاب الكولونيالي الجديد. وتعدّ كذلك أوّل منظّرةٍ نسويّةٍ بحقّ في مرحلة (ما بعد الاستعمار)؛ فلقد انتقدت الحركة النسويّة الغربيّة انتقادًا عنيفًا بتركيز «اهتماماتها على عالم البيض من الطبقة المتوسطة ومن جنسين مختلفين. وتهتم سبيفاك أيضًا بدور الطبقة الاجتماعيّة، وقد ركّزت على ما أصبح يعرف في دراسات (ما بعد الاستعمار) باسم: (الأتباع)، وهو في الأصل مصطلحٌ عسكريٌّ يشير إلى أولئك الذين هم في مرتبةٍ أو مكانةٍ أدنى. وإنّ استخدام هذا المصطلح في النظريّة النقديّة مستمدٌّ من كتابات الكاتب غرامشي. وتستخدم سبيفاك هذا المصطلح للإشارة إلى جميع المستويات المتدنية من المجتمع الاستعماري وما بعد الاستعماري: العاطلين عن العمل والمشرّدين والمزارعين الذين يعيشون من مورد رزقهم وما إلى ذلك»[2].

وتستند سبيفاك إلى منهجيّةٍ تحليليّةٍ نسويّةٍ تفكيكيّةٍ ماركسيّةٍ ثقافيّة، وخاصّة في مقالها (هل يمكن للتابع أن يتحدّث؟) (١٩٨٨م)، مركّزةً على وضعيّة المرأة الهنديّة، أو ما يسمّى بالإناث التابعات، فتناقش سبيفاك «أنّه في الممارسة الهنديّة التقليديّة كحرق الأرامل على محارق أزواجهن الجنائزيّة، لم يسمح الهنود ولا المستعمِر البريطاني للنساء بالتعبير عن آرائهن الخاصّة»[3].

وعليه، فلقد اهتمّت سيباك بالدفاع عن المرأة الشرقيّة، ومواجهة الهيمنة الغربيّة، والدفاع عن المهاجر، والاهتمام بالأدب والثقافة.

المطلب الرابع: عبد الوهاب المسيري وحسن حنفي

استهدف كثيرٌ من المفكّرين العرب تعرية النسق الحضاري الغربي، وتقويض مقولاته المركزيّة، وتفكيك مقاصده الإيديولوجيّة، كما فعل عبد الوهاب المسيري في كتابه (موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونيّة: نموذج تفسيريّ وتصنيفيّ جديد)، وما فعله في كتابه (الإيديولوجيّة الصهيونيّة: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة) (١٩٨٣م)، وما أنجزه حسن حنفي في كتابه (مقدّمة في علم الاستغراب) (١٩٨١م)؛ حيث حاول «فكّ عقدة النقص التاريخيّة في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء

1. Spivak, Gayatri Chakravorty. A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present, Cambridge, MA: Harvard UP, 1999.

٢. ديفيد كارتر، النظريّة الأدبية، ص:١٢٨.

٣. ديفيد كارتر، النظريّة الأدبية، ص:١٢٨.

على مركّب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذاتٍ دارسٍ إلى موضوعٍ مدروس. غير أنّنا رأينا هذه العقدة، وقد أخذت طريقها إلى الحلّ فعلاً في دراسات إدوارد سعيد وعبد الوهاب المسيري وغيرهما. ولم يكن البحث والتحليل الطريقين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما الدارسون لفك العقدة المشار إليها؛ فبالإضافة إلى ذلك لعبت الترجمة دورًا حين اعتنت بما يتصل بهذه العقدة، ويؤدّي إلى حلّها، كما في ترجمة عبد الوهاب المسيري لكتاب المؤرّخ الأمريكي كيفن رايلي (الغرب والعالم) (١٩٨٥م) الذي يبرز بعض أوجه الخلل في الثقافة الغربيّة، فيعريها ممّا تبدو عليه أحيانًا من تفوّقٍ مطلقٍ وصلاحيّة عالميّة»[١].

هذا، ويُعدّ حسن حنفي من أهمّ روّاد علم الاستغراب العربي، فقد كان هدفه هو مواجهة الاستشراق بفهمه بشكلٍ جيّد، واستيعاب منظومته الفكريّة والفلسفيّة والعلميّة لتبيان مظاهر قوّة الغرب وضعفه.

المطلب الخامس: فرانز فانون

لا تقتصر نظريّة (ما بعد الاستعمار) على كُتّاب آسيا وأفريقيا. فهناك باحثون من الغرب، مثل: فرانز فانون (Frantz Fanon)، وهو من الكُتّاب السابقين الذين ارتبطوا بنظريّة ما بعد الاستعمار بوجه من الوجوه، كما يظهر ذلك جليًّا في كتابه (المعذّبون في الأرض) (١٩٦١م)؛ حيث يحلل فانون طبيعة الاستعمار الكولونيالي، ويبيّن طابعه الذاتي والمصلحي، على أساس أنّ الاستعمار مصدر للعنف والإرهاب؛ وذلك ممّا يولّد مقاومةً مضادّةً من قبل الشعوب المستضعَفة، أو البلدان المستعمَرة. ومن ثم، ينتقد فرانز فانون الأنظمة الاستعماريّة الكولونياليّة الغربيّة. ويثور على المنظومة الغربيّة التي ينتمي إليها، عادًّا إيّاها رمزًا للتسلّط الثقافي، ومنظومةً مركزيّةً مبنيةً على قوّة العلم والثقافة والتكنولوجيا بغية الهيمنة والسيطرة، وإخضاع الشرق ماديًّا ومعنويًّا.

وخير من يمثل الردّ الفعلي المباشر على التغريب الاستعماري والتسلط الثقافي المركزي الغربي الحركات الثقافيّة المضادّة، كالحركة الزنجيّة التي يتزعمها كتّاب أفريقيا، مثل: الشاعر السينغالي ليوبولد سيدار سينغور، وإيمي سيزير (Césaire Aimé) في كتابه (خطاب حول الكولونياليّة)(١٩٥٠م)، وكوام نيكروما (Kwame Nkrumah) في كتابه (نظريّة الوعي) (١٩٧٠م)، والمبدعين السودانيين: الشاعر محمد الفيتوري الذي خصّ أفريقيا بمجموعةٍ من الدواوين الشعرية الوطنيّة والقوميّة كما في

١. سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٩٤.

ديوان (أغاني أفريقيا)[١]، والروائي الطيّب صالح كما في روايته (موسم الهجرة إلى الشمال)...

ويذهب فرانز فانون إلى أنّ نظرة الغرب إلى أفريقيا قائمةٌ على صورةٍ استعلائيّة. وفي هذا السياق، يقول: «كانت تلك القارّة المترامية الأطراف (يقصد أفريقيا) في نظر الاستعمار مأوًى للمتوحشين، موطنًا يحفل بالهرطقة والأباطيل، ومكرّسًا للازدراء الكبير، للعنة الربانيّة، موطنًا لآكلي لحوم البشر، موطنًا للزنوج»[٢].

ومن هنا، فقد جاءت الحركة الزنجيّة الأفريقيّة في الحقيقة لتواجه التغريب والاسترقاق والاستعمار والميز العنصري من جهة، والتغنّي بالحريّة والهويّة والثورة والإنسان من جهةٍ أخرى.

المطلب السادس: روبرت يونغ

يمكن الحديث أيضًا عن الباحث الإنجليزي روبرت يونغ (Robert JC Young)، صاحب كتاب (ميثولوجيات بيضاء: كتابة التاريخ والغرب) (١٩٩٠م). فلقد استهدف تقويض التمركز الغربي، وتفكيك الفكر الماركسي الغربي، بإعادة كتابة تاريخ الفكر الغربي من هيغل إلى ميشيل فوكو؛ حيث يرى أنّ التمركز الغربي أسطورةٌ ليس إلّا. ويعد روبرت يونغ من رواد الخطاب الكولونيالي الجديد، ومن الفاعلين في مجال النقد والأدب والتاريخ. وقد انتقد يونغ الفكر الماركسي بوصفه المبرّر والمسوّغ الشرعي والفلسفي لدخول بريطانيا للهند؛ إذ عدّ ذلك ظاهرةً إيجابيّةً لإدخال الهند في سياق التمدّن والتحضر. ومن ثم، فلقد اتّخذ الفكر الماركسي طابعًا هيغليًّا يجعل من الغرب مركزًا للقيادة والعلم والمعرفة. كما اعتمد يونغ على التفكيكية في تقويض الماركسية. و«يذكرنا هذا بأنّ تحليل الخطاب الاستعماري أو نظريّة (ما بعد الاستعمار) يتقاطع مع العديد من المناهج وحقول البحث الثقافيّة الغربيّة المعاصرة، وذلك بوصفه هو الآخر واقعًا تحت مظلّة الفكر ما بعد الحداثي وما بعد البنيوي»[٣].

إذًا، هؤلاء هم بعض الروّاد الذين مثلوا نظريّة ما بعد الاستعمار، سواء أكان ذلك في الشرق أم في الغرب. وقد بذلوا فعلاً جهدًا مشكورًا في تعرية الخطاب الاستشراقي المركزي، وفضحه تفكيكًا، وتقويضًا، واستغرابًا، وتشتيتًا.

---

١. محمد الفيتوري: ديوان محمد الفيتوري، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م.

2. Franz Fanon: Les Damnés de la Terre de la terre, première édition: 1961,p:145.

٣. سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٩٣.

٤. تقويم نظريّة ما بعد الاستعمار

يتّضح لنا، من هذا كلّه، أنّ نظريّة (ما بعد الاستعمار) قد سخّرت كلّ آلياتها الفكريّة والمنهجيّة والمعرفيّة لتقويض الرؤية المركزيّة عند الغربيين، بإعادة النظر في كثيرٍ من المسلّمات والمقولات المركزيّة الغربيّة بالمراجعة، والدرس، والتحليل، والتقويم في إطار ما يُسمّى بعلم الاستغراب. وقد أعيد النظر كذلك في خطاب الاستشراق بالتحليل والتفكيك والنقد الواعي. بيد أنّ هذه النظريّة هي خليطٌ من المناهج والتحليلات، قائمة على الانتقاء والاصطفاء المنهجي. كما أنّ عيّنات البحث محدودةٌ كما عند إدوارد سعيد، ولم تأتِ هذه النظريّة بالجديد مقارنةً بنظريات الخطاب الاستعماري الكلاسيكي.

وقد تعرّض أصحابها لانتقاداتٍ عميقةٍ وواسعة، بعضها أخلاقي، وبعضها علمي، واتّهموا هذه النظريّة بالإخفاق، كما تنطوي هذه النظريّة على مجموعةٍ من التناقضات والمفارقات، وانفصام بين القول والفعل، وانفصالٍ شاسعٍ بين النظريّ والواقعيّ.

الخاتمة

وخلاصة القول، نستنتج ممّا سبق، أنّ نظريّة (ما بعد الاستعمار) نظريّةٌ تسلّح بها كُتّاب العالم الثالث بعد الحرب العالميّة الثانية، وخاصة كُتّاب آسيا وأفريقيا، لمجابهة التمركز الغربي، وتقويض المقولات الفكريّة الأوروبيّة والأميركيّة تقويضًا وتشتيتًا وتأجيلاً، بآلياتٍ منهجيّةٍ متداخلة: تفكيكيّة، وثقافيّة، وسياسيّة، وتاريخيّة، ومقارنة...

إنّ نظريّة (ما بعد الاستعمار) هي حركةٌ ثقافيّةٌ مضادّةٌ ومقاومة، ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة للوقوف في وجه التغريب، والتهميش، والتعالي، والهيمنة الغربيّة المغلوطة انطلاقًا من تصوّرات علم الاستغراب.

لم تقتصر الكتابة في النظريّة الكولونياليّة الجديدة على كتّاب العالم الثالث، فقد توسّعت لتضم كتّابًا من المنظومة الغربيّة الذين ثاروا على الثقافة البيضاء، فعدّوها ثقافةً أسطوريّةً حالمةً وخياليّةً، مبنيةً على خطاب الإخضاع والاستعلاء والهيمنة والاستعمار من جهة، والتمييز اللونيّ والعرقيّ والجنسيّ والدينيّ والطبقيّ من جهةٍ أخرى.

المصادر

المصادر باللغة العربيّة

١. سعيد، إدوارد، الاستشراق، (ترجمة: كمال أبو ديب)، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت، الطبعة السابعة، ٢٠٠٥م.

٢. البازعي والرويلي، سعد وميجان، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م.

٣. الفيتوري، محمد، ديوان محمد الفيتوري (المجلد الأول)، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

٤. كارتر، ديفيد، النظريّة الأدبية، دار التكوين، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٥. دومة، خيري، عَدْوَى الرَّحِـــــــيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظريّة «مـا بعـد الاستعمار»، موقع مؤسسة ابن رشد، (د.ت).

المصادر باللغة الإنجليزيّة

6. Ashcroft et al., Bill Ashcroft, Gareth Griffiths, and Helen Tiffin, The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures, Routledge, London and New York, 1989.

7. Bahri, Deepika, Introduction to Postcolonial Studies, Emory University (online), Fall 1996.

8. Jan Mohamed, Abdul R., Theory, Practice and the Intellectual: A Conversation with Abdul R. Jan Mohamed, (by S.X. Goudie), Juvert: A Journal of postcolonial Studies, North Carolina State University, Vol 1, Issue 2, 1997.

9. Said, Edward, Representations of The Intellectual, Vintage Books, New York, 1996.

10. Bhabha, Homi K., Locations of Culture: Discussing Post-Colonial Culture, Routledge, London, 1996.

11. Bhabha, Homi K., Nation and Narration, Routledge, New York, 1990.

12. Bhabha, Homi K., Of Mimicry and Man: The Ambivalence of Colonial Discourse, October 28, 1984.

13. Bhabha, Homi K., The Postcolonial Critics: Homi Bhabha Interviewed by David Bennett and Terry Collits, Arena 96, 1991.

14. Spivak, Gayatri Chakravorty, A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1999.

15. Fanon, Franz, Les Damnés de la Terre, Maspero (Original Edition), 1961.

Post-Colonial Theory: The Thesis in the Service of Occidentalism

Dr. Jamil Hamdaoui

Abstract

This research examines post-colonial theory as an intellectual and critical movement that emerged during the postmodern era to subvert Eurocentrism and emancipate subordinate cultures from the grip of imperial hegemony. The author highlights the epistemological foundations of the theory, elucidating its pivotal role in analyzing colonial discourse and deconstructing the inherent dichotomies of the «Self and Other» and the «East and West.» Specifically, the study focuses on the transformation of this theoretical framework into an instrument serving the discipline of Occidentalism, which systematically aims to position the West as an «object» of critical study rather than exclusively retaining its status as an observing «subject.» Furthermore, the paper reviews the foundational contributions of prominent pioneers within this field, including Edward Said›s seminal critique of Orientalism, Homi Bhabha›s formulation of hybridity, Gayatri Spivak›s rigorous defense of the subaltern, and Frantz Fanon›s profound analysis of colonial violence. Ultimately, the research concludes that post-colonial theory constitutes a vital cultural resistance movement striving to reclaim national identity and affirm cultural pluralism against entrenched policies of Westernization and systemic marginalization, notwithstanding the various methodological and empirical criticisms it has encountered.

Keywords: post-colonialism, Orientalism, Eurocentrism, Occidentalism, cultural discourse.

The Historical Misrepresentation of Islam and Muslims: A Descriptive Review of Hollywood

Dr. Noreen Ubaida, Dr. Nazar Shabana, and Mustafa Nayyar (Reviewed by: Jamal Ammar)

Abstract

This research paper seeks to uncover the historical roots underlying the distorted mental imagery of the Islamic world perpetuated by Hollywood films. Over several decades, Hollywood cinema has consistently propagated a static, distorted, and derogatory stereotype of Arab Muslims, rendering it imperative to systematically explore the historical origins of such misrepresentations. Employing a qualitative methodology via a descriptive review of Hollywood cinematography, this study reveals that while various ethnic groups may occasionally be subjected to negative portrayals, specific demographics—most notably Arabs and Arab Americans—endure as perpetual victims of these degrading depictions. Furthermore, historical analysis elucidates numerous catalysts for ideological conflict that intrinsically correlate with the systemic misrepresentation of Islam and Muslims; these include the historical legacy of the Crusades, colonial enterprises, post-World War II geopolitical realignments, the proliferation of neoliberalism, and the structural shift .of global hegemonic power from Europe to the United States

Keywords: Hollywood, historical misrepresentation, Orientalism, stereotypes, Islamophobia.

A Study of the Jihadist Biography of Sayyid Abdul Razzaq Al-Hulw

Sayyid Khalid Al-Hulw

Abstract

Grand Ayatollah Sayyid Abdul Razzaq Al-Hulw (1275–1337 AH) exemplifies a profound paradigm of the scholar-combatant, seamlessly integrating profound jurisprudential expertise with active battlefield leadership. Reared in the holy city of Najaf, he was mentored by preeminent scholars, including Al-Mamqani and Al-Rashti, ultimately attaining the distinguished rank of absolute Ijtihad. His religious authority (Marja'iyya) transcended academic theology; he notably became the first Mujtahid to deploy to the front lines in Basra in 1332 AH to actively resist the British occupation. His pivotal role was characterized by the mobilization of southern Iraqi tribes via impassioned correspondence and religious edicts (fatwas), as well as his direct field command of resistance operations from his headquarters in Al-Arda, Al-Qurna, extending to the Kut front. Furthermore, he was a prominent participant in the Second Scholars› Awakening. Notably, Sayyid Al-Hulw categorically rejected all forms of Ottoman logistical support, relying exclusively on the autonomous resources of the resistance fighters. He consistently affirmed that his armed struggle was fundamentally rooted in a sacred religious obligation to safeguard the sanctity of Islam and secure national sovereignty, thereby projecting a formidable image of a religious leadership inextricably bound to the existential struggles of its constituency.

Keywords: collective jihad, British occupation, southern tribes, religious authority, contemporary Iraqi history.

A Critical Reading of the Book The Dilemma of Colonial Development: Perspectives on the Claims of Colonial Positives

Mustafa Al-Shammari

Abstract

The author presents a critical analysis of discourses that justify colonialism or advocate for its resurgence, systematically deconstructing arguments that emphasize its purported developmental «achievements» while obfuscating its strategic perils. Furthermore, the text elucidates how colonial powers historically executed long-term stratagems to advance their own interests, frequently leveraging local elites who rationalized such subjugation under the guise of pursuing scientific and technological modernization. Contrasting the victims› narrative—which underscores the profound legacy of devastation and underdevelopment—a revisionist trend has emerged that attributes subsequent failures and crises exclusively to the post-colonial national state. This perspective neglects the historical reality that these national states initially materialized as alternatives to colonialism amid objective conditions that precluded its direct perpetuation. Moreover, the internal structural dynamics of these states inadvertently contributed to reproducing the paradigm of the «fragmented state» across various nationalistic or religious iterations. The author concludes that attempts to rehabilitate the colonial legacy fundamentally ignore its contemporary mutation into «neocolonialism,» characterized by indirect hegemony facilitated through local proxies. Inherently driven by self-interest, colonialism may yield incidental benefits for subjugated populations, yet it fundamentally retains its core logic of monopolization and absolute dominance.

Keywords: colonialism, colonial development, colonial positives, Ottoman Empire, United States.

The Laghouat Holocaust: French Colonialism and Genocide in Algeria

Dr. Sherif El-Din Bin Douba

Abstract

Genocides, including the Laghouat Holocaust in Algeria, serve as a profound manifestation of colonial ideology predicated on assertions of Western supremacy and ethnocentrism. Within this paradigm, indigenous populations and regional wealth are subjugated to serve colonial centralization, while cultural facades are deployed to obfuscate such aggressive conduct. This paper examines the genocide perpetrated by French colonial forces in the city of Laghouat, an atrocity that resulted in the extermination of two-thirds of the local populace. This massacre transcended conventional military operations; rather, it constituted a calculated strategic initiative designed to monopolize the region›s substantial energy resources, notably Hassi R›Mel. During this siege, the French military utilized draconian tactics, specifically deploying chloroform gas to incapacitate civilians prior to incinerating them and disposing of their remains in local wells. Consequently, this historical event is definitively categorized as a comprehensive war crime and a fully realized genocide. This categorization has received symbolic recognition from France, evidenced by the inauguration of a commemorative plaque on Rue de Laghouat in Paris by Mayor Anne Hidalgo, which stands as a lasting testament to the pervasive brutality of the colonial epoch.

Keywords: Laghouat holocaust, genocide, Algerian society, chemical weapons.

The Role of Al-Azhar Scholars in Resisting French and British Colonialism

Dr. Ghaidan Al-Sayed Ali

Abstract

Religious scholars in Egypt—graduates of the venerable Al-Azhar, functioning as both a mosque and a university—actively confronted the colonial incursions targeting the nation. These included the French occupation at the close of the eighteenth century in 1798, and the subsequent British colonization during the latter decades of the nineteenth century in 1882. These scholars astutely recognized a fundamental reality: while direct military invasion pursues material domination and the expropriation of sovereign wealth, the quintessential colonial project ultimately seeks to distort indigenous cultures and eradicate native identities, most notably the Islamic identity. Consequently, religious scholars played a prominent role in countering colonialism alongside its accompanying political and cultural subjugation. This steadfast resistance was unequivocally manifested throughout the nation›s grassroots struggles for liberation. During these conflicts, colonial powers employed draconian and brutal measures, including summary executions, post-mortem mutilations, systemic torture, arbitrary imprisonment, asset confiscation, and the punitive demolition of entire residential quarters upon their inhabitants. Ultimately, the opposition mounted by Al-Azhar scholars stood as a vital bulwark against colonial actions that reflected a profound barbarism, fundamentally antithetical to the most basic tenets of humanity.

Keywords: religious scholars, Al-Azhar, First Cairo Revolt, Second Cairo Revolt, 1919 Revolution, July 1952 Revolution.

The Zaatcha Revolt in the Algerian Popular Resistance: A Turning Point in 1849

Zineb Rezioui

Abstract

This research examines the resistance of the Zaatcha oasis (1849) in Biskra as a paradigm of popular resistance against the French occupation in the Algerian south. Despite its brief duration, this uprising represented a pivotal historical juncture due to its legendary steadfastness in the face of a suffocating siege and massive colonial forces. The study aims to elucidate the dimensions of this battle, which ultimately culminated in the mass extermination of the local population yet constituted the initial threshold of colonial penetration into the Sahara. Furthermore, the research posits a central problematic regarding the magnitude of the resistance›s impact and resonance on subsequent revolts, systematically investigating its underlying causes, the pivotal role of its leader, Sheikh Bouzian, alongside its primary phases and outcomes. By employing a historical-analytical methodology, the study endeavors to bridge the past with the present, shedding light on this distinguished episode within the annals of Algerian heroism for freedom and dignity. Ultimately, the research affirms that the Zaatcha uprising was not merely a military defeat, but rather a profound paradigm of resistance and sacrifice that inspired successive generations.

Keywords: Zaatcha resistance, Sheikh Bouzian, French occupation, Algerian south, popular resistance.

The Evolution of the Egyptian Economy from the First World War to the 1952 Revolution: The Dilemma of Colonial Dependency

Dr. Sharif Emam

Abstract

This research examines the trajectory of the Egyptian economy, which originated in a state of absolute dependency on the British occupation. Prior to the First World War, foreign capital controlled 91% of corporate assets, with production entirely geared toward a cotton monoculture and the national currency pegged to the British pound sterling. The First World War and the subsequent 1919 Revolution constituted a critical turning point, precipitating the emergence of a local bourgeoisie—spearheaded by the establishment of Banque Misr in 1920—that advocated for national industrialization. Nevertheless, this bourgeoisie remained constrained by the dialectic between its aspiration for autonomy and the imperative to partner with resident foreign capital. The 1930s introduced novel opportunities through the enactment of the 1930 customs tariff, which safeguarded nascent industries; however, this decade simultaneously witnessed the curtailment and political marginalization of Banque Misr›s influence. By 1952, although the economy had secured notable gains such as the partial Egyptianization of corporations and the abolition of foreign capitulations, the hegemony of large landowners and the structural dependency on the global capitalist system persisted as the primary impediments to comprehensive economic independence until the advent of the revolution.

Keywords: World War I, July revolution, bourgeois dependency, economic colonialism, Egyptian economy.

Digital Colonialism and US-Chinese Technological Hegemony in the African Continent: A Critical Reading of the Structure of the New Digital Control

Dr. Doaa Abdel-Nabi Hamed

Abstract

This study examines the phenomenon of digital colonialism as a novel form of hegemony in the era of the technological revolution, where control manifests not through military force and weaponry, but via algorithms, data networks, and digital infrastructures. The research delves into how the United States and China have emerged as competing powers vying for global digital leadership through divergent models of control and expansion. It deconstructs the mechanisms employed by each state to extend its influence across the Global South, with a particular focus on the African continent, Asia, and Latin America. Employing a critical-analytical approach, the study reveals the parallels between traditional colonialism and its digital counterpart, highlighting how digital transformation in the Global South is frequently executed in a non-sovereign manner via externally directed projects, extracted data, and fragile legislative frameworks. Furthermore, the study investigates manifestations of digital resistance and the attempts of certain nations to regain the initiative by constructing independent digital infrastructures and formulating national cyber policies. Ultimately, the objective is to underscore the necessity for a digital emancipatory perspective that fosters justice and autonomy within cyberspace.

Keywords: digital colonialism, technological hegemony, digital sovereignty, Global South, digital resistance.

Digital Colonialism and the Trajectories of Modernity: From the Veneration of Reason to Algorithmic Hegemony

An Interview with Dr. Mahmoud Haidar, conducted by Asst. Lect. Mustafa Al-Shammari

Abstract

This in-depth dialogue conducted with Dr. Mahmoud Haidar explores the philosophical and historical roots of the «digital colonialism» phenomenon, tracing the trajectory of Western modernity from the sanctification of «instrumental reason» to the worship of technology and the machine. Dr. Haidar deconstructs the mechanisms of soft hegemony exercised by major technology corporations through data acquisition, infrastructure monopolization, and the imposition of cultural and epistemological paradigms that strip societies of their sovereignty and plunge them into a state of alienation. In contrast to classical military colonialism, the interview elucidates how digital colonialism reproduces dependency within frameworks that are ostensibly voluntary but intrinsically algorithmic. To confront this challenge, the dialogue outlines avenues of resistance and the cultivation of a critical consciousness aimed at protecting Arab and Islamic societies. It emphasizes the critical need to establish «digital sovereignty» and to localize technology in accordance with indigenous value systems, concluding with an urgent call to reconnect material progress with spiritual and metaphysical dimensions to rescue contemporary humanity from objectification and alienation.

Keywords: digital colonialism, digital sovereignty, Western modernity, instrumental reason, cultural alienation.

ترجمة ملخّصات المحتوى بالإنجليزيّة

Abstracts

Aims and Scope

This journal is dedicated to exploring the complex history of Western colonialism, encompassing both classical and modern periods, as well as the post-colonial era. It aims to provide a comprehensive analysis of the political, economic, educational, cultural, and intellectual motivations behind colonial endeavors, supported by robust documentation.

The journal critically examines the destructive nature of colonial military campaigns and their profound impact on colonized nations, including the displacement and mass killing of populations, and the long-term consequences of cultural invasions. It highlights how these invasions undermined cultural, religious, and social identities, weakened concepts of citizenship, questioned core values, alienated national consciousness, and fractured unity through the promotion of divisions, sectarianism, and discord. Additionally, the journal investigates the deliberate fabrication of crises by colonial powers and the enduring effects of these policies, which continue to shape contemporary realities. By offering a clear and detailed understanding of colonial policies and their devastating legacies, the journal aims to contribute to the development of independent national awareness and informed perspectives for the present and future.

Furthermore, the journal emphasizes the significance of resistance movements—whether religious, intellectual, scientific, literary, field-based, or political—in opposing colonial projects. It seeks to document the struggles and resurgence of nations as they resisted Western colonial expansion, highlighting their resilience and contributions to the fight for independence and justice.

7

Colonialism

A journal dedicated to the analysis

and critique of classical and new colonialism and post-colonialism.

Issued by the Islamic Center for Strategic Studies.

Deposit Number at the National Library and Archives in Baghdad 2024 (2767)

Editor-in-Chief

Dr. Hashim Al-Milani

Managing Editor

Dr. Ammar Abdul-Razzaq Al-Sagheer

Editorial Secretary

Dr. Furqan Al-Husseini

Editorial Board

Dr. Sheikh Jamal Ammar, Professor of Contemporary Thought, Tunisia.

Dr. Hassan Abdallah Hassan, Professor of Educational and Psychological Sciences, Egypt

Sheikh Hassan Al-Hadi, Researcher in Islamic Thought and Professor at the Islamic Seminary, Lebanon

Dr. Mahmoud Haidar, Professor of Philosophy and Contemporary Thought, Lebanon

Dr. Yassine Shihab Al-Bajwani, Professor of Contemporary History, Iraq.

Dr. Yahya Abu Zakaria, Professor of Islamic Civilization, Algeria

Arabic Language Proofreading

Dr. Fadhaa Thiab

Contact Information

Website: http://www.iicss.iq

Journal Website: colonialism.iicss.iq

Email: info@colonialism.iicss.iq

7

Colonialism

A journal dedicated to the analysis

and critique of classical and new colonialism and post-colonialism.

Issued by the Islamic Center for Strategic Studies.

Deposit Number at the National Library and Archives in Baghdad 2024 (2767)

The views expressed in this journal do not necessarily reflect those of the center.

AD 2026
AH 1447
spring
7

Colonialism

COLONIALISM

A quarterly journal concerned with the analysis and criticism of old and new colonialism and post-colonialism, published by the Islamic Center for Strategic Studies

Creation No. 2767 in the Iraqi National Library and Archives for the year 2024 AD

Editorial

Water Hegemony: Undermining Local Sovereignty

Dialogues

Digital Colonialism and Modernity: From Reason to Algorithms. — Dr. Mahmoud Haidar

Research and Studies

Digital Colonialism: US-China Tech Hegemony in Africa — Dr. Doaa Abdel-Nabi

The Transformation of the Egyptian Economy (1952–1914) — Dr. Sharif Emam

The Zaatcha Revolt (1849): A Turning Point in Algerian Resistance — Dr.Zineb Rezioui

The Role of Al-Azhar Scholars in Resisting French and British Colonialism — Dr. Ghaidan Al-Sayed Ali

The Laghouat Holocaust: French Colonialism and Genocide in Algeria — Dr. Sherif El-Din Bin Douba

Scientific Readings

A Critical Reading: The Dilemma of Colonial Development — A.L Mustafa Al-Shammari

A Study of the Jihadist Biography of Sayyid Abdul Razzaq Al-Hulw — Sayyid Khalid Al-Hulw

Translations

Hollywood's Misrepresentation of Islam: A Descriptive Review — APanel of Researchers

Recovered Texts

Post-Colonial Theory: The Thesis in the Service of Occidentalism — Dr. Jamil Hamdaoui

colonialism.iicss.iq info@colonialism.iicss.iq

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م